

مكتبة دار المعارف - القاهرة

الحاميين والاصدق

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري

إمام أهل الأدب المتوفي سنة ٢٥٥ هـ

دار مكتبة المعارف

PJ

7745

J3M3

702500

22.5.59

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه الاعانة

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وآله أجمعين .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله : اني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيره والخطب والخراج والاحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه الى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاحته ، وأكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والخط والرفع والترهيب والترغيب فانهم يحتاجون عند ذلك اتياج الابل المغتلمة ، فان أمكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له فهو الذي قصده وأرادوه وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً وتقريباً بليغاً وحاذقاً فطنا وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب والفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً وأهدوه الى ملك آخر وامتوا اليه به وهم قد ذموه وتلبوه لما رأوه منسوباً الي وموصوماً بي . وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأتوجه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأنيبها أولئك القوم بأعيانهم الطاءنون على الكتاب الذي كان أحكم من

هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علي ويكتبونه بخطوطهم
ويصيرونه إماما يقتدون به ويندارحونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون
ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه غني لغيرهم من طلاب ذلك
الجلس فنشبت لهم به رياسة ياتم بهم يوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمي ولم
ينسب الى تأليفي . وهذا كتاب وصحته (بالمحاسن والاضداد) لم أسبق الى
نخلته ولم يسألني أحد صنعه ابتدائه بذكر محسن الكتابة والكتب وختمته
في ذكر شيء من محاسن الموت والله يكلموه من حاسد اذا حسد

١ - محاسن الكتابة والكتب

كانت العجم تقيم آثارها بالبنيان والمدن والحصون مثل بناء أزدشير
وبناء اصطخر وبناء المدائن والسدير والمدن والحصون ، ثم إن العرب
شاركت العجم في البنيان وتفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار ، فلها
من البنيان غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب
والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان ، وتصنيف الكتب أشد تقييدا للمآثر
على بمر الايام والدهور من البنيان ، لان البناء لا محالة يدرس وتعمى
رعومه والكتاب باق يقع من قرن الى قرن ومن أمة الى أمة وهو أبداً
جديد والناظر فيه مستفيد وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير .
وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ونقشا في الحجارة وخلقة مركبة
في البنيان ، فربما كان الكتاب هو النائم وربما كان هو المحفور اذا
كان ذلك تاريخياً لامر جسيم أو عهداً لامر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها
أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب
الفيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر وعلى الأبلق
الفرد وعلى باب الرها . يعمدون الى المواضع المشهورة والاماكن المذكورة

فيضعون الحُط في أبعاد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس وأجدر أن يراه من مر به ولا ينسى على وجه الدهور . ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة لبطل أكثر العلم وأغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع الى موضع استدكار ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع ، ولولا ما رسمت لنا الاوائل في كتبها ، وخذت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنابها كل مستغلق فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدر كنا ما لم نكن ندركه الا بهم لقد نجس حظنا منه وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر والعلماء بخارج الملل وأرباب النحل وورثة الانبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء وكتب الملاهي وكتب أعوان الصلحاء وكتب أصحاب المراء والخصومات وكتب السخفاء وحمية الجامعية ، ومنهم من يفرط في العلم أيام خموله وتترك ذكره وحدائثه ، ولولا جياذ الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونزعت الى حب الكتب وألفت من حال الجهل وان يكونوا في غمار الوحش ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ما عسى أن يكون لا يمكن الاخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير ، وسمعت محمد بن الجهم يقول اذا غشيتي النعاس في غير وقت النوم تناولت كتابا فاجد اهتزازي للفوائد الاربجية التي تعتريني من مرور الاستنباه وعز التبين أشد إيقاظا من نهيق الحمار وهدة الهدم فاني اذا استعسنت كتابا واستجدته ورجوت فائدته لم أوتر عليه عوضا ولم أبغ به بدلا فلا أزال أنظر فيه ساعة بعد ساعة كم بقي من ورقه مخافة استنقاده وانقطاع المادة من قبله . وقال ابن داحة كان عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال في يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك فقال لم أر أوعظ من قبر ولا آنس من كتاب ولا أسلم من الوحدة . وأهدى بعض الكتاب الى صديق له دفترا وكتب معه : هديتي هذه أعزك الله تزكو على الانفاق

وتربو على الكد لا تفسدها العواري ولا تخلقها كثرة التقلب وهي إنس في الليل والنهار والسفر والحضر تصاح للدنيا والآخرة تؤنس في الخلوّة وتمنع من الوحدة مسامر مساعد ومحدث مطواع ونديم صدق ، وقال بعض الحكماء الكتب بساتين العلماء ، وقال آخر . الكتاب جليس لا مؤنة له ، وقال آخر : الكتاب جليس بلا مؤنة ، وقال آخر : ذهبت المكارم إلا من الكتب .

قال الجاحظ : وأنا أحفظ وأقول : الكتاب نعم الذخر والعقدة والجليس والعمدة ونعم النشرة ونعم النزهة ونعم المشتغل والحرفّة ونعم الأنيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزل . والكتاب وعاء ملىء علما وظرف حشى ظرفا وإناه شحن مزاحا إن شئت كان أعيان من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سبحان وائل ، وإن شئت سرتك نواذره وشجتك مواعظه ومن لك بواعظ ماله وبناسك فانك وناطق أخرس ، ومن لك بطبيب اعراي ورومي هندي وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب متمتع ، ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرنيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فما رأيت بستانا يجمع في ردن وروضة تنقل في حجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى آمن من الأرض وأكرم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ولا أعلم جارا آمن ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ولا أقل إملا ولا ابراما ولا أبعد من مرآه ولا أتوك لشغب ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب ، ولا أعم بياناً ولا أحسن مؤاتاة ولا أعجل مكافأة ولا شجرة أطول عمرا ولا أطيب ثمرا ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا ولا أوجد في كل إبان من

كتاب ، ولا أعلم نتاجا في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاختبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن الك بزاثر إن شئت كانت زيارته غبا وورده خمسا وإن شئت لزومك لزوم ظلك وكان منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يقلبك والرفيق الذي لا يملك والمستمع الذي لا يستزبدك والجار الذي لا يستبطنك والهاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاومك بالمكر ولا يخذعك بالنفاق . والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال امتناعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك وفخيم أفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصدافة الملوك بطبعك بالليل طاعته بالنهار وفي السفر طاعته في الحضر وهو المعلم إن افتقرت اليه لم يحقرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقا منه نادى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليهم نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتشير مال ورب صنيعه وابتداء إنعام . ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور الفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة واحراز الأصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن في ذلك الا أنه يشغلك عن سخط المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما نشتهبه لقد كان له في ذلك على صاحبه أصبغ النعم وأعظم المنة . وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس بما

يل لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة في خطابه والعلم
بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير ، وقال مصعب بن الزبير :
إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ويحفظون أحسن ما يكتبون
ويكتبون أحسن ما يسمعون ، فإذا أخذت الأدب فخذ من أفواه الرجال
فإنك لا ترى ولا تسمع إلا مختاراً ولؤلؤاً منظوماً ، وقال لقمان لابنه :
يا بني ناس في طلب العلم فإنه ميراث غير مسلوب ، وقرين غير مغلوب ،
ونقيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب ، وقال الزهري : الأدب ذكر
لا يحبه إلا الذكور من الرجال ولا يبغضه إلا مؤنثهم ، وقال : إذا
سمعت أدباً فاكتبه ولو في حائط ، وقال منصور بن المهدي للمأمون :
أجسن بنا طلب العلم والأدب قال : والله لأن أموت طالبا للأدب خير لي
من أن أعيش قائماً بالجهل قال : فإلى متى يحسن بي ذلك قال : ما
حسنت الحياة بك .

(ضده)

الحديث المرفوع (رحم الله عبداً أصلح من لسانه) . وكان الوليد بن عبد
الملك لجنة فدخل عليه اعرابي يوماً فقال : أنصفتي من خنتي يا أمير المؤمنين
فقال ومن خنتك ؟ قال رجل من الحي لا أعرف اسمه فقال عمر بن عبد
العزيز : إن أمير المؤمنين يقول لك من خنتك ؟ فقال هو ذا الباب فقال
الوليد لعمر ما هذا ؟ قال النحو الذي كنت أخبرتك عنه ، قال لا جرم
فإني لا أصلي بالناس حتى أتعلمه ، قال وسمع اعرابي مؤذناً يقول : أشهد
أن محمداً رسول الله فقال يفعل ماذا ؟ قال وقال رجل لزياد : أيها
الأمير إن أباينا هلك وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا فقال زياد
ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من ميراث أبيك فلا رحم الله أباك
حيث ترك أبنا مثلك . وقال مولى لزياد : أيها الأمير أخذوا لنا همار

وهش ، فقال : ما تقول ، فقال : أخذوا لنا إيراً ، فقال زياد الاول
خير من الثاني . قال واختصم رجلان الى عمر بن عبد العزيز فجملا يلحنان
فقال الحاجب : فما فقد أوديتما أمير المؤمنين ، فقال عمر للحاجب : أنت
والله أشد إذاء منها . ، قال وقال بشر المريسي وكان كثير اللحن :
قضى لكم الامير على أحسن الوجوه وأهنؤها ، فقال القاسم التمار : هذا
على قوله

إِنْ سَأَيْتُ وَاللَّهِ يَكَلِّمُهَا صَنَعْتُ بِشَيْءٍ مَا كَانَ يَزُزُّهَا

فكان احتجاج القاسم أطيب من لحن بشر ، قال وكان زياد النبطي
شديد اللمعة وكان نحويًا فدعا غلامه ثلاثاً لما أجابه قال . من لدن دأوتك
الى أن ديتني ما كنت تصناً ، يريد دعوتك وجثنتي وتصنع ، ومر ماسرجويه
الطيب بعماد بن مسلم فقال : يا ماسرجويه اني لاجد في حلقي بجحا
قال هو من عمل بلغم . لما جاوزه قال : تراني لا أحسن أن أقول بلغم
ولكنه قال بالعربية فأجبهت بضمها .

٢ - محاسن المخاطبات

حكوا عن ابن القرية ، انه دخل على عبد الملك بن مروان فبينما هو عنده
إذ دخل بنو عبد الملك عليه فقال : من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين ؟ قال :
ولد أمير المؤمنين ، قال : بارك الله لك فيهم كما بارك لابيک وبيک وبارک
لهم فيک كما بارک لك في أبيک ، قال : وشحن فاه درأ ، قال وقال
عمارة بن حمزة لابي العباس وقد أمر له بجوهر نفيس : وصلك الله يا
أمير المؤمنين وبرك فوالله لئن أردنا شكرك على انعامك ليقصرن شكرنا

عن نعمتك كما قصر الله بنا عن منزلتك . قيل ودخل اسحاق بن ابراهيم
الموصلي على الرشيد فقال : مالك ؟ قال :

سَوَامِي سَوَامُ الْمُكْثَرِينَ تَجَمُّلاً
ومالي كما قد تعلمين قليلُ
وَأَمْرَةٌ بِالْبُخْلِ قُلْتُ لَهَا أَقْصِرِي
فَذَلِكَ شَيْءٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ أَوْ أَحْرَمُ الْغِنَى
ورأيُ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيلُ
أرى النَّاسَ مُخْلَانَ الْجَوَادِ وَلَا أرى
تَجَمُّلاً لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلُ

فقال الرشيد : هذا والله الشعر الذي صحت معانيه وقويت أركانه
ومبانيه ولد على أفواه القائلين وأسماع السامعين يا غلام احمل اليه خمسين
الف درهم ، قال اسحاق يا أمير المؤمنين كيف أقبل صلتك وقد مدحت
شعري بأكثر مما مدحتك به ؟ قال الاصمعي : فعلت انه أصيد للدرهم
مني . قال ودخل المأمون ذات يوم الديوان فنظر الى غلام جميل على أذنه
قلم فقال : من أنت ؟ قال : أنا الناشء في دولتك المنقلب في نعمتك
المؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء ، فقال المأمون : بالاحسان في البديهة
تفاضل العقول يرفع عن مرتبة الديوان الى مراتب الخاصة ويعطى مائة
الف درهم تقوية له ، قال : ووصف يحيى بن خالد الفضل بن سهل وهو
غلام على المجوسية للرشيد وذكر أدبه وحسن معرفته فعلم على ضمه الى

المأمون فقال ليحيى يوماً أدخل الى هذا الغلام المجوسي حتى أنظر اليه
 فأوصله فلما مثل بين يديه ووقف تحير فأراد الكلام فارتج عليه فأدركته
 كبوة فنظر الرشيد الى يحيى نظرة منكورة لما كان تقدم من تقريظه إياه
 فانبعث الفضل بن سهل فقال : يا أمير المؤمنين ان من أبين الدلائل على
 فراهة الملوك شدة افراط هيبته لسيدته فقال له الرشيد : أحسنت والله لئن
 كان سكوتك لتقول هذا انه لحسن ولئن كان شيئاً أدركك عند انقطاعك
 انه لأحسن وأحسن ثم جعل لا يسأله عن شيء الا رآه فيه مقدماً فضمه
 الى المأمون ، قال : وقال الفضل بن سهل المأمون وقد سأله حاجة لبعض
 أهل بيوتات دهاقين سمرقند كان وعده تعجيل انفاذها فتأخر ذلك : هب
 لوعدك مذكرا من نفسك وهنيء سائلك حلاوة نعمتك واجعل مياك الى ذلك
 في الكرم حثاً على اصطفاء شكر الطالبين تشهد لك القلوب بحقائق الكرم
 والالسن بنهاية الجود ، فقال : قد جعلت اليك اجابة سؤالني عني بما توى
 فيهم وآخذك في التقصير فيما يلزم لهم من غير استئثار أو معاودة في اخراج
 الصكاك من أحضر الاموال متناولاً قال اذا لا تجدي معرفتي بما يجب لامير
 المؤمنين انهاء به بما يديم له منهم حسن الشاء ويستمد بدعائهم طول البقاء .
 وقال الفضل بن سهل المأمون . يا أمير المؤمنين اجعل نعمتك صائنة لوجوه
 خدمك عن اراقة مائها في غضاضة السؤال فقال والله لا كان ذلك الا كذلك .
 قال ودخل العتابي على المأمون فقال : خبرت بوفانك فغممتني ثم جاءني
 وفادتك فسرتني فقال يا أمير المؤمنين كيف أمدحك أم بماذا أصفك ولا دنت
 الا بك ولا دنيا الا معك ؟ قال سئني ما بدا لك قال يداك بالعطية أطلق من لساني
 بالمسالة . قال وقدم السعدي ابو وجزة على المهلب بن ابي صفرة فقال : أصلح الله
 الامير اني قد قطعت اليك الدهناء وضربت اليك آبط الابل من يثرب قال
 فهل أتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة ؟ قال لا ولكني رأيتك حاجتي أهلافان
 قمت بها فأهل ذلك وان يحل دونها حائل لم اذمم يومك ولم أياس من
 غذك فقال المهلب يعطى ما في بيت المال فوجد مائة ألف درهم فدفعت

إليه فآخذها وقال :

يَا مَنْ عَلَى الْجُودِ صَاغَ اللَّهُ رَاحَتَهُ
فَلَيْسَ يُحْسِنُ غَيْرَ الْبَدْلِ وَالْجُودِ
عَمَّتْ عَطَايَاكَ مَنْ بِالشَّرْقِ قَاطِبَةٌ
فَأَنْتَ وَالْجُودُ مَنُحَوْتَانِ مِنْ عَوْدِ

وقد يجب على العاقل الراغب في الادب أن يحفظ هذه الخطبات ويدرس قراءتها ، وقد قال الأصمعي :

أما لو أعى كل ما أسمع	وأحفظ من ذلك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمعت	أقبل أنا العالم المقتنع
ولكن نفسي إلى كل شيء	من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت	ولا أنا من جمعه أشبع
وأقعد للجهل في مجلس	وعلمي في الكتب مستودع
ومن يك في علمه هكذا	يكن دهره القهقري يذجع
يضيع من المال ما قد جمعت	وعلمك في الكتب مستودع
إذا لم تكن حافظاً واعياً	فجمعك للكتب ما ينفع

وقال بعضهم : الحفظ مع الافلال أمكن وهو مع الاكثر أبعد
وتغيير الطباع زمن رطوبة الغصن أقبل ، وفيها قال الشاعر :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أُعْرِفَ الْهَوَى
فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

وقيل : العلم في الصغر كالنقش في الحجر والعلم في الكبر كالعلامة
على المدر .. فسمع ذلك الاحنف فقال الكبير أكثر عقلا ولكنه أكثر
شغلا كما قال :

وَإِنْ مَنِ ادَّيْبَتْهُ فِي الصَّبِيِّ كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرَسِهِ
جَتَّى تَرَاهُ مَوْرِقًا نَاصِرًا بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُدْسِهِ

والصبي عن الصبي أوه وهو له آلف ، واليه أنزع . وكذلك العالم عن
العالم والجاهل عن الجاهل ، وقال الله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه
رجلا) لان الانسان عن الانسان أوه وطباعه بطباعه .

(ضده)

قال : دخل أبو علقمة النخعي على أمين الطبيب فقال : اني اكلت
من لحوم الجوازي ، وطست طساة فأصابني وجع بين الواهة إلى داية العنق
فلم يزل يربو ويمر حتى خالط الشرايف من عندك دواء ؟ قال نعم خذ
خوقا وسربقا وقرقا فاعسه واشربه بانه يقال لا أدري ما تقول فقال
ولا أنا أدري ما قلت . قال وقال ربما آخر لي أجسد معمة في قلبي
وقرقرة في صدري فقال له أما المعمة فلا أعرفها وأما القرقرة فهي خراط
غير نضيج . قال وأتى رجل الهيثم بن العريان بغريمه له قد مضطه حقه
فقال أصلح الله الأمير ان لي على هذا حقا قد غلبني عليه فقال له الآخر

أصلحك الله ان هذا باعني عنجدا واستنساته حولا وشرطت عليه أن أعطيه
مياومة فهو لا يلقاني في لقم الا افتضاني ذهابا فقال له الهيثم أمن بني أمية
أنت ؟ قال لا قال أمن بني هاشم أنت ؟ قال لا قال أمن أكفائهم من
العرب ؟ قال لا قال ويلي عليك أنزعوا ثيابه فلما أرادوا أن ينزعوا ثيابه
قال أصلحك الله ان إزاري مرعبل قال دعوه فلو ترك الغريب في موضع
لتركه في هذا الموضع . قال ومر أبو علقمة ببعض الطرق فهاجت به
مرة فوثب عليه قوم فعملوا يعصرون ايهامه ثم يؤذنون في أذنه فأفلت من
أيديهم فقال ما لكم تتكأ كلؤن على تكأ كؤمك على ذي جنة افرنقعوا عني
فقال رجل منهم دعوه فان شيطانه يتكلم بالهندية . قال وقال لرجل
يحببه اشدد قصب الملازم وارهدف ظبة المشارط وخفف الوضع وعجل
النزع وليكن شرطك وخزا ومصك نهزا ولا تكرهن أبا ولا تودن أبا
فوضع الحجام محاجمه في جونتته وانصرف .

٣ - محاسن المكاتبات

قال كعب العبسي لعروة بن الزبير . . قد أذنبت ذنبا الى الوليد بن
عبد الملك وليس يزيل غضبه شيء فاكتب لي اليه فكتب اليه . لو لم
يكن لكعب من قديم حرمة ما يغفر له عظيم جريوته لوجب أن لا ترمه
التفويؤ بظلم عفوك الذي تأمله القلوب ولا تعلق به الذنوب وقد استشفع بي
اليك فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سخط فحقق أمه وصدق ثقتي بك
تجد الشكر وافية بالنعمة . فكتب اليه الوليد . . قد شكرت رغبته اليك
وعفوت عنه لمعوله عليك وله عندي ما يجب فلا تقطع كتبك عني في أمثاله
وفي مائر أمورك . وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الى
بعض اخوانه . أما بعد فقد عاقني الشك عن عزيمة الرأي ابتدائي بلطفت

من غير خبرة ثم أعقبني جفاء من غير ذنب فاطمعتي أولك في احسانك
 وأياسني آخرك من وفائك فلا أنا في غير الرجاء بجمع لك اطراحا ولا في
 غد أنتظره منك على ثقة فسبحان من لو شاء كشف إيضاح الرأي فيك
 فأقمنا على ائتلاف أو افتراقنا على اختلاف . قال وسخط مسلمة بن عبد الملك
 على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة فشكا ذلك الى عمر بن عبد
 العزيز فكتب اليه : ان من حفظ أنعم الله رعاية ذوي الاسنان ومن اظهار
 شكر الموهوب صفح القادر عن الذنب ومن نهام السوود حفظ الودائع
 واستتمام الصنائع وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك فسلبتها عجلة
 سخطك وما أنصفته غضبه ، على أن وليته ثم عزلته وخليته وأنا شفيعه
 فاحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ولا تخرجه من حسن رأيك فتضيع ما
 أودعته وتتوى (١) ما أفسدته : فعفا عنه ورده الى عمله : قال وغضب
 سليمان بن عبد الملك على ابن عميد مولاه فشكا الى سعيد بن المسيب ذلك
 فكتب اليه : أما بعد فان أمير المؤمنين في الموضع الذي يرتفع قدره مما
 تقتضيه رعيته وفي عفو أمير المؤمنين سعة للمسيبين : فرضي عنه . قال وطلب
 العتابي من رجل حاجة ففرض له بعضها ومطله ببعض فكتب اليه : أما
 بعد فقد تركتني منتظراً لوعدك منتجزاً لرفدك وصاحب الحاجة محتاج
 الى نعم هنيئة أو لا مريجة والعدر الجميل أحسن من المطل الطويل . وقد
 قلت بيتي شعر :

بَسَطْتَ لِسَانِي مُمْ أَوْثَقْتَ نِصْفَهُ

فَنِصْفُ لِسَانِي بِأَمْتِدَاحِكَ مُطْلَقٌ

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُنْجِزْ عِدَائِي تَرَكَتْنِي

وَبَاقِي لِسَانِ الشُّكْرِ بِالْيَأْسِ مَوْثِقٌ

قال : وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضاً : أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطواك علي في إلحافه بنظرائه من الخاصة فـيما يرتزقون به وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام . فكتب إليه المأمون قد عرفنا تصرفك له وتعريضك لنفسك وأجبنك اليها ووقفناك عليها : قال وكتب عمرو ابن مسعدة إلى المأمون كتاباً يستعطفه على الجند : كتابي الى أمير المؤمنين ومن قبلي من أجناده وقراده في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم ، فقال المأمون : والله لأقضين حق هذا الكلام وأمر بإعطائهم لثانية أشهر . قال وقدم رجل من أبناء دهاقين قريش على المأمون لعدة سلفت منه فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون فقال لعمرو بن مسعدة توصل في رقعة مني إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكون لك على نعمتان فكتب : ان رأي أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربة المطل بقضاء حاجته ويأذن له في الانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله ، فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً فجعل يعجبه من حسن لفظها وإيجاز المراد فقال عمرو فما نتيجتها يا أمير المؤمنين قال الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ثلاثاً تأخر فضل استحصاننا كلامه وبجائزة مائة ألف درهم صلة عن دناءة المطل وسماجة الاغفال ففعل ذلك له . وحدثنا اسماعيل بن أبي شاذان قال : لما أصاب أهل مكة السيل الذي شارف الحجر ومات تحته خلق كثير كتب عبيد الله بن الحسن العلوي وهو والي الحرمين إلى المأمون : ان أهل حرم الله وجيران بيته وألاف مسجده وعمرة بلاده قد استجاروا بعز معروفك من سيل تراكمت أخرياته في هدم البيمان وقتل الرجال والنسوان واجتياح الاصول وجرف الابقال حتى ما ترك طارفاً ولا تالداً للراجع اليهما في مطعم ولا ملابس فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة إلى البكاء على الامهات والاولاد والآباء

والاجداد فأجرهم يا أمير المؤمنين بمطقتك عليهم واحسانك اليهم تجسد الله
مكائنك عنهم ومثيبك عز الشكر منهم . قال فوجه اليهم الامون بالاموال
الكثيرة وكتب الى عبيد الله أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله
أمير المؤمنين فيكلم بقلب رحمة وانجدد بسبب نعمته وهو متبع ما أسلف
اليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وأجلا ان أذن الله في تثبيت عزمه على صحة
نيتة . قال فصار كتابه هذا آتس لأهل مكة من الأموال التي أنفدها
اليهم . قال وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى يحيى بن خالد يستغفیه
من العمل : شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من سأل الدخول
فيه : قال وكتب علي بن هشام الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي : ما أنري
كيف أصنع أغيب فاشتاق وأنتقي ولا أشتهي ثم يحدث لي اللقاء الذي طلبت
منه الشفاء نوعا من الحرقه لاوغة الفرقة : قال وكتب مفضل إلى أبي داف
فلان جميل الحال عند الكرام فان أنت لم ترتبطه بفضلك عليه فقل
غيرك . وكتب أبو هاشم الحرابي إلى بعض الامراء : غرضي من
الامير مهوز والصبير على الحرمان معجز : وكتب آخر الى صديق له :
أما بعد فقد أصبح لنا من فضل الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه وما
ندري ما نشكر أجميل ما نشر أم كثير ما ستر أم عظيم ما أبى أم كثير
ما عفا غير انه يلزمنا في كل الامور شكره ويجب علينا حمده واستزاد الله في
حسن بلائه كشكرك على حسن آلائه .

(ضده)

(قال الجاحظ) كتب ابن المراكبي إلى بعض ملوك بغداد : جعلت
فذاك برحمته : قال وقرأت على عنوان كتاب لابي الحسن الشمري :

(٢ - ٣ - عاين)

للموت لنا قبلة : وقرأت أيضاً عن عنوان كتاب : الى الذي كتب إلي

٤ - محاسن الجواب

قال : دخل رجل على كسرى أرويز ، فشكا اليه عاملاً غصبه على ضيعة له ، فقال له كسرى : منذ كم هي في يدك ؟ قال منذ أربعين سنة قال : فانت تأكلها اربعين سنة ما عليك أن يأكل عامي منها سنة واحدة فقال : وما كان على الملك أن يأكل بهرام جور الملك سنة واحدة ؟ فقال : ادفعوا في قفاه فأخرجوه ولما خرج أمكنته التفاتة فقال : دخلت بمظلمة وخرجت بثنتين فقال كسرى : ردوه وأمر برد ضيعة وصيره في خاصته . ويقال : ان سعيد بن مرة الكندي حين أتى معاوية قال له : أنت سعيد قال : أمير المؤمنين سعيد ، وأنا ابن مرة . قال : ودخل السيد بن أنس الأزدي على المأمون ، فقال : أنت السيد ؟ فقال : انت السيد يا أمير المؤمنين ، وأنا ابن أنس . قال : وقيل للعباس ابن عبد المطلب أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال هو عليه الصلاة والسلام أكبر مني وأنا ولدت قبله . قال : وقال الحجاج للهبأ أنا أطول أم أنت ؟ قال : الامير أطول وأنا أبسط قامة منه . قيل : ووقف المهدي على امرأة من بني نعل فقال لها : بمن العجوز ؟ قالت من طي . ؟ قال ، ما منع طيئنا أن يكون فيها آخر مثل حاتم قالت : الذي منع العرب أن يكون فيها آخر . مثلك وأعجب بقولها ووصلها ، قيل : وما استوثق أمر العراق لعبدالله بن الزبير وجه مصعب اليه وقدأ فلما قدموا عليه قال لهم وددت أن لي بكل خمسة منكم رجلا من أهل الشام ، فقال رجل من أهل العراق : يا امير المؤمنين علقناك وعلقت بأهل الشام وعلق أهل الشام بأل مروان ، فما أعرف لنا مثلاً إلا قول الأعشى :

عُلِّقَتْهَا عَرَضًا وَعُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

فما وجدنا جواباً أحسن من هذا . قال : وقال مسلمة بن عبد الملك :
ما شيء يؤتى العبد بعد الايمان بالله تعالى أحب إلي من جواب حاضر فان
الجواب إذا انقلب لم يكن شيئاً .

(ضده)

قال اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبيرقان بن بدر وعمرو
ابن الأهثم فذكر عمرو الزبيرقان قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله انه
لملأعام جواد الكف مطاع في أدانيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره
فقال الزبيرقان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله انه ليعرف مني أكثر من
هذا ولكنه يحسدني ، فقال عمرو : والله يا نبي الله ان هذا لزم المرودة
ضيق العطن لئيم العم أحق الخلال ، فرأى الكراهية في وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله ، فقال : يا رسول الله ما كذبت في
الأولى ولقد صدقت في الأخرى ولكني رضيت فقلت أحسن ما علمت
وسخطت فقلت أسوأ ما أمر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما) ، وذكروا أن الوليد بن
عقبة قال لمعين بن أبي طالب : عليك عى الثروة والعدد . قال : وسبقني
ولياك الى الجنة . قال الوليد : أما والله إن شديك لتضامخان . من دم
عثمان ، قال عقيل : ما لك ولقريش ؟ وإنما أنت فيهم كمنيع اليسر ،
فقال الوليد : والله إنى لأرى لو أن أهل الأرض استكروا في قتله
لوردوا صعودا ، فقال له عقيل : كلا أما ترغب عن صحبة أهلك . قال
وقال رجل من قريش خالد بن صفوان ما اسمك ؟ قال خالد بن صفوان
ابن الاهتم ، قال : ان اسمك لكذب ما أنت بخالد وان أباك اصفوان

وهو حجر وان جلدك لأهت والصحيح خير من الأهت ، فقال له خالد :
 من أي قريش أنت ؟ قال من عبيد الدار بن قصي بن كلاب ، قال :
 لقد هشتك هاشم وأمتك أمية وجمعت بك جمع وخزمتك مخزوم وأفصنتك
 قصي فجعلتك عبد درهما تفتح إذا دخلوا وتغلق إذا خرجوا . قيس :
 ومر الفرزدق فرأى خليفة الشاعر فقال له : يا أبا فراس من القائل :

هُوَ الْقَيْنُ وَابْنُ الْقَيْنِ لَأَقَيْنَ مِثْلَهُ

لِفَطْحِ الْمَسَاحِي أَوْ لِحَدَلِ الْأَدَاهِمِ

قال الفرزدق : الذي يقول :

هُوَ اللَّصُّ وَابْنُ اللَّصِّ لَا لَصَّ مِثْلَهُ

لِنَقْبِ حِجْدَارٍ أَوْ لِطَسْرٍ الدَّرَاهِمِ

٥ محاسن حفظ اللسان

قال أكثم بن صيفي : مقتل الرجل بين فكيه - يعني لسانه - وقال :
 رب قول أشد من صول ، وقال : لكن ساقطة لاقطة ، وقال المهلب
 لبيته : اتقوا زلة اللسان فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته
 ويزل لسانه فيكون فيه هلاكه . قال يونس بن عبيد : ليست خلة من
 خلال الخير تكون في الرجل هي أخرى أن تكون جامعة لأنواع الخير
 كلها من حفظ اللسان . وقال قدامة بن زهير : يا معشر الناس ان
 كلامكم أكثر من صمتكم فاصمتينوا على الكلام بالصمت وعلى الصواب بالفكر .
 وكان يقال : ينبغي للمافل أن يحفظ لسانه بحفظ موضع قدمه ومن لم

يحفظ لسانه فقد سلطه على هلاكه ، وقال الشاعر :

عَلَيْكَ حِفْظَ اللِّسَانِ مُجْتَهِدًا فَإِنَّ جُلَّ الهَلَاكِ فِي زَلَلِهِ
غیره

وَجُرْحُ السَّيْفِ أَسْوَهُ قَيْبَرًا وَجُرْحُ الدَّهْرِ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ
جِرَاحَاتُ الطَّمَانِ لَهَا التِّثَامُ وَلَا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ
غیره

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَقُولُ فِتْنَتِي إِنَّ البَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِقِ
غیره

لَعَنَ رُكَّ مَا شِئْتَ عَلِمْتُ مَكَانَهُ أَحَقُّ بِسِجْنِي مِنْ لِسَانِي مُذَلَّلِي
عَلَى فَيْكٍ مِمَّا أَلْبَسَ بَعْضُكَ قَوْلَهُ بِقُلِّ شَدِيدِ حَيْثُ مَا كُنْتَ فَأَقْفَلِي

قيل : تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأننا رميت عن قوس واحد : قال كسرى : أنا عى رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت ، وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتي وإن كنت أملكها ، وقال فيصر : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت ، وقال ملك الصين : عاقبة ما قد جرى به القول أسد من الندم على ترك القول ، وقال بعضهم : من حصاة الانسان أن يكون الاستماع أحب إليه من النطق إذا وجد من يكفيه فانه لن يعدم الصمت والاستماع سلامة وزيادة في العلم ، وقال بعض الحكماء : من قدر على أن يقول فيحسن فانه قادر

علي أن يصت فيحسن ، وقال بعضهم : كان ابن عبيدة الريجاني
 المتكلم الفصيح صاحب التصانيف يقول : الصمت أمان من تحريف
 اللفظ وعصاة من زيغ المنطق وسلامة من فضول القول ، وقال أبو
 عبيد الله كاتب المهدي : كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك
 على التماسه بالكلام ، وكان يقال : من سكت فسلم كان كمن قال فغشم ،
 وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يكره الانبعاث في
 الكلام يرحم الله امرأ أوجز في كلامه واقتصر على حاجته) ، قيل : وكلم
 رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله فقال : أنساني أول كلامك طول
 عهده وفارق آخره فمحي لتفاوته ، ولما قدم ليقتل بكت امرأته فقال
 لها : ما يبكيك ؟ قالت تقتل ظلماً قال : وكنت تخين أن أقتل حقاً
 أو أقتل ظالماً . وشتم رجل المهلب فلم يجبه فقبيل له : حملت عنه فقال :
 ما أعرف مساويه وكرهت أن أهته بما ليس فيه ، وقال سلمة بن القاسم
 عن الزبير قال : حملت الى المتوكل وأدخلت عليه فقال : يا أبا عبدالله
 الزم أبا عبدالله - يعني المعتز - حتى تعلمه من فقه المدنيين ، فأدخلت
 حجرة فاذا أنا بالمعتز قد أتى في رجله نعل من ذهب وقد عنثر به فسأل دمه
 فجعل يفسل الدم ، ويقول :

يُصَابُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةِ بِلْسَانِهِ

وَإِنْسَ يُصَابُ الْمُرُوءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِهِ وَعَثْرَتُهُ بِالرَّجْلِ تَبْرَأَ عَلَى مَهْلٍ

فقلت في نفسي : ضمنت الى من أريد أن أتعلم منه .

(ضده)

. مثل بعض الحكماء عن المنطق فقال : إنك تمدح الصمت بالمنطق

ولا تمدح المنطق بالهمت وما عبر به عن شيء فهو أفضل منه ، وسئل آخر عنها فقال : أخزى الله الساكنة ما أفسدها للسان وأجلبها للعبي ووالله للماراة في استخراج حق أهده للعبي من النار في يابس العرفج ، فقيل له : قد عرفت ما في الماراة من الذم ، فقال : ما فيها أقل ضرراً من السكنة التي تورث عللاً وتولد داء أيسره العبي ، وقال بعض الحكماء : اللسان عضو فان مرته حرن وإن تركته حرن ، وبمن أفرط في قوله فاستقبل بالحلم ، ما حكى عن شهرام المروزي فانه جرى بينه وبين أبي مسلم صاحب الدولة كلام فما زال أبو مسلم يجاوره الى أن قال له شهرام : يا لظة فصمت أبو مسلم وندم شهرام على ما سبق به لسانه وأقبل معتذراً خاضعاً ومنتصلاً ، فلما رأى ذلك أبو مسلم قال : لسان سبق وومم أخطأ وانما الغضب شيطان والذنب لي ، لأني جرأتك على نفسي بطول احتيالي منك ، فان كنت معتدداً للذنب فقد شركتكم فيه وان كنت مغلوباً فالعذر يسمعك ، وقد غفرتك على كل حال ، قال شهرام : أيها الملك عفو مثلك لا يكون غروراً قال : أجل ، قال : وان عظيم ذنبي لسن يدع قلبي يسكن ولج في الاعتذار ، فقال أبو مسلم : يا عجباً كنت تسيء وأنا أحسن ، فاذا أحسنت أسأت .

٦ - محاسن كتمان السر

قال : كان المنصور يقول : الملك يحتمل كل شيء من أصحابه الا ثلاثاً إفشاء السر والتعرض للحرم والقدح في الملك ، وكان يقول : سررك من دمك فانظر من تملكه ، وكان يقول : سررك لا تطلع عليه غيرك وإن من انفذ البصائر كتمان السر حتى يبرم المبروم ، وقيل لأبي مسلم : بأي شيء أدركت هذا الامر ؟ قال : ارتديت بالكتمان واترت بالحزم

وحالفت الصبر وساعدت المقادير فأدرتك طلبتي وحزت بعيتي ، وأنشد
في ذلك :

أدرتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عجزتُ
عنهُ ملوكُ بني مروانَ إذ حشدوا
مازلتُ أَسعى عليهمُ في ديارهمُ
والقومُ في ملكهمُ بالشامِ قد رقدوا
حتى ضربتهمُ بالسيفِ فانتدبها
ومن رعى غنماً في أرضٍ مسبمةٍ
ونامَ عنها تولى رعيها الأسدُ

قال : وقال عبد الملك بن مروان للشعبي لما دخل عليه : جنبي خلاصاً
أربعاً : لا تطريني في وجهي ولا تجرين علي كذبة ولا تغتابن عندي أحداً
ولا نفسين لي سراً . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (استعينوا على
إنجاح حوائجكم بكتهان السر فان كل ذي نعمة محسود) وأنشد اليزيدي
في ذلك :

النَّجْمُ أَقْرَبُ مِنْ سِرِّ إِذَا اشْتَمَلَتْ
مِنْ عِلْسِ السَّرِّ اضْلَاعٌ وَأَحْشَاءُ

غيره

وَنَفْسِكَ فَاحْفَظْهَا وَلَا تُفْشِرْ لِلْعَدَى
مِنَ السَّرِّ مَا يَطْوِي عَلَيْهِ ضَمِيرُهَا

فَمَا يَحْفَظُ الْمَكْتُومَ مِنْ سِرِّ أَهْلِهِ
 إِذَا عَقَدُ الْأَسْرَارِ ضَاعَ كَثِيرُهَا
 مِنْ الْقَوْمِ إِلَّا ذُو عَفَافٍ يُعِينُهُ
 عَلَى ذَلِكَ مِنْهُ صِدْقُ نَفْسٍ وَخَيْرُهَا

قال معاوية بن أبي سفيان : أعتت عبي علي بن أبي طالب بأربع خصال : كان رجلاً ظاهرة علته لا يكتم سرا وكانت كنفوماً لسري وكان لا يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكانت ابادر الى ذلك وكان في أخبت جند وأشدهم خلافاً وكانت في أطوع جند واقلهم خلافاً وكانت احب الى قريش منه فقلت ما شئت فقلت من جامع إلي ومفروق عنه . وكان يقال : لكاتم سره من كتمانته إحدى فضيلتين : الظفر بجاحته والسلامة من شره ، فمن احسن فليحمد الله وله المنة عليه ، ومن أساء فليستغفر الله . وقال بعضهم : كتمانك السر أيسر من الندم على افشائه . وقال بعضهم : ما أقبح بالانسان أن يخاف على ما في يده من اللصوص فيخفيه ويمكن عدوه من نفسه باظهاره ما في قلبه من سر نفسه وسر أخيه ، ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومن إلا نفسه ان لم يستقم له . وقال معاوية : ما أفشيت سري الى أحد الا أعقبني طول الندم وشدة الأسف ولا أودعته جوارح صدري فحكمته بين أضلاعي إلا أكسبني مجداً وذكرًا وسناء ورفعة فليل : ولا ابن العاص قال : ولا ابن العاص . وكان يقول : ما كنت كاتم من عدوك فلا تظهر عليه صديقك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كتم سره كانت الخيرة في يده ومن عرض نفسه للتهمة فلا بلوه من أساء به الظن وضع أمر أخيك على احسنه ولا تظن بكلمة خرجت منه

سوءاً ما كنت واجداً لها في الخير مذهباً وما كافأت من عصى الله بك
 بأفضل من أن تطيع الله جل اسمه فيه وعليك باخوان الصدق فانهم زينة
 عند الرخاء وعصاة عند البلاء . . . وحدث ابراهيم بن عيسى قال :
 ذاكرت المنصور ذات يوم في أبي مسلم وصورته السر وكتبه حتى فعل ما
 فعل ، فأشده :

تَقَسَّمَنِي أُمْرَانِ لَمْ أَفْتَتِحْهُمَا بَجَزْمٍ وَلَمْ تَعْرُكْهُمَا لِي السُّكْرَاكِرُ
 وَمَا سَاوَرَ الْأَحْشَاءُ مِثْلُ دَفِينَةٍ مِنْ أَلْهَمٍ رَدَّتْهَا إِلَيْكَ الْمَعَاذِرُ
 وَقَدْ عَلِمْتَ أَفْنَاءَ عَدْنَانَ أَنِّي عَلَى مِثْلِهَا مِقْدَامَةٌ مُتَجَاوِرُ
 وقال آخر :

صُنِ السِّرُّ بِالْكِتْمَانِ يُرِضُكَ غَيْبُهُ فَقَدْ يَظْهَرُ السِّرُّ الْمُضْمِعُ فَيَنْدَمُ
 وَلَا تُفْشِيَنَّ سِرًّا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَيَظْهَرُ خَرَقُ الشَّرِّ مِنْ حَيْثُ يُكْتَمُ
 وَمَا زَاتُ فِي الْكِتْمَانِ حَتَّى كَأَنَّي

يَرْجِعُ جَوَابَ السَّائِلِ عَنْهُ أَعْجَمُ
 لِنَسَلَمَ مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ وَتَسْلَمِي
 سَلِمَتْ وَهَلْ حَيٌّ عَلَى الدَّهْرِ يَسْلَمُ
 وقال آخر :

أَمْنِي تَخَافُ أَنْ تَبْشَرَ الْخَبِيثِ وَحَظِي فِي سِتْرِهِ أَوْفَرُ
 وَلَوْ لَمْ أَصْنَهُ لِبُقْيَا عَلَيْكَ نَظَرْتُ لِنَفْسِي كَمَا تَنْظُرُ

وقال أبو نواس :

لَا تُفْشِ أَسْرَارَكَ لِلنَّاسِ وداوِ أْحْزَانَكَ بِالْكَاسِ
فَإِنَّ إِبْلِيسَ عَلَى مَا بِهِ أَزَافُ بِالنَّاسِ مِنَ النَّاسِ

وقال المبرد : أحسن ما سمعت في حفظ اللسان والسر ما روى
لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

لَعَنُوكَ إِنْ وُشِئَ الرَّجَا لِ لَا يَبْثُرُ كُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا
فَلَا تُبْدِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا

وقال العتيبي :

وَلِي صَاحِبٌ سِرِّي الْمَكْتُمُ عِنْدَهُ مَحَارِيقُ نِيرَانِ بَابِلٍ تُحْرَقُ
عَدَوْتُ عَلَى أَسْرَارِهِ فَكَسَوْتُمَا نِيَابًا مِنَ السَّكْتِمَانِ مَا تَتَخَرَّقُ
فَمَنْ كَانَتْ الْأَسْرَارُ تَطْفُو بِصَدْرِهِ فَأَسْرَارُ صَدْرِي بِالْأَحَادِيثِ تُغْرَقُ
فَلَا تُوَدِّعَنَّ الدَّهْرَ سِرَّكَ أَحْمَقًا فَإِنَّكَ إِنْ أُوْدِعْتَهُ مِنْهُ أُنْحَقُ
وَحَسْبُكَ فِي سِتْرِ الْأَحَادِيثِ وَاعْظَمًا مِنَ الْقَوْلِ مَا قَالَ الْأَدِيبُ الْمُؤَفَّقُ
إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنِ سِرِّ نَفْسِهِ فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ اضْيَقُ

وقال آخر :

لَا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا كُلُّ ذِي خَطَرٍ فَالسِّرُّ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَكْتُومٌ

وَالسَّرُّ عِنْدِي فِي بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَالْبَابُ مَرْدُومٌ

قيل : دخل أبو العتاهية على المهدي وقد ذاع شعره في عتبه ، فقال :
ما أحسنت في حبك ولا أجلت في إذاعة سرك ، فقال :

مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنْ سَيَكْتُمُ حَبِيهٖ

أَوْ يَسْتَطِيعُ السِّرَّ فَهُوَ كَذُوبٌ

الْحُبُّ أَغْلَبُ لِلرِّجَالِ بِقَهْرِهِ مِنْ أَنْ يُدَى لِسْرٍ فِيهِ نَصِيبٌ
وَإِذَا بَدَأَ سِرُّ السُّبُوبِ فَانْهٖ لَمْ يَبْدُ إِلَّا وَالْفَتَى مَمْلُوبٌ
إِنِّي لِأَحْسَدُ ذَا هَوَى مُسْتَحْفِظًا لَمْ تَتَّهَمْهُ أَعْيُنٌ وَقُلُوبٌ

فاستحسن المهدي شعره وقال : قد عذرتك على إذاعة سرك ووصلناك
على حسن عذرك ان كتمان السر أحسن من إذاعته . وقال زياد : لكل
مستشير ثقة وان الناس قد ابتدأت بهم خصلتان : إذاعة السر ، وترك
النصيحة ، وايس للسر موضع إلا أحد رجلين : إما أخروي يرجو ثواب
الله ، أو دنياوي له شرف في نفسه وعقل يصون به حسيبه وهما مهدومان
في هذا الدهر . وقال المهلب : ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما
تضيق عن السر ، كما قال الشاعر :

وَلَرُبَّمَا كَتَمَ الْوَقُورُ فَصَرَّحَتْ حَرَكَاتُهُ لِلنَّاسِ عَنْ كِتْمَانِهِ
وَلَرُبَّمَا رَزَقَ الْفَتَى بِسَكْوَتِهِ وَلَرُبَّمَا حَرَّمَ الْفَتَى بَيَانِهِ

وقال آخر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْفَظْ لِنَفْسِكَ سِرَّهَا فَسِرُّكَ عِنْدَ النَّاسِ أَفْشَى وَأَضْيَعُ

وقال آخر :

لِسَانِي كَتَمْتُ لِأَسْرَارِكُمْ وَدَنْمِي تَقَوْمٌ لِسِرِّي مُذْبِعُ
فَلَوْلَا الدُّمُوعُ كَتَمْتُ الْهَوَى
وَلَوْلَا الْهَوَى لَمْ تَكُنْ لِي دُمُوعُ

٧ - محاسن المشورة

يقال : إذا استخار الرجل ربه واستشار صيحه واجتهد فقد قضى ما عليه ويقضى الله في أمره ما يجب . وقال آخر : حسن المشورة من المشير قضاء حق النعمة . وقيل : إذا استشرت فانصحت ، وإذا قدرت فاصفح . وقيل : من وعظ أخاه سراً زانه ومن وعظه جهراً شانه . وقال آخر : الاعتصام بالمشورة نجاة . وقال آخر : نصب عقلك مع أخيك فاستشره . وقال آخر : إذا أراد الله لميد هلاكاً أهلكه برأيه . وقال آخر : المشورة تقوم اعوجاج الرأي . وقال : ليلك ومشورة النساء فان رأين إلى أهبن وعزمين إلى وهن .

(ضده)

قال بعض أهل العلم : لو لم يكن في المشورة إلا استضعاف صاحبك لك وظهور فقرك إليه لوجب أطراح ما تفيده المشورة والقاء مسابك يكببه الامتنان ، وما استشرت أحداً إلا كنت عند نفسي ضعيفاً وكان عندي

قريباً ، وتصاغت له ودخلته العزة ، فأياك والمشورة وان خافت بك
 المذاهب واختلفت عليك المسالك وأداك الاستبهاج الى الخطأ الفادح ، فان
 صاحبها أبدا مستذل مستضعف ، وعليك بالاستبداد فان صاحبه أبداً جليل
 في العيون مهيب في الصدور ، ولن تزال كذلك ما استغفيت عن ذوي
 العقول فاذا افتقرت اليها حقرتك العيون ورجفت بك أركانك وتضعضع
 بنيانك وفسد تدبيرك واستهقرت الصغير واستخف بك الكبير وعرفت بالحاجة
 اليهم . وقيل : نعم المستشار العلم ونعم الوزير العقل . ومن اقتصر على
 رأيه دون المشورة الشعبي فانه خرج مع ابن الأشعث فقدم به على الحجاج
 فلقبه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج فقال له : أشركني فقال : لا أدري
 بما أشير ولكن اعتذر بما قدرت عليه وأشار بذلك عليه كافة أصحابه ، قال
 الشعبي : فلما دخلت خالفت مشورتهم ورأيت والله غير الذي قالوا فسلمت
 عليه بالامرة ثم قلت : أيد الله الأمير ان الناس قد أمروني أن أعتذر بغير
 ما يعلم الله انه الحق ولك الله ان لا أقول في مقامي هذا إلا الحق قد
 جهدنا وحرضنا فما كنا بالاقرباء الفجرة ولا الأتقياء البررة ولقد نصرك الله
 علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وإن عفوت فبجملتك والحجة لك
 علينا ، فقال الحجاج : أنت والله أحب اليما قولاً ممن يدخل علينا وسيفه
 يقطر من دماننا ويقول والله ما فعلت ولا شهدت أنت آمن يا شعبي ،
 فقلت : أيا الأمير آكتعلت والله بعدك السهر واستعلست الخوف وقطعت
 صالح الاخوان ولم أجد من الأمير خلفاً قال : صدقت ، وانصرفت .

٨ - محاسن الشكر

قال بعض الحكماء : صن شكرك ممن لا يستحقه واسترماً وجهك
 بالقناعة . وقال الفضل بن سهل : من أحب الازيداد من النعم فليشكر ومن

أحب المنزلة فليكنف ومن أحب بقاء غزه فليستقط دالته ومكره . ومن ذلك قول رجل لرجل شكره في معروف :

أَقْدُ ثَبَّتَ فِي الْقَابِ مِنْكَ مَوَدَّةٌ

كَمَا ثَبَّتَ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

قال : واصطنع رجل رجلا وسأله يوماً أتجني يا فلان قال : نعم أحبك حبا لو كان فوقك لأظلك أو كان تحتك لأقلك . وقال كسرى أنوشروان : المنعم أفضل من الشاكر لأنه جعل له السبيل الى الشكر . واختصر حبيب ابن أوس هذا في مصراع واحد فقال :

لَهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا

الباهي عن أبي فروة قال : مكتوب في التوراة : اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت ولا اقامة لها إذا كفرت والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمس تعاجل صاحبهن بالمعقوبة : (البغي والعدو وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم ومعروف لا يشكر) ، وأنشد الخطيبه عمر وكمب الاحبار عنده :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ

لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

فقال كمب : يا أمير المؤمنين من هذا الذي قال هذا هو . مكتوب في التوراة ؟ فقال عمر : كيف ذلك ؟ قال في التوراة مكتوب : من يصنع

الخير لا يضيع عندي لا يذهب العرف بياني وبين عبيدي . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا الاجتهاد ، فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً . وفي الحديث (ان رجلاً قال في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم ربنا لك الحمد حمداً مباركاً طيباً زكياً فلما انصرف صلى الله عليه وسلم قال أيسم صاحب الكلمة قال أحدهم أنا يا رسول الله فقال لقد رأيت سبعة وثلاثين ملكاً يتدرون أيهم يكتبها أولاً) وقيل : نسيان النعمة أول درجات الكفر ، وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : المعروف يكفر من كفره لأنه يشكره عليه أشكر الشاكرين ، وقد قيل في ذلك :

بِدُ الْمَعْرُوفِ غَنِمٌ حَيْثُ كَانَتْ تَحْمَلُهَا كَفُورٌ أَمْ شَكُورٌ
فَعِنْدَ الشَّاكِرِينَ لَهَا جَزَاءٌ وَعِنْدَ اللَّهِ مَا كَفَرَ الْكُفُورُ

وقال بعض الحكماء : ما أنعم الله على عبد نعمة فشكر عليها الا تترك حسابها عليها ، وقال بعض الحكماء : عند التراخي عن شكر النعم تحمل عظام النعم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول لعائشة ما فعل بيتك فتنشده

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مَسَّنْ
أَثْنِي عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

فيقول صلى الله عليه وسلم : صدق القائل يا عائشة إن الله إذا أجرى على يد رجل خيراً فلم يشكره فليس لله بشاكر ، وقيل لذي الرمة : لم خصصت بلال بن أبي بردة بندحك ؟ قال : لأنه وطأ مضجعي وأكرم مجلسي وأحسن صلتني فحق لكثير معروفته عندي ان يستولي على شكري .

ومنهم من يقدم ترك مطالبة الشكر وينسبه الى مكارم الاخلاق ، من ذلك ما قاله بزرجهر . من انتظر بمعرفة شكرك عاجل المكافأة ، وقال بعض الحكماء : إن الكفر يقطع مادة الانعام فكذلك الاستطالة بالصنعة تمحق الأجر ، وقال علي بن عبيدة : من المكارم الظاهرة وسنن النفس الشريفة ترك طلب الشكر على الاحسان ورفع الهمة عن طلب المكافأة واستكثار القليل من الشكر واستقلال الكثير بما يبذل من نفسه . وفصل من كتاب ولست أقابل اياديك ولا أستديم احسانك إلا بالشكر الذي جعله الله للنعم حارساً وللحق مؤدياً والمزيد سبباً .

(ضده)

قال بعض الحكماء : المعروف الى الكرام يعقب خيراً والى اللئام يعقب شراً ومثل ذلك مثل المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤاً وتشرب منه الافاعي فيعقب سمّاً . وقال سفيان : وجدنا اصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام . وقال : أثار جماعة من الاعراب ضبعا فدخلت خباء شيخ منهم فقالوا أخرجها ، فقال : ما كنت لأفعل وقد استجارت بي فانصرفوا وقد كانت هزبلا فأحضر لها لقاحا وجعل يسقيها حتى عاشت فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته . فقال شاعرهم في ذلك :

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ

يُبَلِّغُنِي الَّذِي لَاقَى مُجْبِرُ أُمَّ عَامِرٍ

أَقَامَ لَهَا لَمَّا أَنَاخْتُ بِبَابِهِ لَتَسْمَنَ أَلْبَانَ اللَّقَاحِ الدَّرَائِرِ

فَأَسْمَنَهَا حَتَّى إِذَا مَا تَمَكَّنْتُ فَرْتَهُ بِأَنْيَابِ لَهَا وَأُظَافِرِ

فَقُلْ لِدَوَى الْمَعْرُوفِ هَذَا جَزَاءٌ مَنْ يَجُودُ بِإِحْسَانٍ إِلَى غَيْرِ شَاكِرٍ

قيل : وأصاب أعرابي جرو ذئب فاحتمله الى خبائه وقرب له شاة فلم يزل يمتص من لبنها حتى سمن وكبر ثم شد على الشاة فقتلها . فقال الاعرابي يذكر ذلك :

غَذَّتْكَ سُؤْيَتِي وَنَشَأَتْ عِنْدِي فَمَنْ أَدْرَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذَيْبُ
فَجَعَتْ نُسِيَّةً وَصِغَارَ قَسُومٍ بِشَاتِهِمْ وَأَنْتَ لَهَا رَبِيبُ
إِذَا كَانَ الطَّبَاعُ طِبَاعَ سَوْءٍ فَلَيْسَ بِنَافِعِ أَدَبِ الْأَدِيبِ

وفي المثل - سمن كلبك يا كلك - وأنشد :

مُسَّمَّنُوا كَلْبًا لِيَأْكُلَ بَعْضُهُمْ وَلَوْ عَمِلُوا بِالْحَزْمِ مَا سَمَّنُوا كَلْبًا
وقال آخر :

وَإِنِّي وَقَيْسًا كَالسَّمَنِ كَلْبُهُ فَخَدَّشَهُ أَنْيَابُهُ وَأُظَافِرُهُ

ويضرب المثل بسنمار ، وكان بنى للنعمان بن المنذر الحورنق فأعجبه وكره أن يبني لغيره مثله فرمى به من أعلاه فمات ، ف قيل فيه :

جَزِينَا بَنِي سَعْدِ بِجُسْنِ بِلَاثِهِمْ جَزَاءَ سِنِمَارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبِ

وقال بشار : (١)

أُنْبِي عَلَيْكَ وَلِي حَالٌ تُكَذِّبُنِي فَيَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ

(١) - المشهور أن الابيات لابى العتاهية . وأولها :

يا ابن العلاء ويا ابن القرم مرداس اني أتيتك في صحنى وجلامي

قَدُّ قَلْتُ إِنْ أَبَاحْ فَصِّ لَا كَرَمٌ مِّنْ يَّمْسِي فِخَا صَمَّيْ فِي ذَاكَ إِفْلَاسِي
 حَتَّى إِذَا قِيلَ مَا أُعْطَاكَ مِّنْ صَفْدِي
 طَاطَاتٌ مِّنْ سَوْءِ حَالِي عِنْدَهَا رَاسِي

ولابي الهول :

كَأَنِّي إِذْ مَدَحْتُكَ يَا أَبْنَ مَعْنٍ رَّأَيْتِ النَّاسُ فِي رَمَضَانَ أَزْنِي
 فَإِنَّكَ رُحْتَ عَنْكَ بِغَيْرِ شَيْءٍ فَلَا تَفْرَحُ كَذَلِكَ كَانَ ظَنِّي

وقال آخر :

لَحَى اللَّهُ قَوْمًا أَعْجَبَتْهُمْ مَدَائِحِي فَقَالُوا مَقَالًا فِي مَلَامٍ وَفِي عَتَبِ
 أَبَا حَازِمٍ تَمْدَحُ فَقَاتُ مُعَذِّرًا
 هَبُونِي أَمْرًا جَرَّيْتُ سَيْفِي عَلى كَلْبِ

وقال آخر :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو ثَمَنِ لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمَجَانِ
 وَالنَّاسُ أَكْبَسُ مِنْ أَنْ يَمْدَحُوا رَجُلًا
 حَتَّى يَرَوْا عِنْدَهُ آثَارَ إِحْسَانِ

وقال آخر :

مُجِيبُ الْمَدِيحِ أَبُو خَالِدٍ وَيَفْضَبُ مِنْ صَلَةِ الْمَادِحِ

كَبِيرٍ تُحِبُّ لَذِيذِ النِّكَاحِ - وَتَجْزَعُ مِنْ صَوْتِ النَّاكِحِ -

وقال آخر :

وَلَوْ كَانَ يَسْتَعْنِي عَنِ الشُّكْرِ سَيِّدٌ
لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِشُكْرِهِ
لِعِزَّةِ مُلْكِهِ أَوْ عُلوِّ مَمَكَانِهِ
فَقَالَ أَشْكُرُونِي أَشْيَا النَّقْلَانِ

٩ - محاسن الصدق

قال بعض الحكماء : عليك بالصدق فما السيف القاطع في كف الرجل الشجاع بأعز من الصدق ، والصدق عز وإن كان فيه ما تكره ، والكذب ذل وإن كان فيه ما تحب ، ومن عرف بالكذب اتهم في الصدق . وقيل : الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل ، والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور . وقال ابن السماك : ما أحسبني أوجر على ترك الكذب لأني أتركه أنفة . وقال آخر : لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة لكان بذلك حقيقاً ، فكيف وفيه المأثم والعار . وقال الشعبي : عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك فانه ينفعك ، واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفعك فانه يضرك . وقال بعضهم : الصدق عز والكذب خضوع . ومدح قوم بالصدق منهم أبو ذر رضي الله عنه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ، ولا طلعت الشمس على ذي لهجة أصدق من أبي ذر) . ومنهم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فانه روى أنه اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل فقال له جبريل : هذا عمك العباس قال : نعم ، قال ان الله تعالى : يأمرك أن تقرأ عليه السلام وتعلمه أن اسمه عند الله الصادق وأن له شفاعة يوم القيامة ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فتبسم

فقال : ان شئت أخبرتك بما به تبست ، وان شئت أن تقول فقل ، فقال : بل نعلمني يا رسول الله ، فقال : لأنك لم تحلف يمينا في جاهلية ولا اسلام برة ولا فاجرة ، ولم تقل لسائل : لا قال : والذي بعثك بالحق نبياً ما تبست إلا لذلك . وروى أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، اني أسئس بخلال الزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب فأين أحببت تركته ، قال : دع الكذب فمضى الرجل فهم بالزنا ، فقال : يسألني رسول الله ﷺ ، فان جهدت نقضت ما جهلته له ، وان أقررت حددت فلم يزن ، فهم بالسرقة وشرب الخمر ، ففكر في ذلك فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : قد تركتهن أجمع . فأما من رخص له في الكذب فيروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا يصلح الكذب إلا في ثلاث : كذب الرجل لاهله ليرضيها وكذب في إصلاح ما بين الناس وكذب في حرب) . وروى عن المغيرة بن ابراهيم أنه قال : لم يرخس لأحد في الكذب إلا للحجاج بن علاط فانه لما فتحت خيبر قال يا رسول الله : ان لي عند امرأة من قريش وديعة فأذن لي يا رسول الله أن أكذب عليك كذبة ليلي أستل وديعتي فرخص له في ذلك فقدم مكة فأخبرهم أنه ترك رسول الله ﷺ أسيراً في أيديهم يأتمرون فيه فقائل يقول : يقتل وقائل يقول : لا بل يبعث به إلى قومه فتكون منة ، فجمع المشركون يتباشرون بذلك ويؤسسون العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس يريهم التجمل ، وأخذ الرجل وديعته فاستقبله العباس وقال : ويحك ما الذي أخبرت به ؟ فأعلمه السب ، ثم أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر ونكح صفية بنت حبي بن أخطب وقتل زوجها وأباها ، ثم قال : أكتم علي اليوم وغداً حتى أمضي ففعل ذلك : فلما مضى يومان أخبرهم العباس بالذي أخبره ، فقالوا : من أخبرك بهذا ؟ قال من أخبركم بضده .

(ضده)

قيل : وجد في بعض كتب الهند ليس لكذوب مروءة ، ولا لضجور
رياسة ، ولا للملول وفاء ، ولا لبخيل صديق . وقال قتيبة بن مسلم : لا
تطلبن الحوائج من كذوب ، فانه يقربها وإن كانت بعيدة ، ويبعدها وإن
كانت قريبة ، ولا الى رجل قد جعل المسألة مأكلة فانه يقدم حاجته
قبلها ويجعل حاجتك وقاية لها ، ولا إلى أحق فانه يريد نفعك فيضرك .
وقيل : أمران لا ينفكان من كذب : كثرة المواعيد وسدّة الاعتذار .
وقيل : كفاك موجأ على الكذب علمك بانك كاذب . وقال رجل لأبي
حنيفة : ما كذبت قط قال : أما هذه فواحدة . وفي المثل هو أكذب
من أخيد السند ، وذلك أنه يؤخذ الحسيس منهم فيزعم أنه ابن الملك .
وكذلك يقال : أكذب من سياح خراسان ، لأنهم يجتازون في كل بلد ،
ويكذبون للسؤال والمسألة . ويقال : هو أكذب من الشيخ الغريب ،
وذلك أنه يتزوج في الغربية وهو ابن سبعين سنة فيزعم أنه ابن أربعين .
ويقال : هو أكذب من مسيلة وبه يضرب المثل . وما قيل في ذلك
من الشعر :

حَسْبُ الْكَذُوبِ مِنَ الْبَلِيَّةِ بَعْضُ مَا يُجْنِي عَلَيْهِ
مَا إِنْ سَمِعْتُ بِكَذْبَةٍ مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ

وقال آخر :

لَقَدْ أَخْلَفْتَنِي وَحَلَفْتَ حَتَّى
أَلَّا لَا تَخْلِفَنَّ عَلَيَّ كَلَامًا
إِخَاؤُكَ قَدْ كَذَّبْتَ وَإِنْ صَدَقْتَا
فَأَكْذَبُ مَا تَكُونُنَّ إِذَا حَلَفْتَا

وقال آخر :

قَدْ كُنْتُ أَنْجِرٌ دَهْرًا مَا وَعَدْتُ إِلَى
 أَنْ أَتَلَفَ الْوَعْدُ مَا جَمَعْتُ مِنْ نَسَبٍ
 فَإِنْ أَكُنْ صِرْتُ فِي وَعْدِي أَخَا كَذِبٍ
 فَضُرَّةُ الصِّدْقِ أَفْضَتْ بِي إِلَى الْكَذِبِ

قال الاصمعي : قال الخليل بن سهل : يا أبا سعيد أعلمت أن طول
 رمح رستم كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت في غلظ الراقود ، فقلت
 ها هنا أعرابي له معرفة فاذهب بنا إليه فحدثه بهذا ، فذهبت به إلى الأعرابي
 فحدثه ، فقال الأعرابي : قد سمعت بذلك ، وبلغنا أن رستم هذا كان
 هو واسفنديار أنيا لقمان بن عاد بالبادية فوجداه نائماً ورأسه في حجر أمه
 فقالت لها : ما شأنكما ، فقالا : بلغنا شدة هذا الرجل فأيناه فانتبه
 فزعا من كلامهما فنفضهما فألقاهما إلى أصبهان فقبورها اليوم بها ، فقال الخليل :
 قبحك الله ما أكذبتك قال : يابن أخي ما بيننا شيئاً إلا وهو دون
 الراقود . قيل : وقدم بعض العمال من عمل فدعا قوما إلى طعامه وجعل
 يمدتهم بالكذب ، فقال بعضهم : نحن كما قال الله عز وجل « سماعون
 للكذب أكلون للسحت » . قيل : وكان رجال من أهل المدينة من بين
 فقيه وراوية وشاعر يأتون بغداد فيرجعون مجذوبة وحال حسنة فاجتمع
 عدة منهم فقالوا لصديق لهم لم يكن عنده شيء من الأدب : لو أتيت
 العراق فاعلمك أن تصيب شيئاً ، قال : أنتم أصحاب آداب تلتزمون بها ،
 فقالوا : نحن نحتمل لك فأخرجوه ، فلما قدم بغداد طلب الاتصال بعلي
 ابن يقطين وشكا إليه الحاجة فقال : ما عندك من الأدب ؟ فقال : ليس
 عندي من الأدب شيء غير أنني أكذب الكذبة وأخبل إلى من يسمعها أنني
 صادق ، وكان ظريفاً مليحاً فأعجب به وعرض عليه مالا فابى أن يقبله

وقال ما أريد منك الا أن تسهل أذني وتدني مجلسي قال : ذاك لك ، وكان من أقرب الناس اليه مجلسا حتى عرف بذلك . وكان المهدي قد غضب على رجل من القواد واستصفى ماله ، وكان يختلف الى علي بن يقطين رجاء أن يكلم له المهدي ، وكان يرى قرب المديني ومكانه من علي فأتى المديني القائد عشياً فقال : ما البشرى قال : لك البشرى وحكمك قال : أرسلني علي بن يقطين اليك وهو يقرئك السلام ويقول : قد كلمت أمير المؤمنين في أمرك ورضى عنك وأمر برد مالك وضياعك وبأمرك بالعدو اليه لتعدو معه الى أمير المؤمنين متشكراً ، فدعا له الرجل بألف دينار وكسوة وحملاًن وغدا على علي مع جماعة من وجوه العسكر متشكراً ، فقال له علي : وما ذاك ؟ قال : أخبرني ابو فلان — وهو الى جنبه — كلامك امير المؤمنين في أمري ورضاه عني فالتفت الى المديني وقال : ما هذا ؟ فقال : أصلحك الله هذا بعض ذلك المتاع نشرناه فضحك علي وقال : علي بدابتي وركب الى المهدي وحدثه الحديث فضحك المهدي وقال : إنا قد رضينا عن الرجل ورددنا عليه ماله ، وأجرى على المديني رزقا واسعاً واستوصى به خيراً ثم وصله ، وكان يعرف بكذاب أمير المؤمنين .

١٠ - محاسن العفو

قيل : أسر مصعب بن الزبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه فقال : أيها الامير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة فأتعلق بأطرافك وأقول : رب سل مصعبا فيم قتلاني فقال : أطلقوه ، فقال : أيها الامير اجعل ما وهبت لي من عمري في خفض عيش ، فقال : اعطوه مائة ألف درهم . قال : بأبي أنت وأمي أشهدك أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا قال : لم ؟ قال : لقوله فيك :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِّنَ اللَّيْلِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةِ آيَسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا لَهُ كِبْرِيَاءُ

فضحك مصعب وقال : لقد تلطفت وان فيك لموضعا للضيعة ، وأمر له بالمائة ألف ، ولابن قيس الرقيات بخمسين ألف درهم . قيل : وأمر الرشيد يحيى بن خالد بجبس رجل جنى جنابة فحبسه ، ثم سأل عنه الرشيد فقيل : هو كثير الصلاة والدعاء ، فقال للموكل به : عرض له بان تكلمني وتساني اطلاقه فقال له الموكل ذلك ، فقال : قل لأمير المؤمنين إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي ، والامر قريب ، والموعد الصراط ، والحاكم الله فخر الرشيد مغشياً عليه ثم أفاق وأمر باطلاقه . وقيل ظفر المأمون برجل كان يطلبه ، فلما دخل عليه قال : يا عدو الله أنت الذي تفسد في الأرض بغير الحق يا غلام خذه اليك فاسقه كأس المنية ، فقال : يا أمير المؤمنين ان رأيت ان تستبقيني حتى أؤيدك بما قال لا سبيل الى ذلك فقال : يا أمير المؤمنين فدعني أنشدك أبياتاً قال هات فانشده :

زَعَمُوا بِأَنْ الْبَازَ عَلَّقَ مَرَّةً عَصْفُورَ بَرٍّ سَاقَهُ الْمَقْدُورُ
فَتَكَلَّمَ الْعَصْفُورُ تَحْتَ جَنَاحِهِ وَالْبَازُ مُنْقَضٌ عَلَيْهِ يَطِيرُ
مَا بِي لِمَا يُغْنِي لِمِنْلِكَ شَبَعَةً وَآيْنُ أَكَلْتُ فَإِنِّي لِحَاقِرُ
فَتَبَسَّمَ الْبَازُ الْمُدِلُّ بِنَفْسِهِ كَرَمًا وَأَطْلِقَ ذَلِكَ الْعَصْفُورُ

فقال له المأمون : أحسنت ما جرى ذلك على لسانك الا لبقية بقيت من عمرك فأطلقه وخلع عليه ووصله . وعن بعضهم أن والياً أتى برجل جنى جنابة فأمر بضربه فلما مد قال : بحق رأس أمك الا ما عفوت عني ، قال : أوجع فقال : بحق خديها ونحرها قال : اضرب قال بحق ثدييها

قال : اضرب قال : بحق سرتها قال : ويلكم دعوه لا ينحدر قليلاً .
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الرجل اذا ظلم فلم
ينتصر ولم يجد من ينصره فرفع طرفه إلى السماء ودعا قال الله له لبيك
عبيدي أنصرك عاجلاً وآجلاً) . وقال صلى الله عليه وسلم في قولهم : أنصر
أخاك ظالماً أو مظلوماً ، وقد سئل عن ذلك فقيل : أنصره مظلوماً فكيف
أنصره ظالماً ؟ فقال : ذنعه من الظلم فذلك نصرك اياه ، وقال فضيل بن
عياض : بكى أبي فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي على ظالمي ومن
أخذ مالي أرحمه غداً اذا وقف بين يدي الله عز وجل وسأله فلا تكون له
حجة . وقال الحسن البصري : أيها المتصدق على السائل يرحمه ارحم أولاً
من ظلمت . وروى عن عبدالله بن سلام قال : قرأت في بعض الكتب :
قال الله عز وجل « إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني » .
قال خالد بن صفوان : إياكم ومجانيق الضمفاء (يعني الدعاء) .

(ضده)

قيل : لما قالت التغلبية للجحاف بن حكيم السلمي في وقفته بالبشر
قوض الله عمادك وأطال سهادك وأقل رقادك فوالله ان قتلت الانساء
أما فلهن دمي وأعالهن ندي ، قال لمن حوله : لولا ان تلد مثلها خلّيت
سبيلها فبلغ ذلك الحسن البصري فقال : أما الجحاف فجدوة من نار جهنم .
قال ولما بنى زياد بناء البصرة أمر أصحابه أن يسمعوا من أفواه الناس
فأتى برجل تلا آية « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » قال : وما دعاك الى هذا ؟ قال : آية من
كتاب الله عز وجل خطرت على بالي فتلوتها والله لأعلمن فيك بالآية الثانية
« وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » ثم أمر به فبنى عليه ركن من أركان
القصر . قال وبعث زياد الى رجل من بني نميم فقال : أخبروني بصالحاء

كل ناحية فأخبروه فاختر منهم رجالا فضمنهم الطريق ، وقال لو ضاع
بني وبين خراسان حبل لعلت من لقطه . وكان يدفن الناس أحياء وينزع
أضلاع اللصوص . قال : وقال عبد الملك للحجاج كيف تسير في الناس ؟
قال : انظر الى عبوز أدركت زيادا فاسألها عن سيرته فاعمل بها ، فاخذ
والله بسنته حتى ما ترك منها شيئاً . وذكروا أن الحجاج لما أتى المدينة
ارسل الى الحسن بن الحسن رضي الله عنه : فقال هات سيف رسول الله
صلى الله عليه وسلم ودرعه قال : لا افعل قال : فجاء الحجاج بالسيف
والسوط فقال : والله لأضربنك بهذا السوط حتى أقطعه ، ثم لأضربنك
بهذا السيف حتى تبرد أو تأتيني بها ، فقال الناس : يا أبا محمد لا تعرض
لهذا الجبار قال : فجاء الحسن بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه
فوضعها بين يدي الحجاج ، فأرسل الحجاج الى رجل من بني أبي رافع
مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : هل تعرف سيف رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، فخلطه بين أسيافه ثم قال : أخرجه ،
ثم جاء بالدرع فنظر اليها ، ثم قال : هناك علامة كانت على الفضل بن
العباس يوم اليرموك فطمع بجرية فخرقت الدرع فعرفناها ، فوجد الدرع
على ما قال فقال الحجاج : أما والله لو لم تجئي به وجئت بغيره لضربت
به رأسك . وذكروا أن الحجاج قال ذات ليلة لحاجبه : أعس بنفسك
فمن وجدته فجئتني به فلما أصبح أتاه بثلاثة فقال : أصلح الله الأمير ما
وجدت إلا هؤلاء الثلاثة ، فقال الحجاج لواحد منهم : ما كان سبب
خروجك بالليل وقد نادى المنادي أن لا يخرج أحد بالليل قال : أصلح الله
الأمير كنت سكران فغلبني السكر فخرجت ولا أعقل ، ففكر ساعة ثم
قال : سكران غلبه سكره خلوا عنه لا تعودن ، ثم قال للآخر : فأنت
ما كان سبب خروجك ؟ قال : أصلح الله الأمير كنت مع قوم في مجلس
يشربون فوقع بينهم عريضة فخفت على نفسي فخرجت ، ففكر الحجاج
ساعة فقال : رجل أحب المسألة خلوا عنه ، ثم قال للآخر ما كان سبب

خروجك ؟ فقال : لي والدة عبوز وأنا رجل حمال فرجعت الى بيتي
فقلت والدتي : ما ذقت الى هذا الوقت طعاما ولا ذواقا فخرجت ألتمس
لها ذلك فأخذني العسس ، ففكر ساعة ثم قال : يا غلام أضرب عنقه فاذا
رأسه بين رجليه .

١١ - محاسن الصبر على الحبس

قال الكسروي : وقع كسرى بن هرمز الى بعض المحبسين : من صبر
على النازلة كان كمن لم تنزل به ، ومن طول في الجبل كان فيه عطبه ،
ومن أكل بلا مقدار تلفت نفسه . قيل ودخل ابن الزيات على الافشين
وهو محبوس فقال يخاطبه :

اصْبِرْ لَهَا صَبْرَ أَقْوَامٍ نَفُوسُهُمْ لَا تَسْتَرِيحُ إِلَى عَقْلِ وَلَا قَوْدٍ

فقال الافشين : من صحب الزمان لم ينبج من خيره أو شره ووجد
الكرامة والهوان ، ثم قال :

لَمْ يَنْبِجْ مِنْ خَيْرِهَا أَوْ شَرِّهَا أَحَدٌ

فَأَذْكَرُ شَوَائِبِهَا إِنْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ

خَاضَتْ بِسِكَ الْمُنِيَّةُ الْحَمَقَاءَ غَعْرَتَهَا

فَتِلْكَ أَمْوَاجُهَا تَرْمِيكَ بِالزَّبْدِ

ولعلي بن الجهم لما حبسه المتوكل :

قَالَتْ حَبِيسَتٌ فَقُلْتُ أَيْسَ بَضَائِرِي حَبِيسِي وَأَيُّ مَهْمَدٍ لَا يُعْمَدُ

أَوْ مَارَأَيْتِ اللَّيْثَ يَا لَفُ غَيْلَهُ
 وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ
 وَالْبَدْرُ بُدْرُ كُهُ الظَّلَامُ فَتَنْجَلِي
 وَالزَّاعِمِيَّةُ لَا يُقِيمُ كُؤُوبَهَا
 غَيْرُ اللَّيَالِي بَادِيَاتٌ عُوْدُ
 لَا يُؤَيِّسُنَاكَ مِنْ تَفْرِجِ كُرْبَةٍ
 فَلِكُلِّ حَالٍ مُعَقِّبٌ وَلَرْبَمَا
 كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى
 صَبْرًا فَإِنَّ الْيَوْمَ يَتَّقِبُهُ غَدُ
 وَالْحَبْسُ مَا لَمْ تَغْشَهُ لَدَيْتِي
 لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَبْسِ إِلَّا أَنَّهُ
 يَنْتُ مُجِدِّدٌ لِلْكَرِيمِ كِرَامَةً
 أَنْبَلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ
 أَنْتُمْ بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
 مَا كَانَ مِنْ حُسْنٍ فَأَنْتُمْ أَهْلُهُ

كَرَّمْتُمْ مَغَارِسَكُمْ وَطَابَ الْعَمَلُ
 أَمِنَ السُّوِيَّةُ يَا أَبْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ
 حَضَمْتُ تَقَرُّبَهُ وَأَخْرَجْتُ يَبْعَدُ

يَا أَحْمَدَ ابْنَ أَبِي دُوَادٍ إِنَّمَا تُدْعَى لِكُلِّ كَرِيهَةٍ يَا أَحْمَدُ
 إِنَّ الَّذِينَ سَعَوْا إِلَيْكَ بِبَاطِلٍ أَعْدَاءُ نِعْمَتِكَ الَّتِي لَا تُجْعَدُ
 شَهِدُوا وَغَبْنَا عَنْهُمْ فَتَحَكَّمُوا فِيمَا وَلَيْسَ كَغَائِبٍ مَنْ يَشْهَدُ
 لَوْ يَجْمَعُ الْخِصْمَاءَ عِنْدَكَ مَنْزِلٌ يَوْمًا لَبَانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَرْشَدُ
 وَالشَّمْسُ لَوْ لَا أَنَّهَا مَخْجُوبَةٌ عَنْ نَاطِرَيْكَ لَمَّا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ

(ضده)

أنشدنا عاصم بن محمد الكاتب لنفسه لما حبسه أحمد بن عبد العزيز
 ابن أبي دلف قوله :

قَالَتْ حُبِسْتَ فَقُلْتُ خَطْبٌ أَنْكَدُ
 أَنْحَى عَلَيَّ بِهِ الزَّمَانُ الْمُرْصَدُ
 لَوْ كُنْتُ حُرًّا كَانَ سَرِّي مُطْلَقًا
 مَا كُنْتُ أَحْبَسُ عَنُورَةً وَأَقِيدُ
 لَوْ كُنْتُ كَالسَّيْفِ الْمُهَنْدِ لَمْ يَكُنْ
 وَقْتُ الْكَرِيهَةِ وَالشَّدَائِدِ يُفْعَدُ
 لَوْ كُنْتُ كَاللَّيْلِ الْهَاصِرِ لَمَّا رَعَتْ
 فِي الذَّنَابِ وَجَدَوْتِي تَتَوَقَّدُ

مَنْ قَالَ إِنَّ الْجَبَسَ بَيْتُ كَرَامَةٍ
 مَا الْجَبَسُ إِلَّا بَيْتُ كُلِّ مَهَانَةٍ
 إِنْ زَارَنِي فِيهِ الْعَدُوُّ فَشَامَتْ
 أَوْ زَارَنِي فِيهِ الْمُحِبُّ فَمَوَّجَتْ
 يَكْفِيكَ أَنْ الْجَبَسَ بَيْتٌ لَا يُدَى
 تَمْضِي اللَّيَالِي لَا أَذُوقُ لِرَقْدَةٍ
 فِي مُطَبَقٍ فِيهِ النَّهَارُ مُشَاكِلٌ
 فَإِلَى مَتَى هَذَا الشَّقَاءُ مُؤَكَّدٌ
 مَا لِي مُجِيرٌ غَيْرُ سَيِّدِي الَّذِي
 غَدَيْتُ مُحْشَاةً مُهْجَتِي بِنَوَافِلِ
 عِشْرِينَ حَوْلًا عِشْتُ تَحْتَ جَنَاحِهِ
 فَخَلَا الْعَدُوُّ بِمَوْضِعِي مِنْ قَلْبِهِ
 فَاعْفِرْ لِعَبْدِكَ ذَنْبَهُ مُتَطَوِّلاً
 وَأَذْكَرْ خِصَائِصَ خِدْمَتِي وَمَقَاوِمِي
 فَمَكَثَ فِي قَوْلِهِ مُتَجَلِّدٌ
 وَمَذَلَّةٍ وَمَكَارِهِ لَا تَنْفَدُ
 يُبَدِي التَّوَجُّعَ تَارَةً وَيُفْنِدُ
 يَذْرِي الذَّمَّوعَ بِزُفْرَةٍ تَتَرَدَّدُ
 أَحَدٌ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلَائِقِ يُحْسَدُ
 طَعْمًا وَكَيْفَ يَذُوقُ مَنْ لَا يَزُقُّ
 لِلَّيْلِ وَالظُّلُمَاتِ فِيهِ سَرْمَدٌ
 وَإِلَى مَتَى هَذَا الْبَلَاءُ مُجَدِّدٌ
 مَا زَالَ يَكْفِلُنِي فَنِعْمَ السَّيِّدُ
 مِنْ سَيِّبِهِ وَصَنَائِعِهِ لَا تُجْحَدُ
 عَيْشَ الْمُلُوكِ وَحَالَتِي تَزِيدُ
 فَحِشَاءُ جَمْرًا نَارُهُ تَتَوَقَّدُ
 فَالْحَقُّ مِنْكَ سَجِيَّةٌ لَا تُعْهَدُ
 أَيَّامَ كُنْتُ جَمِيعَ أَمْرِي تَحْمَدُ

وقال عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله

: ٢٢٤

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فَلَسْنَا مِنَ الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَاءِ

إِذَا دَخَلَ السَّجَّانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ
وَتَفَرَّحُ بِالرُّؤْيَا فَجُبَلُ حَدِيثِنَا

إِذَا نَحْنُ أَصْبَحْنَا الْحَدِيثُ عَنِ الرُّؤْيَا
فَإِنَّ حَسُنَتْ كَانَتْ بَطِيئًا مَجِيئُهَا

وَإِنْ قُبِحَتْ لَمْ تُتَنَتَّظَرُ وَأَنْتَ سَعِيَا

وقال آخر :

مُقِيمِينَ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ فَارَقُوا الدُّنْيَا
وَلَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ الشَّدَاثِدِ وَالسَّبَلَاوِي

أَلَا أَحَدٌ يَدْعُو لِأَهْلِ مَحَلَّةٍ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ دَارِهِمْ

وقال ابن المعتز :

وَكُنْتُ أَمْرًا قَبْلَ حَبْسِي مَلِكٌ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِدَوْرِ الْفَلَكَ
تَكَادُ تُلَاصِقُ ذَاتَ الْحُبِّكَ
أَوْ قَعْنَهُ فِي حِبَالِ الشَّرْكَ
وَمِنْ قَعْرِ بَحْرِ يُصَادُ السَّمَكُ

تَعَلَّمْتُ فِي السَّجْنِ نَسَجَ التُّكَّكَ
وُقِيدْتُ بِمَدْرُ كَوْبِ الْجِيَادِ
أَلَمْ تُبْصِرِ الطَّيْرَ فِي جَوْهَا
إِذَا أَبْصَرَتْهُ مُخْطُوبُ الزَّمَانِ
فَهَذَاكَ مِنْ حَالِكٍ قَدْ يُصَادُ

ووجد في البيت الذي قتل فيه مكتوب بخطه على الأرض :

يَا نَفْسُ صَبْرًا لَعَلَّ الْخَيْرَ عُقْبَاكَ
مَرَّتْ بِنَا سَحْرًا طَيْرٌ فَقَلَّتْ لَهَا

خَانَكَ بَعْدَ طَوَالِ الْأَمْنِ دُنْيَاكَ
طُوبَاكَ يَا لَيْتَنِي إِيَّاكَ طُوبَاكَ

وقال أعرابي :

وَمَا دَخَلْتُ السَّجْنَ كَبْرًا أَهْلُهُ وقالوا أبو أيلى السَّغْدَاءَ حَزِينُ
وَفِي الْبَابِ مَكْتُوبٌ عَلَى صَفَحَاتِهِ بِأَنَّكَ تَنْزَوُ نَمَّ سَوْفَ نَلِينُ

وفي الحديث الرفوع (ان يوسف عليه السلام شكوا إلى الله تعالى طول الحبس فأوحى إليه أنت حبست نفسك حين قلت : رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ) ولو قلت العافية أحب إلي لعوفيت . قال : وكتب يوسف عليه السلام على باب السجن : هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشهامة الأعداء وتجربة الأصدقاء .

١٢ - محاسن المودة

قال بعض الحكماء : ليس للانسان تنعم الا بمودات الاخوات وقال آخر : الازدياد من الاخوان زيادة في الآجال وتوفير لحسن الحال . وقيل : عاشروا الناس معاشرة ان عشتم حنوا اليكم وإن متم بكوا عليكم . وقال :

فَدَيْمُكَ النَّاسُ حِينَمَا لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَدَا فَيَزْرَعُهُ التَّنْسِيمُ وَاللُّطْفُ
يُسَلِّي الشُّقِيقِينَ طَوْلُ النَّأْيِ بَيْنَهُمَا وَتَلْتَقِي شَعْبٌ شَتَّى فَتَأْتِلِفُ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسين : ابدل لصديقك كل المودة ولا تطمنن إليه كل الضمانينة واعطه كل المواساة ولا تفش إليه كل الأسرار . وقال العباس بن جرير : المودة تعاصف القلوب واثلاف الأرواح وأنس النفوس ووحشة الأشخاص عند تقاضي التماسه وهم - ور المرود بكثرة التزاور وعلى حسب مشاكته لجواهر يكون الاتفاق في الخصال .

وقال بعضهم : من لم يواخ من الاخوان الا من لا عيب فيه قبل
صديقه ومن لم يرض من صديقه الا بإيثاره اياه على نفسه دام سخطه ومن
عاب على غير ذنب كثر عدوه . وكان يقال : أعجز الناس من فرط في
طلب الاخوان . وقال الشاعر في مثله :

لَمَرُّكَ مَا مَالُ الْفَتَى بِذَخِيرَةٍ وَلَكِنْ إِخْوَانِ النَّقَاتِ الذَّخَائِرُ

(ضده)

قال المأمون : الاخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغني عنه
وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا وطبقة كالداء الذي لا يحتاج اليه . وكتب
بعض الكتاب ان فلانا أولاني جميلا من البشر . قرونا بلطيف من الخطاب في
سط وجه وابن كنف ، فلما كشفه الامتحان بيسير الحاجة كان كالذابوت
المطلى عليه بالذهب المملوء بالعدرة أعجبتك حسنه ما دام مطبقاً فلما فتح
آذاك نتنه فلا أبعد الله غيره ، وما قيل في ذلك :

وَاللَّهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُنَادِمَتِي لَقَلْتُ لَلْكَفِّ بَيْنِي إِذْ كَرِهْتَنِي

وقال آخر :

وَلَوْ أَنِّي تَخَالَفُ نَفْسِي شِمَائِي لَمَّا أَتَبَعْتُهَا أَبَدًا يَمِينِي
إِذَا أَقَطَعْتُهَا وَأَقَاتُ بَيْنِي كَمَا أَنَّكَ أَنْجَتَوِي مَنْ يَجْتَوِينِي

وقال آخر

مَنْ لَمْ يُدْرِكْ فَلَا تُرِدُهُ لِيَكُنْ كَمَنْ لَمْ تَتَفَهَدْهُ
بَاعِدْ أَخَاكَ بِمُعَدِهِ فَإِذَا نَأَى شَبْرًا فَرِدُهُ

وقال آخر :

أودُّكَ إِنَّ الرَّأْيَ مِنْكَ لِعَازِبُ
وَلَكِنْ أَخِي مَنْ وَدَّ نِي وَهُوَ عَائِبُ

تَوَدُّ عَدُوِّي مُنَّمُ تَرَعُمُ أَنْتِي
وَأَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّ نِي رَأْيَ عَيْنِهِ
وقال آخر :

إِلَّا الرَّجَاءُ وَمِمَّا يُخْطِيهِ النَّظْرُ
حَرَزًا يُبَادِرُهُ إِذْ بَدَهُ الْمَطْرُ

إِنَّ اخْتِيَارَكَ لَأَعْنُ خَيْرَةٌ سَلَفْتُ
كَالْمُسْتَفِيثِ بِيَطْنِ السَّيْلِ يُحْسِبُهُ
وقال آخر :

أَشْفَقَ مِنْ وَالِدِي عَلَى وَادِي
كَيْتَ بِنَا وَخَشَةَ إِلَى أَحَدِ
أَوْ كَذِرَاعٍ نَيْطَتْ إِلَى عَضُدِ
حَظِي وَحَلَّ الزَّمَانُ مِنْ عُقْدِي
عَيْنِي وَيَوْمِي بِسَاعِدِي وَبِيَدِي
كُنْتُ كَمُسْتَرْفِدٍ يَدِ الْأَسَدِ

وَصَاحِبِ كَانَ لِي وَكُنْتُ لَهُ
وَكَانَ لِي مُؤْنَفًا وَكُنْتُ لَهُ
كُنَّا كَسَاقٍ مَشَتْ بِهَا أَدَمُ
حَتَّى إِذَا أُمَكَّنَ الْحَمَوَادِثُ مِنْ
إِزْوَرٍ عَنِّي وَكَانَ يَنْظُرُ مِنْ
حَتَّى إِذَا اسْتَرْفَدَتْ يَدِي يَدَهُ
وقال آخر :

الْقَمَّةُ بِأَطْرَافِ الْجَبَانِ
فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
فَلَمَّا طَرَّ شَارِبُهُ جَفَانِي
فَلَمَّا صَارَ شَاعِرَهَا هَجَانِي

فِيَا عَجَبًا لِمَنْ رَبَّيْتُ طِفْلًا
أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ
أَعْلَمُهُ الْفُتُوَّةَ كُلَّ حِينٍ
أَعْلَمُهُ الرِّوَايَةَ كُلَّ وَقْتٍ

١٣ - محاسن الولايات

سئل عمار بن ياسر رضي الله عنه عن الولاية فقال : هي حلوة الرضاع مرة القظام . وذكروا أنه كان سبب عزل الحجاج بن يوسف عن المدينة ، وقد وفد من أهل المدينة منهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله على عبد الملك ابن مروان ، فأثبوا على الحجاج وعيسى ساكت ، فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلاله وجه عبد الملك ، فقام فجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين من أنا ؟ قال عيسى بن طلحة بن عبيد الله قال فمن أنت ؟ قال عبد الملك بن مروان قال أفجملتنا أو تغيرت بعدنا ؟ قال : وما ذلك ؟ قال وليت علينا الحجاج بن يوسف يسير بالباطل وبجملنا على أن نشني عليه بغير الحق والله لئن أعدته علينا لنعصينك وإن فانتلنا وغلبتنا وأسأت الينا قطعت أرحامنا ، ولئن قويننا عليك لنعصينك ملكك فقال له عبد الملك : انصرف والزم بيتك ولا تذكرن من هذا شيئاً قال : فقام الى منزله وأصبح الحجاج غادياً الى عيسى بن طلحة فقال : جزاك الله عن خلوتك بأمرير المؤمنين خيراً فقد أبدلني بكم خيراً وأبدلكم بي غيري وولاني العراق . وعن معمر بن وهيب قال : كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج قال لهم : اختاروا أي هذين شئتم - يعني أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك - مكان الحجاج ؟ فكتب اليه الحجاج : يا أمير المؤمنين إن أهل العراق استعفوا عثمان بن عفان من سعيد بن العاص فأعفاهم منه فساروا اليه من قابل وقتلوه ، فقال : صدق ورب الكعبة وكتب الى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له .

(ضده)

كتب عبد الصمد بن المذل الى حديق له ولي النفاطات ، أظهر تيهياً :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَظْهَرْتَ تَيْهًا كَأَنَّمَا
 دَعَى الْكِبَرَ وَأَسْتَبَقَ التَّوَاضِعَ إِنَّهُ
 لِحِفْظِ عُبُودِ النَّفْطِ أَحَدَثَ نَعْوَةً

وقال ابن المعتز :

كَمْ تَأْتِيهِ بُولَايَةٌ
 وَسُكْرُ الْوَلَايَةِ طَيِّبٌ
 وَبِعَزْلِهِ يَمْدُو الْبَرِيدُ
 وَخَمَارُهُ صَبٌّ شَدِيدٌ

وقال آخر :

لَا تَفْرَحَنَّ فِكْلُ وَال يُعْزَلُ
 وَكَذَا الزَّمَانُ بِمَا يَسُرُّكَ تَارَةً
 وَكَمَا عُرِزْتَ فَعَنْ قَرِيبٍ تُقْتَلُ
 وَبِمَا يَسُوءُكَ تَارَةً يَتَسَقَلُ

١٤ - محاسن الصحبة

قيل : قال علقمة بن ليث لابنه : يا بني ان نازعتك نفسك الى الرجال يوماً لحاجتك اليهم فاصعب من ان صحبه زانك وان تحققت له مانك وان نزلت بك مؤونة مانك ، وان قلت صدق قولك وان صلت شدد حوذك اصعب من اذا مددت اليه يدك لفضل مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان بدت منك ثلثة مدها واصعب من لا تأتلك منه البوائيق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق . وقال آخر اصعب من حوذك نفسه ومللك خدمته وتخريك لزمانه فقد وجب عليك حقه وذمامه . وكان يقال : من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه . وقال بعضهم لصاحبه : انا أطوع لك من اليد وأذل من النعل . وقال بعضهم : اذا رأيت كلباً ترك صاحبه وثبمك فارجه فانه تاركك كما ترك صاحبه .

وقال ابن أبي دؤاد لرجل انقطع الى محمد بن عبد الملك الزيات : ما خبرك مع صاحبك ؟ فقال لا يقصر في الاحسان الي فقال : يا هذا ان لسان حالك يكذب لسان مقالك .

(ضده)

قال : كان يوسف بن عمر الثقفي يتولى العرافين هشام بن عبد الملك وكان مذموماً في عمله وخبرني المدائني قال : وزن يوسف بن عمر درهما فنقص حبة فكتب الى دور الضرب بالعراق يضرب أهلها مائة . قيل وخطب في مسجد الكوفة فتكلم انسان مجنون فقال : بأهل الكوفة ألم أنكم أن تدخلوا مساجدكم المجانين اضرخوا عنقه فضربت عنقه . قال : وقال لهام ابن يحيى وكان عاملاً له : يا فاسق خربت مهرجا نقدق قال : اني لم أكن عليها انما كنت على ماه دينار وعمرت البلاد فأعاد ذلك عليه مراراً فقال همام قد أخبرتك اني كنت على ماه دينار وتقول : خربت مهرجا نقدق فلم يزل يعذبه حتى مات . قال : وقال لسكاتبه وقد احتبس عن ديوانه يوماً : ما حبسك ؟ قال : اشتكيت خرسى قال : تشكيتي خرسك وتقعده عن الديوان ودعا الحجام وأمره أن يقطع خرسين من أضراسه . وعن المدائني قال : حدثني رضيع كان ليوسف بن عمر من بني عباس قال : كنت لا أحجب عنه وعن خدمته فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث ودعا بنحسي له يقال له حديج فقرب اليه واحدة فقال لها : اني أريد الشخصوص أفأخلفك أو أسخضك معي ؟ فقالت : صحبة الامير أحب الي والكني أحسب أن مقامي وتخليفي أعفى وأخف على قلبه فقال : أحببت التخلف للفجور يا حديج أضرب فضربها حتى أوجعها ثم أمره أن يأتيه بالثانية وقد رأت ما لقيت صاحبها فقال لها : اني أريد الشخصوص أفأخلفك أم أخرجك ؟ فقالت : ما أعدل بصحبة الأمير شيئاً بل تخرجني قال : أحببت الجماع ما تريدن أن يفوتك ليلة يا حديج أضرب فضربها حتى

أوجعها ثم أمره أن يأتيه بالثالثة وقد رأت ما لقيت المتقدمتان فقال لها :
 اني أريد الشخصوص فأحلفك أم أخرجك : قالت ؟ الأمير أعلم أينظر أخف
 الأمرين عليه فليفعله قال اختاري لنفسك قالت ما عندي اختيار فليختار
 الأمر قال : قد فرغت من كل عمل فلم يبق لي الا أن اختار لك أوجعها
 يا حديج فضربها حتى أوجعها فقال الرجل فكأنما أوجعني من شدة غيظي
 عليه فقلت الجارية فبمعها الخادم ، فلما بعدت قالت : الخيرة والله في فراقك
 ما تفرعين أحد بصحبتك ولم يفهم يوسف كلامها فقال ؟ ما تقول يا حديج
 قال : قالت كذا وكذا فقال يا بن الحبيثة من أمرك أن تعلمني يا غلام
 خذ السوط من يده فاورجع رأسه فما زال يضربه حتى استشفى فتعرف من
 الغلام الآخر كم ضربت ؟ قال لا أدري قال : عدو الله أنتخرج حاصل
 من بيت مالي من غير حساب افقلوه فقتلوه (١)

١٥ — محاسن التطير

عن عكرمة قال : كنا جلوساً عند ابن العباس وابن عمر فطار غراب
 يصيح فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال ابن العباس : لا خير ولا
 شر والذي حضرنا من الشعر في مثله لأبي الشيب :
 ما فرقَ الأحبابَ بعدَ الله إلا الإبلُ
 والناسُ يَلْحونَ عُرا بَالبينِ لَمَّا جَهلوا
 وما على ظهرِ عُرا بَالبينِ تُطوى الرُّحُلُ

(١) — هكذا في الاصل مستندة الى يوسف بن عمر ، واعلمنا من أخبار الحجاج كما في غير
 هذا الكتاب .

ولا إذا صاح غُرا
وما غُرابُ البينِ إ
ب في الديار أرتحلوا
لأ ناقةً أو جملُ

وقال آخر :

أترحلُ عمن أنت صبٌ بمثله
أقيم فغُرابُ البينِ غيرُ مُفَرَّقِ
وتلحى غُرابُ البينِ إنك تظلمُ
ولا يأتلي إلا على الفضلِ يحكمُ

وقال آخر :

غاط الذين رأيتهم بجباله
ما الذنبُ إلا للجمالِ فإنها
يلحون كلكهم غراباً ينعمُ
وتشتتُ الشغلُ أجمع الأنيقُ
إن الغُرابَ يمينه يُدني النوى

وقال آخر :

لا يعلم المرءُ ليلاً ما يُصبحه
والفألُ والزجرُ والكهانُ كُلامُ
إلا كواذبٌ مما يُخبرُ الفألُ
مُضللون ودون الغيبِ أقالُ

(ضده)

حكى عن النعمان بن المنذر أنه خرج متصيداً معه عدي بن زيد
العبادي فمر بأرام - وهي القبور - فقال عدي : أبيت اللعن أتدري ما
تقول هذه الآرام ؟ قال : لا ، قال : إنما تقول :

أيتها الركبُ المخفضو
لكما كنتم فكننا
ن على الأرض تمرون
وكما كنا تكونون

فقال : أعد فأعادها فترك صيده ورجع كثيراً . وخرج معه مرة أخرى فوقف على آرام بظهر الجيرة فقال عدي : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه الآرام ؟ قال لا قال انها تقول :

رَبِّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ
ثُمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ

فانصرف وترك صيده . قال ولما خرج خالد بن الوليد الى أهل الردة انتهى الى حي من تغلب فأغار عليهم وقتلهم ، وكان رجل منهم جالساً على شراب له وهو يعني بهذا البيت :

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ جَيْشِ أَبِي بَكْرٍ لَعَلَّ مَنَايَانَا قَرِيبٌ وَمَا تَدْرِي

فوقف عليه رجل من أصحاب خالد فضرب عنقه فاذا رأسه في الجفنة التي كانت يشرب منها . وهذا كقولهم :

إِنَّ الْجَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ

١٦ - محاسن الوفاء.

قيل في المثل . أوفى من فكيهة ، وهي امرأة من بني قيس بن ثعلبة كان من وفاتها أن السليك بن سلكة غزا بكر بن وائل فلم يجد غفلة يلتصقها ، فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء فقالوا : ان هذا الاثر قدم ورد الماء ، فقدموا له فلما وافى حملوا عليه فعدا حتى ولج قبة فكيهة فاستجار بها فأدخلته تحت درعها فانتزعوا خمارها فنادت إخوتها فجاءوا عشرة فمنعواهم . منها قال : وكان سليك يقول : كأنني أجد خشونة شعر

استها على ظهري حين أدخلتني تحت درعها : وقال

كَعْرُ أَيْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي كِنِمْ الْجَارُ أُخْتُ بَنِي عَوَارَا
مِنَ الْخَذِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَخَاهَا وَلَمْ تَرْفَعِ لِي وَالِدَهَا سَنَارَا
عَنَيْتُ بِهِ فُكَيْهَةً حِينَ قَامَتْ لِنَصْلِ السِّيفِ فَأَنْتَزَعُوا الْخِيَارَا

ويقال أيضاً : هو أوفى من أم جميل ، وهي من رهط ابن أبي بردة من دوس ، وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل رجلاً من الأزد فبلغ ذلك قومه بالسراة فوثبوا على ضرار بن الخطاب الفهري ليقتلوه فعدا حتى دخل بيت أم جميل وعاد بها ، فقامت في وجوههم ودعت قومها فمنعوه لها ، فلما ولي عمر بن الخطاب ظنت أنه أخوه فأته بالمدينة فلما انتسبت له عرف القصة فقال : إني لست بأخيه إلا في الإسلام وهو غاز وقد عرفنا منتك عليه وأعطاها على أنها ابنة سبيل ويقال : أوفى من السموءل بن عاديا ، وكان من وفائه أن امرأ القيس بن حجر لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموءل دروعاً له فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموءل فأخذ الملك ابناً له خارج الحصن وصاح يا سموءل هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي وأنا أحق ببراءته فان دفعت إلي الدروع وإلا ذبحت ابنك فقال : أجلني فأجله ، فجمع أهل بيته فشاورهم فكلمهم أشاروا بدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه ، فلما أصبح اشرف عليه وقال : ليس لي إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه وكان يهوديا ، وانصرف الملك ووافى السموءل بالدروع الموسم فدفعها إلى وريثة امرئ القيس : وقال في ذلك :

وَفَيْتُ بِأَدْرَعِ الْكَنْدِيِّ إِنْ إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ

وقالوا عنده كُنزٌ رهيبٌ فلا وأبيك أغدرُ ما مشيتُ
بني لي عادياً حصناً حصيناً ربُّراً كلما شئتُ أستقيتُ

وفي ذلك يقول الاعشى :

كُنْ كَالسَّمْوَلِ إِذْ طَافَ أَلْهَامُ بِهِ فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ
بِالْأَبْلَقِ الْفَرْدِ مِنْ تِيْمَاءَ مَنْزِلُهُ حَضْنَ حَصِينٍ وَجَارٍ غَيْرُ غَدَّارِ
خَيْرُهُ خُطَّتِي خَسَفَ فَقَالَ لَهُ مَهْمَا تَقَوْلَنْ فَإِنِّي سَامِعٌ حَارِ
فَقَالَ مُثَكَّلٌ وَغَدْرٌ أَنْتَ بَيْنَهُمَا فَاخْتَرِ فَمَا فِيهَا حَظٌّ لِمُخْتَارِ
فَشَاكَ غَيْرَ طَوِيلٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ أَقْتُلْ أَسِيرَكَ إِنِّي مَانِعٌ جَارِي

ويقال : أوفى من الحارث بن عباد ، وكان من وفائه أنه أسر عدي بن ربيعة ولم يعرفه فقال له : دلني على عدي بن ربيعة ولك الأمان فقال : انا آمن إن دلتك عليه ، قال : نعم قال فانا عدي بن ربيعة فخلاه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَقَدْ شَا رَفَهُ الْمَوْتُ وَأَجْتَوْنَهُ الْمَنُونُ

ويقال : هو أوفى من عوف بن محلم ، وكان من وفائه أن مروان القرظ غزا بكر بن وائل فنضوا جيشه وأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمه فقالت : انك تحتال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ فقال لها مروان : وما ترجين من مروان ؟ قالت : عظم فدائه قال : وكم ترجين من فدائه ؟ قالت : مائة بعير قال مروان : لك ذلك على ان توديني الى خماعة بنت عوف بن محلم قالت : ومن لي بالمائة فأخذ عوداً من الارض وقال هذا لك فمضت به الى بيت عوف ، فاستجار بخماعة ابنته فبعثت به

الى عوف ثم أن عمرو بن هند بعث الى عوف أن يأتيه بمروان وكان واجداً عليه في شيء فقال عوف لرسوله : ان جماعة ابنتي قد اجارته ، فقال : إن الملك قد آلى أن يعفو عنه أو يضع كفه في كفه ، فقال عوف : يفعل ذلك على أن تكون كفي بين أيديها ، فأجابته عمرو الى ذلك فجاء عوف بمروان فأدخله عليه فوضع يده في يده ووضع يده بين أيديها فعفا عنه . ومنهم الطائي صاحب النعمان ابن المنذر ، وكان من وفائه أن النعمان ركب في يوم بؤسه وكان له بومان يوم بؤس ويوم نعيم لم يلقه أحد في يوم بؤسه إلا قتله ولا في يوم نعيمه إلا أحياء وحباه وأعطاه ، فاستقبله في يوم بؤسه اعترابي من طيء فقال : حيا الله الملك ان لي صبية صفاراً لم أوص بهم أحداً فان رأى الملك أن يأذن لي في اتيانهم وأعطيه عهد الله ان ارجع اليه اذا اوصيت بهم حتى اضع يدي في يده ، فرق له النعمان وقال له : لا إلا ان يضمنك رجل من معنا فان لم تأت قتلناه ، وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل فنظر اليه الطائي وقال :

يَا شَرِيكَ ابْنَ عَمْرٍو هَلْ مِنَ الْمَوْتِ مَحَالَةٌ
يَا أَخَا كُلِّ مُضَافٍ يَا أَخَا مَنْ لَا أَخَالَه
يَا أَخَا النَّعْمَانِ فُكَّ الْيَوْمَ عَنْ شَيْخِ غِلَالَةٍ
ابْنُ شَيْبَانَ قَبِيلٌ أَصْلَحَ اللهُ فَعَالَهُ

فقال شريك : هو علي اصلح الله الملك ، فمضى الطائي واجل له اجلا يأتي فيه فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكاً وجعل يقول له : ان صدر هذا اليوم قد ولي وشريك يقول : ليس لك علي سبيل حتى نمسي فلما امسوا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك ، فقال شريك : ليس لك علي سبيل حتى يدنو الشخص فلعاه صاحبي ، فبينما هما كذلك إذا أقبل

الطائي فقال النعمان : والله ما رأيت أكرم منكما وما ادري أيكما أكرم
أهذا الذي ضمنك وهو الموت أم انت وقد رجعت الى القتل ؟ والله لا أكون
الأم الثلاثة فأطلقه وأمر برفع يوم يؤسه ، وأنشد الطائي :

وَلَقَدْ دَعَعْتَنِي لِلْخِلَافِ عَشِيرَتِي فَأَبَيْتُ عِنْدَ تَجَمُّهِمِ الْأَقْوَالِ
إِنِّي أَمْرٌ مِّنِي أَوْفَاءُ سَجِيَّةٌ وَفِيمَالٍ كُلِّ مُهَذَّبٍ بَدَالِ

فقال النعمان : ما حملك على الوفاء قال : ديني قال : وما دينك ؟
قال : النصرانية قال : اعرضها علي فعرضها عليه فتصر النعمان .

(ضده)

قيل : سكتب صاحب بريد همذان الى المأمون وهو بخراسان يعلمه أن
كان صاحب البريد الموزول أخبره ان صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأا
على اخراج مائتي الف درهم من بيت المال واقسامها بينها ، فوقع المأمون :
إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول اجازة
وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازته ، فأنت الساعي عند ذلك وقال :
يا امير المؤمنين رضي الله عنك الممذرة فان الساعي وإن كان في سعائته
صادقاً لقد كان في صدقه لئياً ، اذ لم يحفظ الحرمه ولم يف لصاحبه . قال :
ودخل رجل على سليمان بن عبدالمك قال : يا امير المؤمنين عندي نصيحة
قال : وما نصيحتك هذه ؟ قال : فلان كان عاملاً ليزيد بن معاوية وعبد
الملك والوليد فخاتمهم فيما تولاه ثم اقتطع اموالا كثيرة جليلة فمر باستخراجها
منه ، قال : أنت شر منه وأخون حيث اطلعت على أمره وأظهرته ولولا
أني أنفرت النصح لعاقبتك ولكن اخترتني خصلة من ثلاث ، قال : اعرضهن
يا امير المؤمنين ، قال : ان شئت فقلنا عما ذكرت ، فان كنت صادقاً
مقتسك ، وان كنت كاذباً عاقبتك ، وان امتقلت أقلناك ، فاستقاله الرجل .

١٧ - محاسن السخاء

روي عن نافع قال : لقي يحيى بن زكريا عليه السلام ابليس لعنه الله فقال : أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم إليك . قال : أحبهم إلي كل مؤمن بخيل وأبغضهم إلي كل منافق سخي قال : ولم ذلك ؟ قال : لان السخاء خلق الله الاعظم فأخشى ان يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار والبخل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل سخي احب الى الله عز وجل من عابد بخيل وأدوا الداء البخل) وقال صلى الله عليه وسلم (ما أشرفت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم عجل لمنفق خلفاً ولمسك تلفاً وملكاً يناديان : أيها الناس هلموا الى ربكم فان ما قل وكفى خير مما كثر وألهي) وعن الشعبي قال : قالت ام البنين ابنة عبدالعزيز اخت عمر بن عبدالعزيز وكانت تحت الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قيصاً ما لبسته او طريقاً ما ملكتها ، وكانت تعتق في كل يوم رقبة ، وتحمل على فرس في سبيل الله ، وكانت تقول : البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة . وقيل اعتقت هند بنت عبدالمطلب في يوم واحد اربعين رقبة : وقال بعض الحكماء : ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة ، وثواب البخل حرمان وانلاف ومذمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه (يا علي كن شجاعاً فان الله يحب الشجاع ، وكن سخياً فان الله يحب السخي ، وكن غيوراً فان الله يحب الغيور يا علي وان انسان مآلك حاجة ليس لها بأهل فكن أنت أهلاً لها) ، وقال النبي ﷺ : (السخاء شجرة في الجنة من أخذ منها بفضن مد به الى الجنة) ، وقال عبد العزيز بن مروان : لو لم يدخل على البخلاء في لؤمهم الاسوء ظنهم بالله عز وجل لكان عظيماً ، وقال ﷺ (تجافوا عن ذنب السخي فان الله

أخذ بيده كلما عثر) . وقال بهرام جور : من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فليُنظر إلى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدم الله في الجنان فإنه لولا رضاه الجود لم يصطفه لنفسه وقال الموبدان لأبرويز : أكنتم تمون أنتم وآباؤكم بالمعروف وترصدون عليه الكفاة ؟ قال لا : ولا نستحسن ذلك لخولنا وعبيدنا وكيف ترى ذلك وفي كتاب ديننا من فعل معروفًا خفياً وأظهره ليتطول به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واحتجب أن لا نعلمه من الأبرار ولا نذكره في الاتقياء والصالحين ؟ قيل : وسئل الاسكندر ما أكبر ما شيدت به مملكك ؟ قال : ابتداري إلى اصطناع الرجال والاحسان إليهم . فقال : وكتب ارسطاطا ليس في رسالته إلى الاسكندر : واعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلقه وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ في قلوب الناس فاودع ملوهم محبة أبدية تبقى بها حسن ذكرك وكرامتك ومالك وشرف آثارك . قال : ولما قدم بزرجمهر إلى القتل قيل له : انك في آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة فتكلم بكلام تذكر به فقال : أي شيء أقول ؟ الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن يكون حديثاً حسناً فافعل . قيل : وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي : نحن أفقرى للضيف . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدهما ربما لا يملك إلا بعيراً فإذا حل به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمي : فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم ، قال : وما ذلك ؟ قال : نحن نسمي الضيف مهان ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا به ؟ وقال بعض الحكماء : بلغ الجود من قيام بالمجهود . وقيل : الجواد من لم يرضن بالموجود . وقال الأماون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . قيل : وشكا رجل إلى إياس بن معاوية كثرة ما يب ويصل الناس ويفتق . قال : إن النفقة داعية الرزق وكان جالسا على

باب فقال للرجل : أغلق هذا الباب فأغلقه فقال : هل تدخل فيه الريح ؟
قال : لا . قال : فافتحه ففتحه فجعلت الريح تحترق في البيت فقال :
هكذا الرزق أغلقت فلم تدخل الريح فكذلك اذا أمسكت لم يأتك الرزق .
قيل : ووصل المأمون محمد بن عبيد المهلبى بمائة ألف دينار ففرقها على
إخوانه فبلغ ذلك المأمون فقال : يا أبا عبدالله ان بيوت الأموال لا تقوم
بهذا . فقال : يا أمير المؤمنين البخل بالوجود سوء الظن بالمعبود . وعن
أمية ابن يزيد الأموي قال : كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية
فجاءه رجل من أهل بيته فسأله المعونة على تزويج ، فقال له قولاً ضعيفاً
فيه وعد وقلة اطماع ، فلما قام من عنده ومضى دعا صاحب خزانته فقال :
أعطه أربعمائة دينار فاستكثرناها وقلنا : كنت رددت عليه رداً ظننا أنك
تعطيه شيئاً قليلاً فاذا أنت أعطيته أكثر مما أمل ، فقال : إني أحب أن
يكون فعلي أحسن من قولي . وبجاءم بضرب المثل في السخاء ، فحدثنا عن بعض
حالات حاتم قيل : كان حاتم جواداً شاعراً وكان حينما نزل عرف منزله
وكان ظفراً إذا قاتل غلب واذا غم نهب واذا سئل وهب واذا ضرب
بالقداح سبق واذا أسر أطلق ، وكان أقسم أن لا يقتل واحداً منه ، قيل :
ولما بلغ حاتم قول المنلس الضعيف .

قَلِيلُ الْمَالِ تُصْلِحُهُ فَيَبْقَى
وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ
وَحِفْظُ الْمَالِ أَيْسَرُ مِنْ بُغَاةِ
وَضَرْبُ فِي الْبِلَادِ بِغَيْرِ زَادِ

فقال : ماله قطع الله لسانه يمرض الناس على البخل أفلا قال :

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ قَبْلَ فَنَائِهِ
وَلَا الْبُخْلُ فِي مَالِ الشَّحِيحِ يَزِيدُ
فَلَا تَلْتَمِسْ رِزْقًا بِمَيْشٍ مُقْتَرٍ
لِكُلِّ عَدٍ رِزْقًا يَعُودُ جَدِيدُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الرِّزْقَ فَادٍ وَرَائِحٌ
وَأَنَّ الَّذِي أَعْطَاكَ سَوْفَ يُعِيدُ

قيل : ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحز بناقة الضيف وعشاه
وغداه وقال : إنك قد أقرضتني ناقتك فاحتمكم علي قال : راحلتين قال : لك
عشرون أرضيت ؟ قال : نعم وفوق الرضى . قال : لك اربعون . ثم قال
لمن يحضرته من قومه ، من أانا بناقة فله ناقتان بعد الغارة ، فأتوه بأربعين
فدفعها الى الضيف . وحكوا عن حاتم انه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة
فلما كان بأرض عنزة ناداه أسير فيهم . يا ابا سفانة قد أكلني الاسار والقميل
قال : والله ما أنا في بلادي ولا معي شيء . وقد أسأت الي أن نوهت باسمي
فذهب الى العزيزين فساومهم فيه واشتراه منهم وقال : خلوا عنه وانا اقيم
مكانه في قيده حتى أودي فداءه ، ففعلوا فأتاهم بفداءه . قيل : ولما مات حاتم
خرج رجل من بني اسد يعرف بابي الخيبري في نفر من قومه وذلك قبل أن
يعلم كثير من العرب بموته فأناخوا بقبره فقال : والله لأحلفن للعرب اني
نزلت بحاتم وسألته القرى فلم يفعل وجعل يضرب القبر برجله ويقول :

عَجَلُ أبا سَفَانَةَ قِراكا فَسَوْفَ أَنْبِي سائِلِي ثَنَكا

فقال بعضهم : مالك تنادي رمة وباتوا مكانهم فقام صاحب القوا من
نومه مذعوراً فقال : يا قوم عليكم مطالباكم فان حاتمأ أناني فأنشدني :

أبا الخَيْبَرِي وَأَنْتَ أَمْرُو
ظَلُومُ الْعَشِيرَةِ شَتَامُهَا
فَمَاذَا أَرَدْتَ إِلَى رِمَّةِ
بَدْوِيَّةِ صَخَبَتْ هَامُهَا
تُبْنِي أَذَاهَا وَإِعْسَارُهَا
وَحَوْلِكَ صَلِيٌّ وَأَنْعَامُهَا
وَإِنَّا كُنْغِمُ أَضْيَافِنَا
مِنَ الْكُومِ بِالسَّيْفِ نَعْتَامُهَا

وقيل في المثل : هو أجود من كعب بن مامة وكان من اباد وبلغ من

جوده أنه خرج في ركب فيهم رجل من بني النمر بن قاسط في شهر ناجر
والجأهم العطش وضلوا فتصافنوا ماءهم فجعل النمرى يشرب نصيبه فإذا اراد
كعب ان يشرب نصيبه : قال آثر أخاك النمرى فيؤثره حتى أضر به العطش
فلما رأى ذلك استنحت ناقته وبادر حتى رفعت له اعلام الماء وقيل له : رد
كعب فانك وراذ فمات قبل ان يرد ونجا رفيقه ، ومن قول ابي تمام :

هُوَ الْبَجْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَيْتَهُ
كَرِيمٌ إِذَا مَا جِئْتَ لِلْعُرْفِ طَالِبًا
فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ
لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ
فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
حَبَاكَ بِمَا تَخْوِي عَلَيْهِ أُنَامِلُهُ

وللبحتري :

لَوْ أَنْ كَفَّكَ لَمْ تَجِدْ أَمُومًا
وَلَوْ أَنْ مَجَّدَكَ لَمْ يَكُنْ مُتَقَادِمًا
لَكَفَادُ عَاجِلٌ وَوَجْهِكَ الْمُتَهَلِّلُ
أَغْنَاكَ آخِرُ سُودَدٍ عَنْ أَوَّلِ

ولبكر بن النطاح في ابي دلف :

بَطَلٌ بِصَدْرِ حُسَامِهِ وَسِنَانِهِ
وَرِثَ الْمَكَارِمَ وَأُبْتَنَاهَا قَاسِمٌ
يَا عِصْمَةَ الْعَرَبِ الَّتِي لَوْ لَمْ تَكُنْ
إِنَّ الْعُيُونَ إِذَا رَأَتْكَ حِدَادُهَا
أَجْلَانٍ مِنْ صَدْرٍ وَمِنْ إِيرَادِ
بِصَفَائِحِ وَأَسِنَّةٍ وَجِيَادِ
رَجَمَتْ مِنَ الْإِجْلَالِ غَيْرَ حِدَادِ
فَقِيحَتْ مِنْهُ مَوَاضِعَ الْأَسْدَادِ
حَيًّا إِذَا كَانَتْ بَغِيرِ عِمَادِ
وَكَانَ سَيْفَكَ سُلًّا مِنْ فِرْصَادِ
وَإِذَا رَمَيْتَ الثُّغْرَ مِنْكَ بَعْرَمَةٍ
وَكَانَ رُمْحَكَ مُنْقَعًا فِي عُصْفَرِ

كَوْ صَالَ مِنْ غَضَبِ أَبِي دَلْفٍ عَلَيَّ يَبِضُ الشُّيُوفِ كَذُبْنَ فِي الْأَغْمَادِ
أَوْرِي وَنُورَ لِلسَّعْدَاوَةِ وَاللَّهْوَى نَارَيْنِ نَارَ دَمٍ وَنَارَ زِنَادِ

قال أبو هفان : أنشدت هذه الايات عبدالعزيز بن ابي دلف بسر من رأى فقال : هل سمعت بمثل هذه الايات ؟ قلت : لا ، قال : ولغيره في ابي دلف :

وَأَوْ يَجُوزُ أَتَقَالَ النَّاسُ كُلَّهُمْ كَوَلَا أَبُو دَلْفٍ مَا أَوْرَقَ الشَّجْرُ

قال ابن يحيى القديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدني قول عمارة في أهل بغداد فأنشدته :

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مُلُوكَ مَخْرَمٍ أْبِعْ حَسَنًا وَأَبْنِي هِشَامٍ بِدِرْهِمٍ
وَأَعْطِي رَجَاءً بَعْدَ ذَلِكَ زِيَادَةً وَأَمْنَحُ دِينَارًا بَغَيْرِ تَنْدَمٍ
فَإِنْ طَلَبُوا مِنِّي الزِّيَادَةَ زِدْتُهُمْ أْبَا دَلْفٍ وَالْمُسْتَطِيلَ بَنَ أَكْتَمِ

فقال المتوكل : ويلى علي ابن البوال علي عتبيه يهجو شقيق دولة العباس قال فهل عندك من المدح في ابي دلف القاسم بن عيسى شيء ؟ قلت يا أمير المؤمنين قول الاعرابي الذي يقول فيه :

أَبَا دَلْفٍ إِنْ السَّمَاحَةَ لَمْ تَرَلْ مُغْلَمَةً تَشْكُو إِلَى اللَّهِ غُلْمًا
فَبَشَّرَهَا رَبِّي بِمِثْلِ قَاسِمٍ فَأَرْسَلَ جَبْرِيلاً إِلَيْهَا فَحَلَمًا

وقال غيره :

حُرٌّ إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا لَتَسْأَلَهُ أُعْطَاكَ مَا مَلَكَتْ كَفَاؤُهُ وَأَعْتَدْرَا
يُخْفِي صَنَائِعَهُ وَاللَّهُ يُظْهِرُهَا إِنْ الْجَمِيلَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَا

وقال آخر :

فَتَى هَاهَذَا الرَّحْمَنَ فِي بَدَلِ مَالِهِ فَلَيْسَ تَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا عَلَى النِّعَمِ
فَتَى قَصُرَتْ آمَالُهُ عَنِ فِعَالِهِ

وليس على الحرِّ الكريمِ سوى الجهدِ

وقال آخر :

إِذَا مَا أَنَاهُ السَّائِلُونَ تَوَقَّدَتْ عَلَيْهِ مَصَائِحُ الطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ
لَهُ فِي دُرَى الْمَعْرُوفِ نِعْمَى كَأَنَّهَا مَرِاقِعُ مَاءِ الْمُنْزَنِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ

وقال آخر :

عَادَ الشُّرُورُ إِلَيْكَ فِي الْأَعْيَادِ وَسَعِدْتَ مِنْ دُنْيَاكَ بِالْإِسْعَادِ
رِفْقًا بَعِيدَ جَلٍّ مَا أَوْلَيْتَهُ رِفْقًا فَقَدْ أَثْقَلْتَهُ بِأَيْدِي
مَلَأَ النُّفُوسَ مَهَابَةً وَمَحَبَّةً بَدْرُ بَدَا مَتَغَمَّرًا بِسَوَادِ
مَا إِنْ أَرَى لَكَ مُشَبِّهًا فَيَمَنْ أَرَى إِنْ الْكِرَامَ قَلِيلَةُ الْأَنْدَادِ

وقال في ابن أبي دؤاد :

بَدَا حِينَ أُرَى بِإِخْوَانِهِ فَقَلَّلَ عَنْهُمْ شِبَابَةَ الْعَدَمِ
وَحَذَرَهُ الْحَزْمُ حَرَفَ الزَّمَانِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعَمِ
فَلَيْسَ وَإِنْ بَجَلِ الْبَاخِلِو نَ يَقْرَعُ سِنًّا لَهُ مِنْ نَدَمِ
وَلَا يَنْكُتُ الْأَرْضَ عِنْدَ السُّؤَالِ لِيَنْزِعَ سُؤَالَهُ عَنِ نَعَمِ

ويروى في الحديث : أنه لا يجتمع الشح والايان في قلب عبد صالح أبداً . ويقولون : الشحيح أغدر من الظالم أقسم الله بعزته لا يساكنه بخيل في جنته . وقال النبي ﷺ (من فتح له باب من الخير فليمتنزهه فإنه لا يدري متى يعلق عنه) . وقال الشاعر في ذلك :

لَيْسَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانٍ تَهَيَّأُ صَنَائِعُ الْإِحْسَانِ
فَإِذَا امْكَنْتُ تَقَدَّمْتُ فِيهَا حَذَرًا مِنْ تَعَذُّرِ الْإِمْكَانِ

وذكر عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : أن أمير المؤمنين علياً صلوات الله عليه بعثه إلى حكيم بن حزام بن خويلد يسأله مالا فانطلق به إلى منزله فوجد في الطريق صوفاً فأخذه ومر بقطعة كساء فأخذها فلما صار إلى المنزل أعطاه طرف الصوف فجعل يفتله حتى صيره خيطاً ، ثم دعا بفرارة مخرقة فرقعها بالكساء وخطبها بالخط وصر فيها ثلاثين ألف درهم فحملت معه . قال : وأتى قوم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري رحمه الله يسألونه في جمالة فصادفوه في حائط له يتبع ما يسقط من الثمر فيعزل جيده وورديته على حدة فهبوا بأن يرجعوا عنه وقالوا : ما نظن عنده خيراً ثم كلوه فأعطاهم فقال رجل من القوم . لقد رأيناك تصنع شيئاً لا يشبه فعالك فقال وما ذاك ؟ فأخبروه فقال : إن الذي رأيتم يشول إلى اجتماع ما ينفع وينمو . ومنها قيل : الذود إلى الذود إبل وأنشدوا :

رُبَّ كَبِيرٍ هَاجَهُ صَغِيرٌ وَفِي الْبُحُورِ تُفَرِّقُ الْبُحُورُ

وقال آخر :

قَدْ يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيلِ وَإِنَّمَا الْقَرْمُ مِنَ الْأَفِيلِ

وَسَحَقُ النَّخْلِ مِنَ الْفَسِيلِ

قال : وأنى رجل طاحه بن عبيد الله فسأله حمالة فرآه يهناً بعيراً له فقال :
يا غلام أخرج إليه بكرة فقبضها وقال : أردت أن أنصرف حين رأيتك
تهناً البعير فقال : انا لا نضيع الصغير ولا يتعاضمنا الكبير .

١٨ — مساوي البخل

المثل الثائر في البخل : هو أبخل من مادر ، وهو رجل من بني هلال
ابن عامر بلغ من بخله أنه كان يسقي ابله فيبقى في أسفل الحوض ماء قليل
فسلح فيه ومدد الحوض به فسمى مادراً . وذكروا أن بني هلال وبني
فزارة تنافروا الى أنس بن مدرك وتراضوا به ، فقالت بنو هلال : يا
بني فزارة أكلتم أير الحمار ، فقالت بنو فزارة : لم نعرفه ، وكان سبب
ذلك أن ثلاثة اصطحبوا : فزاري ، وتعلبي ، وكلائي ، فصادفوا حمار
وحش ومضى الفزاري في بعض حوائجه فطبخنا وأكلا وخبأ للفزاري أير
الحمار فلما رجع قالوا : قد خبأنا لك حنك فكل ، فأقبل يأكل ولا يسيغه ،
فجملاً يضحكان : ففطن وأخذ السيف وقام اليهما وقال : لتأكلان منه أو
لأقتلنكما فامتنعا فضرب أحدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه ، فقال
فيهم الشاعر :

نَشَدْتُكَ يَا فَزَارَ وَأَنْتَ شَيْخٌ إِذَا خَيْرَتْ تُخْطِي فِي الْخِيَارِ
أَصِيحَانِيَّةٌ أَدِمَتْ بَسَنٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ أَيْرُ الْحِمَارِ
بَلَى أَيْرُ الْحِمَارِ وَخُصِيَّتَاهُ أَحَبُّ إِلَى فَزَارَةَ مِنْ فَزَارِي

فقلت بنو فزارة : منكم يا بني هلال من سقى ابله فلما رويت صلح في
الحوض ومدده بخلًا فنفرهم أنس بن مدرك على الهلالين فأخذ الفزاريون
منهم مائة بعير ، وكانوا تراءوا عليها ، وفي بني هلال يقول الشاعر :

وَلَكِنْ مَرَى مُشْرِقًا وَوَجْهَهُ لِيُرْغَمَ فِي مَالِهِ مِنْ رَغْمٍ

لَقَدْ جَاءَتْ خَزِيئًا هَلَالُ بْنُ عَامِرٍ بَنِي عَامِرٍ طُرًّا بِسَلْحَةٍ مَادِرٍ
فَأَفَّ لَكُمْ لَا تَذْكُرُوا الْفَخْرَ بَعْدَهَا

بَنِي عَامِرٍ أَنْتُمْ شِرَارُ الْعَشَائِرِ

وفي المثل . هو أنجل من أبي حياح ، وهو رجل في الجاهلية بلغ من بخله أنه كان يسرج السراج فإذا أراد أحد أن يأخذ منه أطأه ، فضرب به المثل . ومنهم صاحب نجيح بن سلعة اليربوعي فإنه ذكر : أن نجيحاً اليربوعي خرج يوماً يتصيد فعرض له حمار وحش فاتبه حتى دفع إلى أكمة فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد في أطهار بين يديه ذهب وفضة ودر وياقوت فدنا منه فتناول بعضها ولم يستطع أن يحرك يده حتى القاه ، فقال : يا هذا ما هذا الذي بين يديك وكيف استطاع أخذه وهل هو لك أم لغيرك فاني أعجب مما أرى أجواد انت فتجود لنا أم نجيل فأعذرك ؟ فقال الأعمى : اطلب رجلاً لقد منذ سنين وهو سعد بن خشم بن شماس فأتني به نعطك ما تشاء . فانطلق ، نجيح مسرعاً قد استطير فؤاده حتى وصل إلى قومه ودخل خبائه ووضع رأسه فنام لما به من التعب لا يدري من سعد ابن خشم فأتاه آت في مائة فقال له : يا نجيح ان سعد بن خشم في حي بني محلم من ولد ذهل بن شيان ، فسأل عن بني محلم ثم سأل عن خشم بن شماس فإذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه فحياه نجيح فرد عليه السلام ، فقال له نجيح : من أنت ؟ قال : أنا خشم بن شماس ، قال له : فأين ولدك سعد ؟ قال خرج في طلب نجيح اليربوعي وذلك أن آتياً أتاه في مائة فحدثه أن مالا له في نواحي بني يربوع لا يعلم به الا نجيح اليربوعي ، فضرب نجيح فرسه وهضى وهو يقول :

أَيْطَلُبُنِي مَنْ قَدْ عَمَانِي طَلَابُهُ فَيَا أَيَّتَنِي أَفَاكَ سَعْدُ بْنُ خَشْرَمٍ

أُتِيتَ نَبِيَّ يَرْبُوعَ تَبَغَّبِي لِقَاءَنَا وَجِئْتُ لِكَيْ أَلْقَاكَ حَيًّا مُحَلِّمًا

فلما دنا من محلته استقبله سعد ، فقال له نجيح : أيها الراكب هل لقيت سعدا في بني يربوع ؟ قال : أنا سعد فهل تدل علي نجيح ؟ قال : أنا نجيح وحدثه بالحديث ، فقال : الدال على الخير كفاعله - وهو أول من قالها - فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان فتوارى الرجل الامى عنها وترك المال فأخذه سعد كله ، فقال نجيح : يا سعد قاسمني ، فقال له اطوعني وعن مالي كشعا ، وأبى ان يعطيه شيئا فانقضى نجيح سيفه فجعل يضربه حتى برد ، فلما وقع قتيلا تحول الرجل الحافظ للمال سعة ، فأسرع في أكل سعد وعاد المال الى مكانه ، فلما رأى نجيح ذلك ولى هاربا الى قومه . قيل : وكان أبو عيس بنجيلا وكان اذا وقع الدرهم في يده نقره باصبعه ثم يقول كم من مدينة قد دخلتها ويد قد وقعت فيها الآن استقر بك القرار واطمأنت بك الدار ، ثم يرمي به في صندوقه ، فيكون آخر العهد به قيل : ونظر سليمان بن مزاحم الى درهم فقال في شق : لا اله إلا الله ، وفي شق : محمد رسول الله ما ينبغي أن تكون الا معاذة وقذفة في صندوقه . وذكروا أنه كان بالري عامل على الخراج يقال له المسيب ، فأتاه شاعر يمتدحه فلم يعطه شيئا ، ثم سعل سعة فضرط ، فقال الشاعر :

أُتِيتُ الْمَسِيَّبَ فِي حَاجَةٍ فَمَا زَالَ يَسْتَعْلُ حَتَّى ضَرَطَ
فَقَالَ غَلِطْنَا حِسَابَ الْخَرَاجِ فَقُلْتُ مِنَ الضَّرَطِ جَاءَ الْغَلَطُ

فما زالوا يقولون ذلك حتى هرب منها من غير عزل . قال : وكتب أرسطاطاليس الى رجل بشيء فلم يفعل فكتب اليه : ان كنت أردت فلم تقدر فمعدور ، وان كنت قدرت ولم ترد فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر . قال : وسمع أبو الأسود الدؤلي رجلا يقول : من يعيشي الجائع ؟

فعاشه ثم قام الرجل ليخرج فقال : هيهات تخرج فتؤذي الناس كما آذيتني ،
 ووضع رجله في الادم حتى أصبح . قال : وكان رجل يأتي ابن المقفع
 فيلح عليه وسأله أن يتغذى عنده ويقول : املك تظن أني أنكلف لك
 شيئاً والله لا أقدم لك الا ما عندي ، فلما أتاه لم يجد في بيته الا كسراً
 يابسة وملح جريش . وجاء سائل الى الباب فقال له : وسع الله عليك ،
 فلم يذهب فقال : والله لئن خرجت اليك لأدقن رأسك ، فقال ابن المقفع
 للسائل : ويحك لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده
 لم تزد كلمة ولم تقم طرفة عين ! قال : وكتب ابراهيم بن سبابة الى
 صديق له كثير المال يستسلفه ، فكتب اليه : العيال كثير والدخل قليل
 والمال مكذوب عليه فكتب اليه : ان كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً ،
 وان كنت صادقاً فجعلك الله معذوراً . وكتب آخر الى آخر يصف
 رجلاً : أما بعد فانك كتبت تسأل عن فلان كأنك هممت به أو حدثتك
 نفسك بالقدوم اليه فلا تفعل ، فان حسن الظن به لا يقع في الوم الا
 بخذلان الله ، والطمع فيما عنده لا يحظر على القلب الا بسوء التوكل على
 الله ، والرجاء فيما في يده لا ينبغي الا بعد اليأس من رحمة الله انه يرى
 الايثار الذي يرضى به التبذير الذي يعاقب عليه والاقتصاد الذي أمر به
 الاسراف الذي يعاقب عليه ، وان بني اسرائيل لم يستبدلوا العدى والبصل
 بالمن والسلوى الا لفضل أخلاقهم وقديم علمهم ، وان الصنيعة مرفوعة ،
 والعلة موضوعة ، والهبة مكروهة ، والصدقة منحوسة ، والتوسع ضلالة ،
 والجود فسوق ، والسخاء من همزات الشياطين ، وان مواسة الرجال من
 الذنوب الموبقة والافضال عليهم من احدى الكبائر ؛ وأيم الله انه يقول
 إن الله لا يغفر أن يؤثر المرء في خصاصة على نفسه ويغفر ما دون ذلك
 لمن يشاء ، ومن آثر على نفسه فقد ضل ضلالاً بعيداً كأنه لم يسمع
 أبالمعروف الا في الجاهلية الذين قطع الله أديارهم ونهى المسلمين عن اتباع
 ثارهم وأن الرجفة لم تأخذ أهل مدين الاسخاء كان فيهم ولا أهلكت

الريح عاداً الا اتوسع كان منهم ، فهو يخشى العقاب على الانفـاق ويرجو
 العواب على الاقتار ويعد نفسه خاسر او بعدها الفقر ويأمرها بالبخل خيفة
 أن تمر به قوارع الدهر وأن يصيبه ما أصاب القرون الاولى فأقم رحك
 الله مكائك واصطبر على عسرك عسى الله أن يبدلنا واياك خيرا منه
 زكاة وأقرب رحما . ولبعض الكتاب أما بعد فان كثير المواعيد من غير
 نبح عار على المطلوب اليه وقلتها مع نبح الحاجة مكرمة من صاحبها ،
 وقد رددتنا في حاجتنا هذه في كثرة مواعيدك من غير نبح لها حتى
 كأننا قد رضينا بالتعلل لها دون النجاح كقول القائل :

لَا تَجْمَعُنَا كَكَمُونَ بِمَزْرَعَةٍ إِنَّ فَاتَهُ الْمَاءُ أُرْوَتْهُ الْمَوَاعِيدُ

وكتب آخر : ما رأيت مثل طيب قولك أمره سوء فعلك ، ولا مثل
 بسط وجهك خالفه طول تنكيدك ، ولا مثل قرب عدتك باعدها افراط
 مظالمك ، ولا مثل أنس مذاهبك أوحش منه اختبار عواقبك حتى كأن الدهر
 أودعك لطيف الحيلة بالمكر أهل الحلة وكأنه زينك نيه بالخديعة لتدرك
 منهم فرصة الهلكة . وقد قيل : وعد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم
 مطال وتأجيل . وقال بعضهم : وعدتنا مواعيد عرقوب ، ومطلتنا مطل
 نعاس الكلب ، وغرقتنا غرور السراب ، ومزينا أماني الكمون .
 ولبعضهم : أما بعد فلا تدعي مهانا بوعدك فالعذر الجليل أحسن من المطل
 الطويل ، فان كنت تريد الانعام فأنجح وان تعذرت الحاجة فأوضح وأعلمني
 ذلك لأصرف وجه الطلب الى غيرك . وذكروا أن فني من مراد كان
 يخلف الى عمرو بن العاص فقال له ذات يوم : ألك امرأة ؟ قال : لا
 قال : فتزوج وعلي المهر ، فرجع الى أمه فأخبرها الخبر فقالت :

إِذَا حَدَّثْتِكَ النَّفْسُ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكُذِّبْ

فتزوج وأنى عمرو بن العاص فاعتل عليه ولم ينجز وعده فشكا ذلك

إلى أمه فقالت :

لَا تَفْضِبِينَ عَلَيَّ أَمْرِي فِي مَالِهِ وَعَلَى كِرَائِمِ حُرِّ مَالِكَ فَأَغْضَبَ

ووصف أعرابي رجلا فقال له : بشر مطمع ومطل مؤيس وكنت منه أبدا بين الطمع واليأس لا بذل سريح ولا مطل مريع ، وقال أعرابي : أنا من فلان في أماني تهبط العصم وحلف يذكر العدم ، ولست بالحريص الذي إذا وعد الكذوب علق نفسه لديه وأنعب راحلته إليه ، وذكر أعرابي رجلا فقال له : مواعيد عواقبها المثل وثأرها الخلف ومحصولها اليأس ويقال سرعة اليأس أحد النجحين ، وقال بعضهم : مواعيد فلان مواعيد عرقوب ، ولع الآل وبرق الخلب ، وأماني الكون ونار الجباب ، واصلت تحت الراعدة ، وبما قيل في ذلك :

أَرْوْحُ وَأَعْدُو نَحْوَكُمْ فِي حَوَائِجِي
فَأَصْبِحُ فِيهَا غَدْوَةً كَالَّذِي أُمِّي
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو لِلصَّدِيقِ شَفَاعَتِي
فَقَدْ صِرْتُ أَرْضَى أَنْ أَشْفَعَ فِي نَفْسِي

ولأبي نواس :

وَعَدْتَنِي وَعَدَدَكَ حَتَّى إِذَا
أُطْمَعْتَنِي فِي كَنْزِ قَارُونَ
جِئْتَ مِنَ اللَّيْلِ بِمَسْأَلَةٍ
تَفْسِلُ مَا قَلْتَ بِصَابُونَ

ولأبي تمام :

يَحْتَاجُ مَنْ يَدْتَجِي نَوَاكِمُ
إِلَى ثَلَاثٍ مِنْ غَيْرِ تَكْذِيبِ

كُنُوزِ قَارُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ وَعُنُورِ نُوحٍ وَصَبْرِ أَيُّوبِ
وقال آخر :

إِنِّي رَأَيْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسْبُكُمْ أَنْ تَلْبَسُوا خَزَايَا النَّيَابِ وَتَشْبَعُوا
وقال حسان بن ثابت :

إِنِّي لَا أَعْجَبُ مِنْ قَوْلِ غُرَزَتْ بِهِ حُلُوقِ يُمْدُ إِِلَيْهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
لَوْ تَسْمَعُ الْعُضْمُ مِنْ صَمِّ الْجِبَالِ بِهِ

ظَلَّتْ مِنَ الرَّاسِيَاتِ الْعُضْمُ تَنْحَدِرُ
كالخمر والشهد يجري فوق ظاهره

وما لباطنه طعم ولا خبير
وكالسراب شبيهاً بالقدير وإن تبغ السراب فلا عين ولا أثر
لا ينبت العشب عن برق وراعدة
غراء لئس لها سئل ولا مطر

وقال آخر :

رَأَيْتُ أَبَا عُثْمَانَ يَبْدُلُ عِرْضَهُ وَخَيْرُ أَبِي عُثْمَانَ فِي أَحْرَزِ الْحَرِزِ
يَجِيءُ إِلَى جَارَاتِهِ بَعْدَ شَبِيهِ وَجَارَاتُهُ غَرَّتْنِي تَحِيْنُ إِلَى الْخُبْرِ

وقال آخر :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنْ الْخُبْرَ فَكَيْهَةٌ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَى أَوْفَى بْنِ مَنْصُورِ

الحابِسِ الرُّوثِ فِي أَعْفَاجِ بَعْلَتِهِ خَوْفًا عَلَى الْحَبِّ مِنْ لَقَطِ الْعَصَافِيرِ

وقال آخر :

نَوَالِكَ دُونَهُ خَرَطُ الْقِيَادِ وَخَبْزُكَ كَالنُّرْيَا فِي الْبِعَادِ
تَرَى الْإِصْلَاحَ صَوْمِكَ لَا لِنَسْكَ وَكَسَرَ الْخَبْرَ مِنْ عَمَلِ النَّفْسَادِ
أُرَى عُمَرَ الرَّغِيفِ بَطُولُ جَدًّا لَدَيْكَ كَأَنَّهُ مِنْ قَوْمِ هَادِ

وقال آخر :

الْشُّومُ مِنْكَ عَلَى الطَّعَامِ طِبَاعُ فَعِيَالُ يَنْتِكَ مَا حَيَّيْتَ جِيَاعُ
وَإِذَا يَمُرُّ بِيَابِ دَارِكَ سَائِلُ حَمَلَتْ عَلَيْهِ نَوَابِحُ وَسِبَاعُ
وَعَلَى رَغِيفِكَ حَيَّةٌ مَسْمُومَةٌ وَعَلَى خَوَانِكَ عَقْرَبٌ وَشُجَاعُ

وقال آخر :

يَا تَارِكَ الْبَيْتِ عَلَى الضَّيْفِ وَهَارِبًا عَنْهُ مِنَ الْخَوْفِ
ضَيْفِكَ قَدْ جَاءَ بِخُبْزٍ لَهُ فَارْجِعْ وَكُنْ ضَيْفًا عَلَى الضَّيْفِ
إِذَا أَشْتَهَى الضَّيْفُ طَبِيخَ الشُّتَا نَاهُ بِالشُّهُوَةِ فِي الضَّيْفِ
وَإِنْ دَنَا الْمِسْكِينُ مِنْ بَابِهِ شَدَّ عَلَى الْمِسْكِينِ بِالسَّيْفِ

وقال آخر :

رَأَى ضَيْفِكَ بِالْدَارِ وَكَرَبَ الْجُوعَ يَنْشَاهُ
عَلَى خَبْزِكَ مَكْتُوبًا سَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ

وقال آخر :

لأبي نوحٍ رَغِيفٌ أبدأ في حِجْرٍ دأيه
أبدأ يَمْسَحُهُ الدَّهْرُ بِكُمْ ووقايه
وله كاتبٌ سِرٌّ خَطٌّ فيه بَعْنَايه
فسيكفيكمُ اللهُ إلى آخرِ الآيه

وقال آخر :

الخبزُ يُبْطِي حينَ يدعُو به
ويمدحُ الملحَ لأصحابه
سيانُ أكلِ الخبزِ في داره
كأنه يقدّمُ من قافٍ
يقولُ هذا ملحُ سيرانِ
وقلغُ عَيْنَيْهِ بِخُطافِ

وقال آخر :

فتى لا يَنَارُ على عَرْسِهِ
فَمِنْهُ يَدُ الجودِ مَقْبُوضَةٌ
ولكن يَنَارُ على مُخْبِزِهِ
وكفُّ السَّاحَةِ في عَجْزِهِ

وقال آخر :

يصونونَ أثوابَهُم في التَّخْوَتِ
يُنْحُونُ مَنْ رَامَ رُغْفَانَهُمُ
وأزواجَهُمُ بَدَلَةٌ في السُّكُكِ
ويُدْنُونُ مَنْ رَامَ حَلَّ التُّكُكِ

وقال آخر :

أما الرَّغِيفُ على الخِوَا
نِ فَمِنْ حَمَامَاتِ الحَرَمِ

مَا إِنَّ مُجَسَّسٌ وَلَا مُجَسَّسٌ وَلَا بَدَاقٌ وَلَا يَشْمٌ
فَتَرَاهُ أَخْضَرَ يَابِسًا بَالِي النُّقُوشِ مِنَ الْهَرَمِ
وقال آخر :

أَتَيْنَا أَبَا طَاهِرٍ مَفْطِرِينَ
وَجَاءَ بِخُبْزٍ لَهُ حَامِضٌ
إِلَى دَارِهِ فَرَجَعْنَا صِيَامًا
فَقَلْتُ دُعُوهُ وَمُوتُوا كِرَامًا
وقال آخر :

يَبْخَلُ بِالْمَاءِ وَلَوْ أَنَّهُ
شُحًّا فَلَا تَطْمَعُ فِي خُبْزِهِ
مَنْعِيسٌ فِي وَسْطِ النَّيْلِ
وَلَوْ تَشَفَّعَ بِجَبْرِيَلِ

وعن حذيفة بن محمد الطائي قال : قال الرشيد ما لأحد من المولدين
ما لأبي نوار في الهجاء :

وَمَا رَوَّحْتَنَا لِتَذُبَّ عَنَّا
شِرَابُكَ كَالسَّرَابِ إِذَا التَّقِينَا
وَالَكِنْ خَفَتْ مَرَزِيَّةَ الذُّبَابِ
وُخْبِرُكَ عِنْدَ مُنْقَطِعِ السَّرَابِ
وقال آخر :

خَانَ عَهْدِي عَمْرُوهُ وَمَا خُنْتُ عَهْدَهُ
أَيْسَ لِي مَا حَيَّيْتُ ذَنْبَهُ إِلَيْهِ
وَجَفَانِي وَمَا تَغَيَّرْتُ بَعْدَهُ
غَيْرَ أَنِّي يَوْمًا تَغَدَّيْتُ عِنْدَهُ

وقال الخليل بن أحمد العروضي الأزدي :

فَكَفَّاهُ لَمْ تُخْلَقَا لِلنَّدَى
فَكَفَّ عَلَى الْخُبْزِ مَقْبُوضَةً
وَلَمْ يَكُ بِخُلَيْمًا بِدَعَهُ
كَأَنَّ تَقَصَّتْ مَائَةً تَعَهُ

وَكَفُّ ثَلَاثَةَ آلِهَا وَتِسْعُ مِثْيَاهَا لَهَا شِرْعَاهُ (١)

وقال ابن ابي البقل :

وَكَلُّ مَنْ أَجْتَدِيهِ فِي بَلَدِي أَرُومٌ مِمَّا لَدَيْهِ فِي صَفْدِي
يَعْقِدُ لِي بِالْيَسَارِ أَرْبَعَةً مَنقُوصَةً تِسْعَةً إِلَى الْعَدَدِ

وقال آخر :

أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو أَرْجِي نَوَالَهُ فَزَادَ أَبُو عَمْرٍو عَلَيَّ حَزَنِي حُزْنَا
فَكُنْتُ كِبَاغِي الْفَرْنَ أَسَامَ أَذُنَهُ فَأَبَّ بِلَا أُذُنٍ وَلَمْ يَسْتَفِدْ قَرْنَا

١٩ - محاسن الشجاعة

قيل : كان باليامة رجل من بني حنيفة يقال له جعد بن مالك ، وكان
اسنا فاتكا شجاعا شاعرا ، وكان قد أبر على أهل هجر وناحياتها فبلغ ذلك
الحجاج بن يوسف فكتب الى عامل اليامة يوجه بتلاعب جعدر به ويأمره
بالتجرد في طلبه حتى يظفر به ، فبعث العامل الى فتية من بني ربوع بن
حنظلة ، فجعل لهم جملا عظيما ان هم قتلوا جعدرا أو أتوه به أسيرا ، ووعدهم
ان يوفدهم الى الحجاج ويسفي فرائضهم ، فخرج الفتية في طلبه حتى اذا كانوا
قريبا منه بعثوا اليه رجلا منهم يريه انهم يريدون الانقطاع اليه والتعزم به
فوثق بهم واطمان اليهم ، فبينما هم على ذلك اذ شدوه وثاقا وقدموا به

(١) قلت في هامش الاصل ما نصه وذكر جعفر بن محمد التميمي في كتابه «الجامع
في اللغة» الشريعة المثل يقال : هذا شرعة ذلك اي مثله وعلى هذا تأولوا قول
الخليل رحمه الله فكف وذكر الايات الثلاثة ثم قال يريد مثلها اي مثل الاولى وأنا
ارى ان تكون شرعة هاهنا ديننا وسنة قال هذا لها ديننا .

الى العامل فبعث به معهم الى الحجاج ، وكتب يشي على الفتية . فلما قدموا على الحجاج قال له : أنت جعدر ؟ قال : نعم قال : ما حملك على ما بلفني عنك قال : جراءة الجنان ، وجفوة السلطان ، وكلب الزمان ، قال : وما الذي بلغ من أمرك فيجتريء جنانك ويصلك سلطانك ولا يكب زمانك ؟ قال : لو بلاني الأمير لوجدني من صاحبي الأعوان وبهم الفرسان وبين أوفى على أهل الزمان . قال الحجاج : إنا فاذفوك في قبة فيها أسد فان قتلك كفتانا مئونتك ، وان قتلته خلبناك ووصلناك قال : قد أعطيت أصلحك الله الأمانة وأعظمت المنة ، وقربت المحنة ، فأمر به فاستوثق منه بالحديد وألقي في السجن ، وكتب الى عامره بذكر يأمره أن يصيد له أسدا ضاربا فلم يلبث العامل ان بعث اليه بأسد ضاربات قد أبرت على أهل تلك الناحية ، ومنعت عامة مواعيهم ومسارح دوابهم ، فجعل منها واحدا في تابوت يجر على عجلة ، فلما قدموا به على الحجاج أمر فألقي في حيز وأجبع ثلاثة ، ثم بعث الى جعدر فأخرج وأعطي سيفاً ودلى عليه فمشى الى الأسد ، وأنشأ يقول :

أَيْتٌ وَآلِيَتْ فِي مَكَانِ ضَنْكَ كِلَاهِمَا ذُو أَنْفٍ وَمَخْكَ
وَصَوْلَةٌ فِي بَطْشَةٍ وَفَتْكَ إِنْ يَكْشِفُ اللهُ قِنَاعَ الشُّكِّ
وَظَفْرًا بِجُؤْجُؤٍ وَبِرِّكَ فَبُوا أَحْسَبُ مَنْزِلِ بَتْرِكَ
الذُّبُّ يَعْوِي وَالغُرَابُ يُبْكِي

حتى اذا كان منه على قدر رمح تظنى الأسد وزأر وحمى عليه ، فلتفاه جعدر بالسيف فضرب هامته فلتفها وسقط الأسد كأنه خيبة قوضتها الريح فأنشئ جعدر وقد تاطخ بدمه لشدة حمته الاسد عليه وكبر الناس ، فقال

الحجاج : يا جحدر ان احببت ان الحفك ببلادك واحسن صحبتك وجائزتك
فعلت بك وان احببت ان تقيم عندنا اقيمت فامنيننا فريضتك . قال :
اختر صحبة الامير ، ففرض له ولجماعة اهل بيته وانشا جحدر يقول :

يا جُمْلُ إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتِ بَسَاتِي	فِي يَوْمِ هَيْجٍ مُرْدِفٍ وَعَجَاجِ
وَتَقَدَّمِي لِلَّيْلِ أَرْسَفُ نَحْوَهُ	حَتَّى أُكَابِدَهُ عَلَى الْإِحْرَاجِ
جَهْمٌ كَانَ جَبِينَهُ لَمَّا بَدَا	طَبَقَ الرَّحَى مُتَفَجِّرُ الْأَثْبَاجِ
يَرُونُ بِنَاظِرَتَيْنِ نَحْسِبُ فِيهِمَا	مَنْ ظَنَّ خَالَهَا شِعَاعُ سِرَاجِ
شَنْ بَرَّاسِنُهُ كَانَ نُيُوبَهُ	زُرْقُ الْمَعَاوِلِ أَوْ شِدَاةُ زِجَاجِ
وَكَأَنَّمَا خِيطٌ عَلَيْهِ عِبَاءَةٌ	بَرَقَاهُ أَوْ خَلَقَ مِنْ الدِّبَاجِ
قِرْنَانٍ مُحْتَضِرَانِ قَدْ رَبَّتُهُمَا	أُمُّ الْمَنِيَّةِ غَيْرُ ذَاتِ نِتَاجِ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَيْدَتْ زِيَالَهُ	أَنْسِي مِنَ الْحَجَّاجِ لَسْتُ بِنَاجِ
فَمَشَيْتُ أَرْسَفُ فِي الْحَدِيدِ مُكَبَّلًا	

وَالنَّاسُ مِنْهُمْ شَامِتٌ وَعِصَابَةٌ	بِالْمَوْتِ نَفْسِي عِنْدَ ذَلِكَ أَنَا جِي
فَفَلَقْتُ هَامَتَهُ فِخْرًا كَأَنَّهُ	عَبَّرَاتُهُمْ لِي بِالْحُلُوقِ شَوَاجِي
ثُمَّ أَنْتَنَيْتُ فِي قَمِيصِي شَاهِدٌ	أَطْمُ تَقَوُّضَ مَائِلُ الْأَبْرَاجِ
أَيَقَنْتُ أَنِّي ذُو حِفَاطٍ مَاجِدٌ	مِمَّا جَرَى مِنْ شَاخِبِ الْأَوْدَاجِ
فَلَيْنَ مُؤَذِّنَتْ إِلَى الْمَنِيَّةِ عَامِدًا	مِنْ نَسْلِ أَمْلَإِكَ ذَوِي أَتَوَاجِ
	إِنِّي لَخَيْرِكَ بَعْدَ ذَلِكَ رَاجِي

عَلِمَ النِّسَاءُ بِأَنِّي لَا أُنْتَنِي ^(١) إِذْ لَا يَتَّقَنَ بِغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ

وحكي عن الطفيل بن عامر العمري قال : خرجت ذات يوم أريد الغارة وكنت رجلاً أحب الوحدة ، فبينما أنا أسير اذ ضللت الطريق الذي أردته فسرت أبا ما لا أدري أين أتوجه حتى نفذ زادي ، فبعلت آكل الحشيش وورق الشجر حتى أشرفت على الهلاك ويثتت من الحياة ، فبينما أنا أسير اذ أبصرت فطيع غم في ناحية من الطريق ، فمات إليها واذا شاب حسن الوجه فصيح اللسان فقال لي : يابن العم أين تريد ؟ فقلت : أردت حاجة لي في بعض المدن وما أظنني الا قد ضللت الطريق فقال : أجل ! ان بينك وبين الطريق مسيرة أيام فانزل حتى تستريح وتطمئن وتريح فرسك ، فنزلت فرسي لفرسي حشيشاً وجاء إلي بتريد كثير ولبن ثم قام الى كبش فذبحه وأجج ناراً وجعل يكبب لي ويطعمني حتى اكتفيت ، فلما جننا الليل قام وفرش لي وقال : قم فارم بنفسك فان النوم أذهب لثعبك ، وأرجع لنفسك ، فممت ووضعت رأسي فبينما أنا نائم اذ أقبلت جارية لم تر عيناى مثلها قط حسناً وجمالا ، ففعدت الى الفتى وجعل كل واحد منها يشكو الى صاحبه ما يلتمى من الوجد به ، فامتنع على النوم لحسن حديثها ، فلما كان في وقت السحر قامت الى منزلها ، فلما أصبحنا دنوت منه فقلت له : بمن الرجل ؟ قال : أنا فلان بن فلان ، فانتسب لي فعرفته فقلت له : ومحك ! ان أباك سيد قومه فما حملك وضمك نفسك في هذا المكان ؟ فقال : أنا والله أخبرك كنت عامقة لابنة عمي هذه التي رأيتها ، وكانت هي أيضاً لي وامقة ، فشاع خبرنا في الناس ، فأثبت عمي فسألته أن يزوجنيها فقال : يا بني والله ما سألت شططا وما هي بأثر عندي منك ، ولكن الناس قد تحدثوا بشي ، وعمك يكره المقالة القبيحة ، ولكن انظر غيرها في قومك حتى يقوم عمك بالواجب لك ، فقلت : لا حاجة لي فيها

(١) - المشهور في رواية البيت (ممن يغار على النساء حفيفة) البيت الخ .

ذَكَرَتْ وَتَحَمَلَتْ عَلَيْهِ بِجَهَاةٍ مِنْ قَوْمِي فَرَدَّهُمْ ، وَزَوْجَهَا رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ لَهُ رِيَاةٌ وَقَدْرٌ فَعَمَلَهَا إِلَى هُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى خَيْمٍ كَثِيرٍ بِالْقُرْبِ مِنْهَا - . فَضَاقَتْ عَلَيَّ الدُّنْيَا بِرُحْبِهَا ، وَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا ، فَلَمَّا رَأَيْتِي فَرِحَتْ فَرِحًا شَدِيدًا فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَجْرِي أَحَدًا أَيْ مِنْكَ بِسَبِيلٍ ، ثُمَّ أَنْبَتَ زَوْجَهَا وَقُلْتُ : أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا وَأَنَا خَائِفٌ ، وَقَدْ قَصَدْتُكَ لِمَا أَعْرِفُ مِنْ رَغْبَتِكَ فِي اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ، وَلِي بَصَرٌ بِالْفِعْلِ إِنْ رَأَيْتِ أَنْ تَعْطِيَنِي مِنْ غَنَمِكَ شَيْئًا فَأَكُونَ فِي جِوَارِكَ وَكَنْفِكَ فَافْعَلِي . قَالَ : نَعَمْ وَكِرَامَةٌ : فَأَعْطَانِي مِائَةَ شَاةٍ وَقَالَ لِي : لَا تَبْعُدِيهَا مِنَ الْحَيِّ ، وَكَانَتْ ابْنَةَ عَمِّي تَخْرُجُ إِلَى كُلِّ لَيْلَةٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي رَأَيْتِ وَتَنْصَرِفُ ، فَلَمَّا رَأَى حَسَنَ حَالِ الْغَنَمِ اعْطَانِي هَذِهِ فَرَضِيَتْ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا تَرَى قَالَ : فَأَقْبَتُ عِنْدَهُ أَبَايَا ، فَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ نَهَيْتِي وَقَالَ : يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ قُلْتُ لَهُ : مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : إِنْ ابْنَةَ عَمِّي قَدْ أَبْطَأَتْ وَلَمْ نَكُنْ هَذِهِ عَادَتَهَا وَوَاللَّهِ مَا أَظُنُّ ذَلِكَ إِلَّا الْأَمْرَ حَادِثٌ ، فَحَدَّثْتَنِي فَجَعَلْتِ أَحَدَهُ ، فَأَنْشَأُ يَقُولُ :

مَا بِالْأُمِّيَّةِ لَا تَأْتِي كَعَادَتِهَا هَلْ هَاجَهَا طَرَبٌ أَوْ صَدَّهَا شُغْلٌ
لَكِنَّ قَلْبِي لَا يَعْنيهِ غَيْرُكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ وَلَا لِي غَيْرُكُمْ أَمَلٌ
لَوْ تَعَلَّمِينَ الَّذِي بِي مِنْ فِرَاقِكُمْ لَمَّا اعْتَذَرْتِ وَلَا طَابَتْ لَكَ الْعَمَلُ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ قَدْ أَحْمَلْتِ بِي حُرْقًا تَكَادُ مِنْ حَرِّهَا الْأَنْحِشَاءُ تَنْفَصِلُ
لَوْ كَانَ عَادِيَةً مِنْهُ عَلَى جَبَلٍ لَزَلُ وَأَنْهَدُ مِنْ أَرْكَانِهِ الْجَبَلُ

فَوَاللَّهِ مَا اكْتَسَحَلُ بِغَمٍّ حَتَّى انْفَجَرَ عَمُودُ الصَّبْحِ ، وَقَامَ وَمَرَّ نَحْوَ الْحَيِّ فَأَبْطَأَ عَنِّي سَاعَةً ثُمَّ أَقْبَلَ وَمَعَهُ شَيْءٌ وَجَعَلَ يَبْكِي عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : هَذِهِ ابْنَةُ عَمِّي افْتَرَسَهَا السَّبْعُ فَأَكَلَ بَعْضَهَا وَوَضَعَهَا بِالْقُرْبِ مِنِّي فَأَرْجِعُ

والله قلبي ، ثم تناول سيفه ومر نحو الحلي فأبطأ هنيهة ثم أقبل الي وعلى عاتقه ليش كأنه حمار فقلت له : ما هذا ؟ قال : صاحبي قلت : وكيف علمته ؟ قال اني قصدت الموضع الذي أصابها فيه وعلمت أنه سيمود الى ما فضل منها ، فجاء قاصداً الى ذلك الموضع فعلمت أنه هو فحملت عليه فقتلته ، ثم قام فحفر في الأرض فأمرن وأخرج ثوبا جديداً وقال : يا أبا بني عامر اذا أنامت فأدرجني معها في هذا الثوب ، ثم ضعنا في هذه الحفرة وهل التراب واكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام :

كُنَّا عَلَى ظَهْرهَا وَالْمَيْشُ فِي مَهْلٍ وَالذَّهْرُ يَجْمَعُنَا وَالذَّارُ وَالْوَطَنُ
فَخَانَنَا الذَّهْرُ فِي تَفْرِيقِ الْفِتْنَا وَالْيَوْمَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَافِنُ

ثم التفت الى الأسد وقال :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْتُ الْمُدِلُّ بِنَفْسِهِ هُبَيْتَ أَمَدَ جَرَّتْ يَدَاكَ أَنَا حَزْنَا
وَعَادَرْتَنِي فَرْدًا وَقَدْ كُنْتُ آفَا وَصَيَّرْتَ آفَاقَ اللَّيْلَادِ لَنَا سِجْنَا
أَصْحَبُ دَهْرًا خَانَنِي بِفِرَاقِهَا مُعَاذَ إِلَهِي أَنْ أَكُونَ لَهُ خِدْنَا

ثم قال : يا أبا بني عامر اذا فرغت من شأننا فصح في أديار هذه الغم فردها الى صاحبها ، ثم قام الى شجرة فاخنتق حتى مات ، فقامت فأدرجتها في ذلك الثوب ووضعتها في تلك الحفرة ، وكتبت البيتين على قبرها ، ورددت الغم الى صاحبها وسألني القوم فأخبرتهم الخبر فخرج جماعة منهم فقالوا : والله لننحرن عليه تعظيما له ، فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة ونساع الناس فاجتمعوا اليها فنحرت ثلاثا ناقة ثم انصرفنا . وقيل لما كان من أمر عبد الرحمن بن الأشعث الكندي ما كان قال الحجاج اطلبوا لي

شهاب بن حرقة السعدي في الاسرى أو القتلى فطلوه فوجدوه في الاسرى فلما أدخل على الحجاج قال له : من أنت ؟ قال أنا شهاب بن حرقة قال : والله لأقتلك قال : لم يكن الامر بالذي يقتلني قال ولم ؟ قال : لان في خصا لا يرغب نيهن الامير قال وما هن ؟ قال : ضروب بالصفحة هزوم للكثيرة من الكتيبة أحمي الجار وأذب عن الذمار وأجود على العسر والبسر غير بطيء عن النصر قال الحجاج : ما أحسن هذه الخصال فأخبرني بأشد شيء مر عليك قال : نعم أصلح الله الامير

بينما أنا أسير * ومركبي وثير * في عصبة من قومي
 في ليلتي ويومي * يمضون كالأجادل * في الحرب كالبوائل
 أنا المطاع فيهم * في كل ما يليهم * فسرت خمساً عوما
 وبعد خمس يوما * حتى وردت أرضا * ما ان ترام عرضا
 من بلاد البحرين * عند طلوع العين * فهجتهم نهارا
 ألتمس الغارا * حتى اذا كان السحر * من بعد ما غاب القمر
 اذا أنا بعير * يقودها خفير * موقرة متاعا
 مقبلة سراعاً * فصلت بالسنان * مع سادة قتيان
 فسقتها جميعاً * أحشأ سريعاً * أريد رمل عاليج
 أمعج بالفناجج * أسير في الليالي * خرقاً بعيداً خالي
 وقد لقينا تعباً * وبعد ذلك نصبا * حتى اذا هبطنا
 من بعد ما صعدنا * عنت لنا بيدانه * قد كان فيها عانه
 رهيتها بقوسي * في مهمة كالترس * حتى اذا ما أمنت
 بالفقر ثم درمت * وردت قصرأ منهلاً * في جوفه طام حلا
 وعنده خبيمه * في جوفها نعيمه * عزيزة كالشمس
 فاقت جميع الانس * فهجت مهري عندها * حتى وقفت معها
 حيت ثم ردت * في لطف وحيت * فقلت يا لعوب

والطفلة العروب * هل عندكم قراء * إذ نحن بالعراب
 قالت نعم برحب * في لطف وقرب * أربح هنا عتيدا
 ولا تكن بييدا * حتى يحبك عار * ش الهلال زاهر
 فعبت عن قريب * في باطن الكتيب * حتى رأيت عامرا
 يحمل ليئا خادرا * على عتيق ساجح * كمثل طود الامسح

قال : وكان الحجاج متكئاً فاستوى جالساً ثم قال : ويحك دعنا من
 السبع والرجز وخذ في الحديث قال : نعم أيها الامير ثم نزل فربط فرسه
 وجمع حجارة وأوقد عليها ناراً وشق عن بطن الأسد وأقى مرافه في النار
 فجعلت أصاح الله الامير اسمع للحم الاسد نشيشاً فقالت له نعيمة قد جاءنا
 ضيف وانت في الصيد قال : فما فعل ؟ قالت ، ها هو ذاك بظهر الكتيب
 والحية ، فأومأت الي ، فأنبتها فاذا انا بعلام أمرد كأن وجهه دائرة القمر
 فربط فرسي الى جنب فرسه ودعاني الى طعامه فلم أمتنع من أكل لحم الاسد
 لشدة الجوع ، فأكلت انا ونعيمة منه بعضه وأنى الغلام على آخره ، ثم مال
 الى زق فيه خمر مشرب ، ثم سقاني فشربت ، ثم شرب الغلام حتى أتى
 على آخره فبينما نحن كذلك اذ سمعت وقع حوافر خيل اصحابي فقامت
 وركبت فرسي وتناوت رحي وصرت معهم ثم قلت : يا غلام خل عن
 الجارية ولك ما سواها فقال ويلك احفظ الملاحه ، قلت لا بد من الجارية
 وفارس نالتفت اليها وقال لها : قفي ، ثم قال : يا فتيان هل لكم في العافية ؟
 وإلا فارس وفارس فرز اليه رجل من اصحابي فقال له الغلام : من انت ؟
 فقلت أقاتل من لا أعرفه ولا اقاتل الا كذواً أعرفه . فقال : انا عاصم
 ابن كلبه السعدي فشد عليه وانشد يقول :

إِنَّكَ يَا عَاصِمُ بِي لَجَاهِلٌ إِذْ رُمْتَ أَمْرًا أَنْتَ عَنْهُ نَاكِلٌ
 إِنِّي كَمِيٌّ فِي الْخُرُوبِ بَاسِلٌ كَيْتٌ إِذَا أَصْطَكَ اللَّيْثُ بَازِلٌ

ضْرَابُ هَامَاتِ الْعِدَا مُنَازِلٌ قَتَالُ أَقْرَانِ الْوَعَى مُقَاتِلٌ

ثم طعنه فقتله وقال : يا فتيان هل لكم في العافية ؟ وإلا فارس وفارس فتقدم اليه آخر من اصحابي فقال له الغلام : من انت ؟ فقال : انا صابر ابن حرقه . فشد عليه وانشأ يقول :

إِنَّكَ وَالْإِلَهَ لَسْتَ صَابِرًا عَلَى سِنَانٍ يَجْلِبُ الْمَقَادِرَا
وَمُنْصُلٍ مِثْلَ الشَّهَابِ بَاتِرَا فِي كَفِّ قِرْمٍ يَمْنَعُ الْحَرَاثِرَا
إِنِّي إِذَا رُمْتُ أَمْرًا فَاسِيرَا يَكُونُ قِرْنِي فِي الْحُرُوبِ بَاثِرَا

ثم طعنه فقتله ثم قال : يا فتيان هل لكم في العافية ؟ وإلا فارس لفارس فلما رأيت ذلك هالني امره وأشفتت على اصحابي فقلت : احملوا عليه حملة رجل واحد فلما رأى ذلك أنشأ يقول :

الآنَ طَابَ الْمَوْتُ ثُمَّ طَابَا إِذْ تَطْلُبُونَ رَخْصَةً كَعَابَا
وَلَا نُرِيدُ بَعْدَهَا عِتَابَا

فركبت نعيمة فرسها وأخذت رحها فـ ما زال يجالدا ونعيمة حتى قتل منا عشرين رجلا فأشفقت على اصحابي فقلت : يا غلام قد قبلنا العافية والسلامة فقال : ما كان أحسن هذا لو كان اولا ونزلنا وسألنا . ثم قلت يا عامر بحق المبالغة من انت ؟ قال : انا عامر بن حرقه الطائي وهذه ابنة عمي ونحن في هذه البرية منذ زمان ودهر ما مر بنا إنسي غيركم ، فقلت : من أين طعامكم ؟ قال حشرات الطير والوحش والسباع : فمن أين شرابكم ؟ قال : الحمر أجلبها من بلاد البحرين كل عام مرة أو مرتين قلت : ان معي مائة من الابل موقرة متاعا فيخذ منها حاجتك فقال : لا أرب لي فيها ولو

أردت ذلك لكنك أقدر عليه فارتحلنا عنه منصرفين فقال الحجاج : الآت يا عدو الله طاب قتلك لغدرك بالفتى قال : كان خروجي على الامير أصلحه الله أعظم من ذلك فان عفا عني الامير رجوت أن لا يؤاخذني بغيره فأطلقه ووصله ورده الى بلده .

(ضده)

قال : دخل أبو زيد الطائي على عثمان بن عفان في خلافته وكان نصرانياً فقال له : بلغني أنك تجيد وصف الاسد . فقال له : لقد رأيت منه منظراً وشهدت منه مخبراً لا يزال ذكره يتجدد على قلبي قال : هات ما مر على رأسك منه قال : خرجت يا أمير المؤمنين في صياحة من أفناء قبائل العرب ذوي شارة حسنة ترمي بنا المهاري بأكسائها الفزوانيات ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عناق الخيل نريد الحارث بن أبي شمر الفسافي ملك الشام ، فأخروط بنا المير في حمارة القيظ حتى اذا عصبت الأفواه وذبلت الشفاه وشالت المياه وأذكت الجوزاء المعزاء وذاب الصيخد وصر الجندب وضائق العصفور الضب في وجاره قال قائلنا : أيها الركب غوروا بنا في دوح هذا الوادي فاذا واد كثير الدغل دائم الغلل شجراؤه مغنة وأطيانه مرنة ، فحططنا رحالنا بأصول دوحات كنهلات فأصبنا من فصلات المزود واتبعناها بالماء البارد ، فانا لنصف حر يومنا وبماطلته ومطاولته اذا صر أقصى الخيل أذنيه وفحص الأرض بيده ، ثم ما لبث أدن جال فهدمهم وبال فهمهم ثم فعل فعله الذي يليه واحد بعد واحد فتضعفت الخيل وتكعكعت الابل وتقهقرت البغال فمن نافر بشكاله وناهض بعقاله فعلنا أن قد أتينا وأنه السبع لا شك فيه ففزع كل امرئ منا الى سيفه واستله من جربانه ، ثم وقفنا له رزدقاً فأهبل يتطالع في مشيته كأنه مجنوب أو في

هجار اصدرة نحيط ولبلاعيمه غطيظ ولطرفه وميض ولارساغه نقيض كأنما
يحبط هشيا أو يظاً صريما ، واذا هامة كالجن وخذ كالمسن وعينان سجرا
وان كأنها سراجان يقدان وقصرة ربة ولذمة رهلة وكند مغبط وزور
مفرط وساعد مجدول وعضد مفتول وكف شثة البراسن الى مخالب
كاللحاجن ، ثم ضرب بذنبه فأرهج وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول . صقولة
غير مفولة وهم أشدق كالغار الاخرق ثم تملط أسرع بيديه وحفز وركيه
برعليه حتى صار ظله مثليه ، ثم أقعى فاقشعر ، ثم مثل فاكفهر ، ثم
تجهم فازبأر فلا والذي بيته في السماء ما اتقيناه بأول من أخ لنا من بني
فزارة كان ضخم الجزارة فوهسه ثم أقعصه ، ففضض منته وبقر بطنه . جعل
يلغ في دمه فذمرت أصحابي فبعد لأي ما استقدموا فكرر . قشعر الزبرة كأن
به شهباً حوليا ، فاخلمج من دوني رجلاً أعجر ذا حوايا فنفذه نفضة
فتزايلت أوصاله وانقطعت أوداجه ، ثم نهم فقرقر ، ثم زفر فزبر ، ثم
زار فجرجر ، ثم لحظ ، فوالله لملت البرق يتطـاير من تحت جفونه عن
شماله ويمينه ، فارتعشت الأيدي واصطكت الأرجل وأطت الاضلاع ،
وارتجت الاسماع ، وحلمجت العيون ، وانخزلت المتون ، ولحقت الظهور
البطون ، ثم ساءت الظنون وانشأ :

عَبَسُ شَمُوسٌ مُصَاخِدٌ خُنَابِسٌ

جَرِيٌّ عَلَى الْأَرْوَاحِ لِلْقِرْنِ قَاهِرٌ

مَنْبِعٌ وَيَجِي كَلٌّ وَاذِ يَوْمُهُ شَدِيدٌ أُصُولِ الْمَاضِعِينَ مُكَابِرٌ
مَرَاتِنُهُ شَتْنٌ وَعَيْنَاهُ فِي الدُّجَى كَجَمْرِ النَّضَافِيِّ وَجِهَهُ الشَّرُّ ظَاهِرٌ
يُدِلُّ بِأَنْبَابِ حِدَادٍ كَأَنَّهَا إِذَا قَاصَّ الْأَشْدَاقَ عَنْهَا خَنَاجِرٌ

فقال عثمان : اكف لا أم لك ، فلقد أرعبت قلوب المسلمين ، واقد
وصفته حتى كأنني انظر اليه يريد يوانبني . وقيل في السهل : وهو أجبن من
هجرس - وهو الفرد - وذلك انه لا ينام الا وفي يده حجر مخافة ان يأكله
الذئب . وحدثنا رجل بمكة قال : اذا كان الليل رأيت القروء تجتمع في
موضع واحد ، ثم تبيت مستطيلة واحداً في أثر واحد في يد كل واحداً
منهم حجر الا ترقد ، فيأتيها الذئب فيأكلها ، وان نام واحداً وسقط الحجر
من يده فزع فنجرك الآخر فصار قدماه بلا تزال كذلك طول الليل فتصبح
وقد صارت من الموضع الذي باتت فيه على ثلاثة أميال أو اكثر جنا ،
وقيل : هو أجبن من صافر ، وهو طائر يتعلق برجليه وينكس أمه ثم
يصفر ليلته كلها خوفاً من ان ينام فيؤخذ ، وقيل ايضاً : هو أجبن من
المنزوف ضرطاً وكان من حديثه ان نسوة من العرب لم يكن لهن رجل
فتزوجت واحدة منهن برجل كان ينام الى الضحى فاذا اتته ضربته وقلن له :
قم فاصطحب ويقول : لو اعادته نيهتني - اي خيل عاديه عليه غير
فادعها عنك - قلما رأيت ذلك فرحن وقلن : ان صاحبنا لشجاع ثم اقبلن وقلن :
تعاين تجربا فاتنه كما كره يأتينه فأيقظنه فقال : لو لعادية نيهتني ، فقلن له :
نواصي الخيل معك ، اجعل يقرل : الخيل الخيل ويضطر حتى مات فضرب
به المثل . وقيل لجان : ابزمت فغضب الامير عليك ، قال : يغضب
الامير وأنا حي أحب الي من ان يرضى وان ميت . وقيل لبعث الجون :
ما لك لا تغزو ؟ قال : والله اني لا بغض الموت عنى تراشي فكيف أمر
اليه ركناً ؟ قال : وقال الحجاج لحيد الارقط وقد أنشده قصيدة يصف
فيها الحرب : يا حميد هل فانات قط ؟ قال : لا أيها الامير إلا في انرم قال :
وكيف كانت وقعتك ؟ قال : انتهت وأنا منهزم ، وما قيل في ذلك
من الشعر :

ظَلَبْتُ تُشَجِّعُنِي هِنْدُ بِتَضْلِيلِ وَلِلشَّجَاعَةِ خَطْبٌ غَيْرُ مَجْهُولِ

هَاتِي شُجَاعًا لِغَيْرِ الْقَتْلِ مَضْرَعُهُ أَوْجِدْكَ أَلْفَ جَبَانٍ غَيْرِ مَقْتُولِ
 الْحَرْبُ تُوسِعُ مَنْ يَصِلِي بِهَا حَرْبًا يُتَمُّ الْعِيَالِ وَإِنْ كَالِ الْمَثَاكِيلِ
 اسْمُ الْوَعَى اشْتَقُّ مِنْ غَوْنَاءَ يُحْرِبُهَا
 يَمْدُونُ لِلْمَوْتِ كَالطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ
 وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ جَبْرِيلاً تَكَفَّلَ لِي

بِالنَّصْرِ مَا خَاطَرَتْ نَفْسِي لِجَبْرِيَلِ
 هَلْ غَيْرَ أَنْ يَمْدِرُونِي أَنِّي فَشِلُّ فَكُلُّ هَذَا نَعَمْ فَأَعْرُوا بِتَنْزِيلِي
 إِنْ أَعْتَذِرُ مِنْ فِرَارِي فِي الْوَعَى أَبَدًا
 كَانَ أَعْتِدَارِي رَدِيدًا غَيْرَ مَقْبُولِ
 اسْمِعْ أَخْبَرَكَ عَنْ بَأْسِي بِذِي سَلْبِ
 خِلَافَ بَأْسِ الْمَسَاعِيرِ الْجَبَاهِيلِ
 لَمَّا بَدَتْ مِنْهُمْ نَحْوِي عَشْوَزَةٌ
 شَاءَ تَشْرَعُ فِي عَرْضِي فِي طَوْلِي

فَقُلْتُ وَنَجَّكُمْ لَا تَرْتَهَبُوا جَلْدِي
 رُمِحِي كَسِيرٌ وَسَيْفِي غَيْرٌ مَقْتُولِ
 لَمَّا انْقَبَيْتُهُمْ طَوْعًا بِذَاتِ يَدِي وَأَنْصَفْتُ أَطْوِي الْأَفْلَامِ إِلَى مِيلِ
 اللَّهُ خَلَصَنِي مِنْهُمْ وَفَلَسَفَتِي حَتَّى تَخَلَّصْتُ مَخْضُوبِ السَّرَاوِيلِ

وقال آخر :

أَضَحَّتْ تُشَجِّبِي هِنْدٌ فُقَّتْ لَهَا إِنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطْبُ
لا والذي حَبَّتْ الْأَنْصَارُ كَمَبَّتَهُ

مَا يَشْتَهِي الْمَوْتَ عِنْدِي مَنْ لَهُ أَرْبُ

لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللَّهُ سَبِيلَهُمْ إِذَا دَعَعْتَهُمْ إِلَى حَوْمَاتِهَا وَثَبُّوا
وَأَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فِعَالَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعْجِبُنِي مِنْهُمْ وَلَا السَّلْبُ

وقال آخر :

يَقُولُ لِي الْأَمِيرُ بَغَيْرِ جُرْمٍ تَقَدَّمَ حِينَ حَلَّ بِنَا الْمِرَاسُ
فَهَالِي إِنْ أَطَعْتُكَ فِي حَيَاةٍ وَلَا لِي غَيْرَ هَذَا الرَّاسِ رَاسُ

٢٠ - محاسن حب الوطن

قال عمر بن الخطاب : لولا حب الوطن لخرب بلد السوء وكان يقال :
بحب الاوطان عمرت البلدان ، وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم
أرضه كما تتروح الأرض الجذبة ببيل المطر . وقال بقراط : يداوى كل
عليل بمقاير أرضه فان الطبيعة تنزع الى غذاؤها ، وبما يؤكد ذلك قول
أعرابي وقد مرض بالحضر فقيل له : ما تشتهي فقال : مخيضاً رويّاً وضياً
مشوباً ، وقد قيل : أحق البلدان بنزاعك إليها بلد أمصك حلب رضاعه ،
وقيل : احفظ أرضاً أرسخك رضاعها ، وأصلحك غذاؤها واراع حمى
اكنتفك فناؤه . وقيل : لا تشك بلداً فيه قبائلك . وقيل من علامة
الرشد أن تكون النفس الى أوطانها مشتاقة والى مولدها تواقفة . وحدثنا
بعض بني هاشم قال : قلت لأعرابي من أين أقبلت ؟ قال : من هذه

البادية ، قلت : وأن تسكن منها ؟ قال : مسافط الحمى حمى خريبة ما ان لعمر الله أريد بها بدلا ولا أبتغي عنها حولا حقتها الفلوات فلا يملوح ماؤها ولا تحمى تربتها ليس فيها أذى ولا قذى ولا وعك ولا موم ونحن بأرفه عيش وأوسع عيشة وأسبغ نعمة قلت : بما طعامكم ؟ قال ؟ يخ يخ الهبيد والضباب واليرابيع مع القنأذ والحيات وربنا والله أكلنا القمد واشتوينا الجرد ولا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً ، فالحمد لله على ما رزق من السعة وبسط من حسن الدعاء . وقيل لأعرابي كيف تصنع بالبادية اذا انتصف النهار واتعمل كل شيء ظه ؟ فقال : وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرفا كأنه الجمان ثم ينصب عصاه ويلقي عليه كساه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في ايران كسرى . وقال بعض الحكماء : عسرك في بلدك خير من يسرك في غربتك . وقيل لأعرابي ما الغبطة قال الكفاية ولزوم الاوطان والجلوس مع الاخوان ، وقيل : فما الذل ؟ قال : التنقل في البلدان والتنهي عن الاوطان ، وقال بعض الأدباء : الغربة ذلة رائدة قلة ، وقال الآخر : لا تهضن عن وطنك ووكرك فتمتصك الغربة وتصمتك الوحدة . وشبهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي تكل أبويه فلا أم تراه ولا أب يحذب عليه . وكان يقال : الغريب عن وطنه ومحل رضاعه كالفرس الذي زايل أرضه وفقد شربه فهو ذاو لا يشرب وذابل لا ينضج ، وكان يقال : الجالي عن مسقط رأسه كالعير الناشر عن موضعه الذي هو لكل رام رمية ، وأحسن من ذلك وأصدق قول الله عز وجل « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء » وقال تعالى « ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » فقرن جل ذكره الجلاء عن الوطن بالقتل ، وقال تقدست اسماءه « وما لنا ألا أن نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » فجعل القتال بازاء الجلاء ، قال صلى الله عليه وسلم (الخروج عن الوطن عقوبة) وبما قيل في ذلك من الشعر :

إِذَا مَا ذَكَرْتُ التَّنْعَرِ فَاصْتِ مَدَامِعِي

وَأُضْحِي قُوَادِي نَهْبَةً لِلِهَامِ

حَنِينًا إِلَى أَرْضِ بِهَا خَضْرَاءُ شَارِبِي
وَأَلْطَفُ قَوْمٍ بِالْفَتَى أَهْلُ أَرْضِهِ
وَحُلَّتْ بِهَا عَنِّي عُقُودُ التَّمَائِمِ
وَأَرْعَاهُمْ لِلْمَرْءِ حَقَّ التَّقَادُمِ

وقال آخر :

أَحِنُّ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ وَحَاجَتِي
وَمَا نَظَرِي مِنْ تَحْوٍ تَجِدُ بِنَافِعِي
خِيَامٌ بِنَجْدِ دُونَهَا الطَّرْفُ يَقْصُرُ
أَجَلٌ لَا وَلكِنِّي عَلَى ذَاكَ أَنْظُرُ
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَظْرَةٌ ثُمَّ عِبْرَةٌ
أَمِينُكَ يَجْرِي مَأْوَها يَتَحَدَّرُ
مَتَى يَسْتَرِحُ قَلْبٌ فَأَمَّا مُجَازِرُهُ
حَزِينٌ وَإِمَّا نَازِحٌ يَتَذَكَّرُ

وقال آخر :

نَقَلَ قُوَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى

مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَا لَفَّهُ الْفَتَى
وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزَلِ

وقال ابن أبي السرح قرأت على حائط بيتي شعروها :

إِنَّ الْغَرِيبَ وَلَوْ يَكُونُ بِبِلْدَةٍ
يَجِبِي إِلَيْهِ خَرَّاجُهَا لَغَرِيبٌ
وَأَقْلُ مَا يَلْقَى الْغَرِيبُ مِنَ الْأَذَى
أَنْ يُسْتَدَلَ وَأَنْ يُقَالَ كَذُوبٌ

وقال : وقرأت على حائط بمسكرم مكرم :

إِنَّ الْغَرِيبَ إِذَا يُنَادِي مَوْجِعًا عِنْدَ الشَّدَائِدِ كَانَ غَيْرَ مُجَابٍ
فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْغَرِيبِ فَكُنْ لَهُ مُتَرَحِّمًا لِتَبَاعُدِ الْأَحْبَابِ

وقال : وقرأت على حائط ببغداد :

غَرِيبُ الدَّارِ لَيْسَ لَهُ صَدِيقٌ جَمِيعُ سُؤَالِهِ أَزِينُ الطَّرِيقِ
تَعَلَّقَ بِالسُّؤَالِ لِكُلِّ شَيْءٍ كَمَا يَتَعَلَّقُ الرَّجُلُ الْفَرِيقِ
فَلَا تَجْزَعُ فَكُلُّهُ فَتَى سِيَاتِي عَلَى حَالَانِهِ سَعَةٌ وَضِيقُ

قال : ووجدت على حائط باب مكتوبا :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا خَيْرَ مَنْزِلٍ رَحَلْنَا وَخَلَفْنَاكَ غَيْرَ ذَمِيمٍ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا فَمَا أَحَدٌ مِنْ رَبِّهَا بِسَلِيمٍ

وقال آخر :

وَإِنْ اغْتَرَابَ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَلَا فَاقَةَ يَسْمُو لَهَا كَعَجِيبُ
فَحَسْبُ أَمْرِيءُ ذُلًّا وَأَوْ أَدْرَكَ الْغِنَى

ونال ثراء أن يُقال غريبُ

وقال آخر :

إِنَّ الْغَرِيبَ وَإِنْ يَكُنْ فِي غِبْطَةٍ لِمُعَذِّبٍ وَفَوَادُهُ مُحْزُونُ
وَمَتَى يَكُونُ مَعَ التَّغَرُّبِ عَاشِقًا وَمُفَارِقَايَرَبٍ كَيْفَ يَكُونُ

وقال آخر

إِنَّ الْغَرِيبَ ذَلِيلٌ أَيْنَمَا سَلَكَ
إِذَا تَفَنَّى سَحَابُ الْأُنْبُكِ فِي غُصْنِ

وقال آخر :

سَلِّ اللَّهُ الْإِيَابَ مِنَ الْمَغِيبِ
وَسَلِّ الْحُزْنَ مِنْكَ بِحُسْنِ ظَنِّ

وقال آخر :

تَصَبَّرْ وَلَا تَعْجَلْ وَوَقِّتْ مِنَ الرَّدَى
فَقُلْتُ وَفِي قَلْبِي جَوَى لِفِرَاقِهَا

وقال آخر :

أَعَاذِلَ حُبِّي لِلْغَرِيبِ سَجِيَّةً
لَنْ تَقُلْتُ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ أَنْ مَضَوْا
بَلَى مُغْبَرَاتِ الشُّوقِ أَضْرَمْتَ الْحَشَا

وقال آخر :

إِذَا اغْتَرَبَ الْكَرِيمَ رَأَى أُمُوراً
مُجَلَّةً يُشِيبُ لَهَا الْوَلِيدُ

وقال آخر :

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنْ يَكُونَ
تَ كَذَا تَفَرَّقْنَا سَرِيعاً

نَجَلَ الزَّمَانَ عَلِيَّ أَنْ نَبَقَى كَمَا كُنَّا جَمِيعًا
فَأَحْلَنِي فِي بَلَدَةٍ وَأَحْلَكَ الْبَلَّ الشَّيْمَا
قَدْ كُنْتُ أَنْتَظِرُ الْوَصَا لَ فَصِرْتُ أَنْتَظِرُ الرَّجُوعَا

وقال آخر :

نَسِيمُ الْخُزَامِي وَالرِّيَّاحُ الَّتِي جَرَتْ بِنَجْدٍ عَلَى نَجْدٍ تُذَكِّرُنِي نَجْدًا
أَتَانِي نَسِيمُ السَّدْرِ طَيِّبًا إِلَى الْحَمَى فَذَكَّرُنِي نَجْدًا فَقَطَّعَنِي وَجْدًا

وفي معناه [الدعاء للمسافر] بأعين طالع وأسر طائر ولا كبابك
مركب ، ولا است بك مذهب ، ولا تعذر عليك مطلب . سهل الله لك السير
وإنا لك القصد وطوي لك البعد بمسرة الظفر وكرامة المدخر . على الطائر
الميسون والاكوكب السعدالي حيث تتناصر أيدي الحوادث عنك وتتقاعس
نواب الأيام دونك بسهولة المطلب ونجاح المنقلب . كان الله لك في سفرك
خفياً وفي حضرك ظهراً بسعي نجيح وأوب سريع . بصرك الله محلك وهداك
رحلك وسر بأوبتك اهلك ولا ذات آمنة مقبياً وظاعنا بأسعد جد وأنجح
مطلب وأسر منقلب وأكرم بدأة وأحمد عاقبة . اشخص مصحوباً بالسلامة
والكلاءة آتياً بالنجح وانعطية محوطاً فيما تطالعه بالعناية والشفقة في ودائع
الله وكنفه وجواره وستره وامانه وحفظه وذمامه . وقال رجل للنبي صلى
الله عليه وسلم : اني اريد سفرأ ، فقال : في كنف الله وستره زودك الله
التقوى ووجهك الى الخير حيثما كنت استخلف الله فيك واستخلفه
منك) ، وقال الشاعر

فِي كَنْفِ اللَّهِ وَفِي سِتْرِهِ مَنْ لَيْسَ يَخْلُدُ الْقَلْبُ مِنْ ذِكْرِهِ

وقال آخر :

إِرْحَلْ أَبَا بَشْرٍ بِأَيْمَنِ طَائِرٍ وَعَلَى السَّعَادَةِ وَالسَّلَامَةِ فَانزِلِ

(ضده)

قال بعض حكماء الفلاسفة : اطلبوا الرزق في البعد فانكم ان لم تكسبوا
مالا غنتم عقلا كثيراً . وقال آخر : لا يأنف الوطن الا ضيق العطن .
وقيل لا توحشك الغربة اذا آنتك النعمة . وقيل : النقيير في الاهل
مصروم والغني في الغربة موصول . وقال : لا تستوحش من الغربة اذا
آنت مصروما . وقيل : أوحش قومك ما كان في إيجاشهم أنسك ،
واهجر وطنك ما نبت عنه نفسك ، وأنشد :

لَا يَمْنَعُنْكَ خَفْضُ الْعَيْشِ فِي دَعَاةٍ زُرُوعُ نَفْسٍ إِلَى أَهْلِ وَأَوْطَانِ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَّتْ بِهَا أَهْلًا بِأَهْلِ وَجِيرَانًا بِجِيرَانِ

وقال آخر :

نَبَتَ بِكَ الدَّارُ فِيسِرٍ آمِنًا فَلِلْفَتَى حَيْثُ انْتَهَى دَارُ

وفي معناه (الدعاء على المسافر) بالبارح الاشأم ، والسائح الاعضب ،
والصرد الاكسد ، والسفر الابد . لا استمرت به مطيته ولا استتبت به
أمنيته ، ولا تراخت منيته . بنحس مستمر وعيش مر . لا قري اذا
استضاف ولا أمن اذا خاف . ويقال ان عليا عليه السلام لما اتصل به
مسير معاوية قال : لا أرشد الله قائده ولا أسعد رائده ولا أصاب غيئاً
ولا سار الا ريئاً ولا رافق الا ليئاً أبمده الله وأسحقه وأوقد على أثره
وأحرقه لا حظ الله رحله ولا كشف محله ولا بشر به أهله لا زكي له
مطلب ولا رجب له مذهب ولا يسر له مراما لا فرج الله له غمه ولا

سري همه لا سقاها الله ماء ولا حل عقده ولا أوري زنده جعله الله سفر
الفراق وعصى الشقاق ، وأنشد :

بأنكدر طائر وبشرٌ قال
بجد الشد حيث يكون مني
غريباً تمتطي قدميك دهرًا
ولأبعد غاية وأخس حال
كما بين الجنوب إلى الشمال
على خوف تحين إلى العيسال
وقال آخر :

إذا استقلت بك الركاب
وحيث لا تبتغي فلاحاً
وحيث ما دزت فيه يوماً
وقال آخر :

فسر بالشحوس إلى بلدة
ولا تدرع الأرض من زهرة
تغيض البحار بها مرة
ولأبعد فيها ولا ترزق
ولا يثمر الشجر المورق
ويكدي السحاب بها المنفق
وقال آخر :

أدنى خطاك الهند والذين
بجيت لا يانس مستوحش
تهوي بك الأرض إلى بلدة
وكل نحس بك مقرون
وحيث لا يفرح محزون
ليس بها ماء ولا طين

٢١ - محاسن الدهاء والحيل

المهشم بن الحسن بن ميمون قال : قدم شيخ من خزاعة أيام المختار فنزل على عبد الرحمن بن ابان الخزاعي ، فلما رأى ما تصنع سوقة المختار من الاعظام جعل يقول : يا عباد الله أبا المختار يصنع هذا والله لقد رأيتك يتتبع الاماء بالحجاز فبلغ ذلك المختار فدعا به وقال : ما هذا الذي بلغني عنك . قال : الباطل فأمر بضرب عنقه ، فقال : لا والله لا تقدر على ذلك قال : ولم ؟ قال : اما دون ان انظر اليك وقد هدمت مدينة دمشق حجراً حجراً وقتلت المقائلة وسيت الذرية ثم تصليني على شجرة على نهر والله اني لأعرف الشجرة الساعة واعرف شاطئ ذلك النهر ، فالتفت المختار الى اصحابه فقال لهم : ان الرجل قد عرف الشجرة فحبس حتى إذا كان الليل بعث اليه فقال : يا اخا خزاعة أو مزاح عند القتل ؟ قال : انشدك الله ان اقبل ضياعاً قال : وما تطلب ههنا ؟ قال : اربعة آلاف درهم اقتضي بها ديني قال : ادفعوها اليه وإياك ان تصبح بالكوفة فقبضها وخرج عنه . وعنه قال كان سراقاً البارقي من طرفاء اهل الكوفة فأسرته رجل من اصحاب المختار فأتى به المختار فقال له : أسرك هذا ؟ قال سراقاً : كذب والله ما أسرنى إلا رجل عليه ثياب بيض على فرس ابلق . فقال المختار : إلا ان الرجل قد عاين الملائكة خلوا سبيله . فلما افلت منه انشأ يقول :

أَلَا أْبْلَغُ أَبَا إِسْحَاقَ أَنِّي رَأَيْتُ الْبُلُقَ دُهُمًا مُصَمَّتًا
أَرَى عَيْنِي مَا لَمْ تَرَاهُ كَلَانًا عَالِمًا بِالرُّهَاتِ
كَفَرْتُ بِوَحْيِكُمْ وَجَعَلْتُ نَذْرًا عَلَيَّ قِتَالِكُمْ حَتَّى الْمَاتِ

وعنه قال : كان الاحوص بن جعفر الخزومي يتغدى في دير اللج في يوم شديد البرد معه حمزة بن بيض وسراق البارقي فلما كان على ظهر الكوفة وعليه

الوبر والحز وعليها الأطهار قال حمزة لسراقة : اين يذهب بنا في البرد ونحن في اطهار؟ قال : سأ كفيكه فيينها هر يسير اذ دنا منهم راكب .قبل فحرك سراقة دابته نحوه وواقفه ساعة ولحق بالاحوص فقال له : ما خبرك الراكب؟ قال : زعم ان خوارج خرجت بالقطنطانة . قال : بعيد قال : ان الخوارج تسير في لية ثلاثين فرسخاً واكثر . وكان الاحوص احد الجبناء فثنى رأس دابته وقال : ردوا طعامنا تنغدى في المنزل ، فلما حاذى منزله قال لأصحابه : ادخلوا ومضى الى خالد بن عبد الله القسري فقال : خرجت خارجة بالقطنطانة . فنادى خالد في العسكر فجههم ووجه خيلا تركض نحو اللج لتعرف الخبر فأعلموه انه لا اصل للخبر . فقال للاحوص : من اعلمك بهذا؟ قال : سراقة قال : واين هو؟ قال : في منزلي ، فارسل اليه من اتاه به قال : انت اخبرته عن الحارثة قال : ما فعلت اصلاح الله الامير ، قال له الاحوص : انكذبني بين يدي الامير . قال خالد ويحك اصدقني قال : نعم اخرجنا في هذا البرد وقد ظاهر الحز والوبر ونحن في اطهارنا هذه فأحببت ان ارده ، فقال له خالد : ويحك وهذا مما يتلاعب به ، وسراقة هذا هر القائل :

قالوا سُراقةٌ عَنِينٌ فقلتُ لهمُ اللهُ يَعْلَمُ أَنِي غَيْرُ عَنِينٍ
فانْ ظَنَنْتُمْ بِي الشَّيْءَ الَّذِي زَعَمْتُمْوا فَقَرَّبُونِي مِنْ بَدْتِ ابْنِ يَاسِينِ

وذكروا : ان شيب بن يزيد الخارجي مر بسلام مستنقع في الفرات فقال له : يا غلام اخرج اني اسألك ، فعرفه الغلام فقال له : اني اخاف اقامن انا اذا خرجت حتي البس ثيابي ، قال : نعم ، فخرج وقال : والله لا البسها اليوم ، فضحك شيب وقال : خدعتني ورب الكعبة ووكل به رجلا من اصحابه يحفظه الا يصيبه أحد بمكروه قال : وكان رجل من الخوارج يقول :

فمنا يزيدُ والبطينُ وقعبُ ومنا اميرُ المؤمنينِ شبيبُ

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان فأمر بطلب قائله فأتي به ،
فلما وقف بين يديه قال : انت القائل * ومنا امير المؤمنين شيب
قال لم أقل هكذا يا امير المؤمنين انما قلت * ومنا امير المؤمنين شيب *
فضحك عبد الملك وامر بتخلية سيده فتخلص بدهائه وفطنته لازالة الاعراب
من الرفع الى النصب . وزعموا ان عمرو بن معدني كرب هجم في بعض
غاراته على سابة جمية منفردة وأخذها ، فلما امعن بها بكثت فقال : ما بيكيك
قالت : ابيك افراقي بنات عمي هن مثلي في الجمال وأفضل مني خرجت
معهن فاقطعنا عن الحي قال : وأندهن ؟ قالت خلف ذلك الجبل ووددت
اذ أخذتني انك أخذتني معي فامض الى الموضع الذي وصفته ، فمضى الى
هناك فلما شعر بشيء حتى هجم على فارس شاك في السلاح فعرض عليه
المصارعة فصارعه المارس ثم عرض عليه ضرباً من المناوشة فغلبه الفارس في
كلها . فسأله عمرو عن اسمه فاذا هو ربيعة بن مكدم الكناني فاستنقذ الجارية .
وعن عدلاء ان بخارق بن عفان ومعن بن زائدة تلقيا رجلاً ببلاد الشرك ومعه
جارية لم يريا احسن منها شباهاً وجمالاً فصاحا به خر عنها ومعه قوس فرمى
بها وهابا الاقدام عليه ، ثم عاد ليرمي فانقطعت وتره وسلم الجارية وأسند
في جبل كان قريباً منه فابتدراه وأخذوا الجارية وكان في اذنها قرط فيه درة
فانتزعاه من اذنها ، فقالت : وما قدر هذه لو رأيتا درتين معه في قلنسوته
وفي القلنسرة وترقد أعده ونسبه من الدهش . فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر
فأخذه وعقده في قوسه فوليا ليست لها همة الا التجاء وخلياً عن الجارية ،
وعن الهيثم قال : وكان الحجاج حشوداً لا يتم له ضيعة حتى يفسدها فوجه
عمارة بن تميم اللخمي الى عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث فظفر به وصنع ما
صنع ، ورجع الى الحجاج بالفتح ولم ير منه ما أحب وكره منافوته وكان
عاقلاً رفيقاً فجعل يفتق به ويقول : ايها الامير اشرف العرب انت من شرفته
شرف ، ومن وضعته انضع ، وما ينكر ذلك لك مع رفيقك ويتنك مشورتك
ورأيك ، وما كان هذا كله الا بصنع الله وتديبيرك ، وليس احد اشكر

لبلائك مني ومن ابن ائمت ، وما خطرته حتى عزم الحجاج على المسير الى
عبد الملك فاخرج عمارة معه وعمارة يومئذ على أهل فلسطين أمير ، فلم يزل
يلطف بالحجاج في مسيره ويعظه حتى قدموا على عبد الملك ، فلما قامت الخطباء
بين يديه وأثنت على الحجاج قام عمارة فقال : يا امير المؤمنين سل الحجاج
عن طاعتي ومناصحتي وبلائي ، قال الحجاج : يا المؤمنين صنع وصنع ومن
بأسه ونجدته وعفاه كذا وكذا وهو أمين الناس نقيبة واعلمهم بتدبير وسياسة
ولم يبق في الثناء عليه غاية ، فقال عمارة : قد رضيت يا امير المؤمنين ،
قال نعم فرضي الله عنك حتى قالها ثلاثة في كلها يقول قد رضيت ، قال
عمارة : فلا رضي الله عن الحجاج يا امير المؤمنين ولا حفظه ولا عافاه فهو
والله السبيء التدبير الذي قد اسد عليك أهل العراق وأب الناس عليك
وما اتيت الا من قبله ومن قلة عقله وضعف رأيه وقلة بصره بالسياسة فلك
والله امثالها ان لم تعزله ، فقال الحجاج : مه يا عمارة ، فقال : لاه ولا
كرامة كل امرأة له طالق وكل مملوك له حر ان سار تحت راية الحجاج
أبدأ ، قال : اني اعلم انه ما خرج هذا منك الا عن معتبة ولك عندي
العنبي وأرسل اليه ، فقال : ما كنت اظن ان عقلك على هذا ارجع اليه
بعد الذي كان من طعني عليه وقولي عند امير المؤمنين ما قلت فيه : لا
ولا كرامة .

(ضده)

قيل في المثل : هو أحق من عجل ، وهو عجل بن لجم ، وذلك انه
قيل له : ما سميت فرسك ؟ فقأ عينه وقال : سميت الأعرور ، فقال
الشاعر فيه :

رَمَتْنِي بِنُو عَجَلٍ بَدَاءَ أَيِّهِمْ وَأَيُّ أَمْرِي فِي النَّاسِ أَحَقُّ مِنْ عَجَلٍ
أَلَيْسَ أَبُوهُمْ عَارَ عَيْنِ جَوَادِهِ فَصَارَتْ بِهِ الْأَمْثَالُ تُضْرَبُ فِي الْجَهْلِ

وقيل : هو أحمق من هبنقة ، وبلغ من حمقه أنه ضل له بعير فجعل ينادي : من وجد بعيري فهو له ، فقيل له : ولم تنشده ؟ قال وأين حلاوة الظفر والوجدان ؟ . واختصمت إليه الطفاوة وبنو راسب في رجل ادعى هؤلاء وهؤلاء فيه فقالوا : قد رضينا بحكم أول طالع يطلع علينا فطلع عليهم هبنقة فلما رأوه قالوا : انظروا بالله من طلع علينا ؟ فلما دنا قصوا عليه القصة فقال هبنقة : الحكم في هذا بين ، اذهبوا به الى نهر البصرة فألقوه فيه ، فان كان راسيا رصب ، وان كان طفاوياً طفا . فقال الرجل : لا أريد أن أكون من أحد هذين الحين ولا حاجة لي في الديوان ، وقيل : هو أحمق من دغة وهي مارية بنت مفرج تزوجت في بني العنبر وهي صغيرة ، فلما ضربها المخاض ظنت أنها تريد الخلاء فخرجت تبرز ، فصاح الولد ، فجاءت منصرفة ، فصاحت : يا أماء هل يفتح الجعرفاه ؟ قالت : نعم ، ويدعو أباه ، فسبت بنو العنبر بذلك ، فقيل : بنو الجعراء ، وقيل : هو أحمق من باقل ، وكان اشترى عنزا بأحد عشر درهماً فسئل بكم اشتريت العنز ؟ ففتح كفيه وفرق أصابعه وأخرج لسانه ، يريد أحد عشر درهماً فعيروه بذلك ، قال الشاعر :

يلومونَ في حُحمِهِ بِأَقِلِّا كَأَنَّ الحِمَاقَةَ لَمْ تُخَلِّقْ
فلا تُكثِرُوا العَذْلَ في عِيهِ فَاللَّصَّتْ أَجْمَلُ بِالأموقِ
خُرُوجُ اللِّسانِ وَفَتْحُ البَنانِ أَحَبُّ اليَنا مِنَ المَنطِقِ
وما قيل فيه أيضاً من الشعر :

بِأَنَّ بَتَ العَقْلِ كَمْ عَازِنَتَ ذَاحِمْقِ الرِّزْقُ أَغْرَى بِهِ مِنَ لَازِمِ الجَرَبِ
فإنَّني وَاجِدٌ في النَّاسِ واحِدَةٌ الرِّزْقُ أروغُ شَيءٍ عَن ذَوِي الأَدبِ
وَخَصْلَةٌ لَيْسَ فيها مَنٌ مُخَالَفِني الرِّزْقُ وَالنُّوكُ مُقْرُونانِ في سَببِ

وقال آخر :

أرى زَمَانًا نَوَّكَادُ أَسْعَدُ خَلْقَهُ على أَنَّهُ يَشْقَى بِهِ كُلِّ عَاقِلٍ
عَلَا فَوْقَهُ رِجَالَهُ وَالرَّأْسُ تَحْتَهُ فَكَبَّ الْأَعَالِي بَارِ تَفَاعِ الْأَسَافِلِ

وقال آخر :

كَمْ مِنْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِي تَقَلُّبِهِ مُهَذَّبِ اللَّأْبِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرَفٌ
وَمِنْ ضَعِيفٍ ضَعِيفِ الْعَقْلِ مُخْتَابِ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَنْتَرِفُ

٢٢ - محاسن المفاخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) ،
وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد بيننا من شعر :

إِنِّي امْرُؤٌ حَمِيرِيٌّ حِينَ تَذُنُّبِي لَا مِنْ رَيْبَةٍ آبَائِي وَلَا مُضَرِّ

فقال له : ذلك الأم لك وأبعد عن الله ورسوله ، وقال بعضهم :

إِذَا مُضَرُّ الْحَمْرَاءِ كَانَتْ أُرُومِي وَقَامَ بَنَصْرِي خَازِمٌ وَابْنُ خَازِمِ
عَطَّتْ بِأَنْفِ شَامِيخٍ وَتَنَاوَأَتْ يَدَايَ الشُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

شعيب بن ابراهيم عن علي بن زيد عن عبد الله بن الحارث عن عبد المطلب
ابن ربيعة قال : مر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بنفر من قريش
وهم يقولون انها محمد في اهلك مثل نخلة نبتت في كناسة ، فبلغ ذلك رسول
الله صلى الله عليه وسلم فوجد منه ، فخرج حتى قام فيهم خطيباً ثم قال :
(ايها الناس من انا ؟ قالوا : انت رسول الله قال : افأنا محمد بن عبد الله بن
عبد المطلب بن هاشم ان الله عز وجل خلق خلقه فجعلني من خير خلقه ،

ثم جعل الخلق الذي انا منهم فريقين فجعلني من خير الفريقين من خلقه ،
ثم جعل الخلق الذي انا منهم شعوباً فجعلني في خيرهم شعباً ، ثم جعلهم -م
بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم والداً ، واني
مباه لكم قم يا عباس فقام عن يمينه ، ثم قال : قم يا سعد فقام عن يساره
فقال : يقرب امرؤ منكم عما مثل هذا وخالا مثل هذا) وحدثنا سنان
ابن الحسن التستري عن اسماعيل بن مهران العكري عن ابان بن عثمان
عن عكرمة عن ابن عباس رحهما الله تعالى عن عبي بن ابي طالب كرم
الله وجهه قال : لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعرض نفسه
على القبائل خرج وانا معه وابو بكر وكان عالماً بأنساب العرب ووقفنا على
مجلس من مجالس العرب عليهم الوقار والسكينة ، فتقدم ابو بكر فسلم
عليهم فردوا عليه السلام فقال : من اقرم ؟ فقالوا من ربيعة قال : من هاتها
ام لهازها ؟ قالوا : بل من هاتها العظمى قال : واي هاتها ؟ قالوا : ذهل
قال : ذهل الاكبر ام ذهل الاصغر ؟ قالوا : بل الاكبر قال فكنتم عرف
الذي كان يقال لاجر بوادي عوف قالوا : لا قال : امكنكم بسطام بن
قيس صاحب اللواء ومنتهى الاحياء ؟ قالوا : لا قال : امكنكم جاس بن
مرة حامي الدمار ومانع الحار ؟ قالوا : لا قال : امكنكم الزدلف صاحب
العمامة ؟ قالوا لا ، قال : انانتم اخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا ، قال :
ادانتم اصهار الملوك من لحم ؟ قالوا : لا ، قال : فنستم من ذهل الاكبر
اذا انتم من ذهل الاصغر فقام اليه اعرابي غلام حسن بقل وجهه فأخذ
بزام ناقتة ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقتة يسمع مخاطبته ،
فقال :

لنا على سائلنا أنت نساله والعبء لا تعرفه أو تحميه

يا هذا انك قد سألنا أي مسألة شئت فلم نكنتمك شيئاً فأخبرنا بمن
انت ؟ فقال ابو بكر : من قريش . فقال : يخ يخ أهل الشرف والرياسة

فأخبرني من أي قريش أنت؟ قال من بني تميم بن مرة، قال: أومنكم قصي ابن كلاب الذي جمع القبائل من مهر فكان يقال له مجمع؟ قال أبو بكر: لا، قال: أومنكم هاشم الذي يقول فيه الشاعر:

عَمَرُوا الْعُلَى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالَ مَكَّةَ مُسْتَنْبِتُونَ عِجَافَ

قال أبو بكر: لا، قال: أومنكم شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء في الليلة الداجية مطعم الطير؟ قال: لا، قال: أومن المضيفين بالناس أنت؟ قال: لا، قال: أومن أهل الرعدة أنت؟ قال: لا، قال: أومن أهل السقاية أنت؟ قال: لا، قال: أومن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا، قال: أما والله لو شئت لأخبرتك لست من أشرف قريش فاجتذب أبو بكر زمام ناقته منه كهيفة المفضب، فقال الاعرابي:

صَادَقَ دَرَّ السَّيْلِ دَرٌّ يَدْفَعُهُ فِي هَضْبَةٍ تَرَفُّعُهُ وَتَضَعُهُ

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال علي كرم الله وجهه، فقلت: يا أبا بكر لقد وقعت من هذا الاعرابي على باقة، قال: أجل! يا أبا حسن ما من طامة الا وفوقها طامة وان البلاء موكل بالمنطق. قال: وأني الحسن ابن علي رضي الله عنها معاوية بن أبي سفيان وقد سبقه ابن عباس رحمه الله فأمر معاوية بانزاله، فبينما معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزباد المدعي الى أبي سفيان يتعاورون في قديمهم ومجدهم إذ قال معاوية: قد أكثرتم الفخر ولو حضركم الحسن بن علي وعبدالله بن عباس لقصروا من أعتكم، فقال زياد: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وما يقومان لمروان ابن الحكم في غرب منطقه ولا لنا في بواذخنا فابعت اليها حتى نسمع كلامها، فقال معاوية لعمرو: ما تقول في هذا الليل فابعت اليها في غد، فبعت معاوية بابنه يزيد اليها فأتيا فدخلا عليه وبدأ معاوية فقال: اني أجلكما وأرفع قدركما عن المسامر بالليل ولا سيما أنت يا أبا محمد

فانك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة فشكر له فلما استويا في مجلسها علم عمرو أن الحدة ستقع به فقال : والله لا بد أن أتكلم فان قهرت فسبيل ذلك وان قهرت أكون قد ابتدأت فقال : يا حسن انا قد تفاوضنا فقلنا ان رجال بني أمية أصبر على القاء وأمضى في الوغاء وأوفى عهداً وأكرم خيلاً وأمنع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطلب ، ثم تكلم مروان ابن الحكم فقال : كيف لا يكون ذلك وقد قارعناهم فغلبناهم وحاربناهم فملكناهم فان شئنا عفونا وان شئنا بطشنا ، ثم تكلم زياد فقال : ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهله ويحمدوا الخير في مظانه نحن الحملة في الحروب ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً ، فتكلم الحسن بن علي رضي الله عنه فقال : ليس من الخزم أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة ولكن من الافك أن ينطق الرجل بانحناء ويعور الكذب في صورة الحق يا عمرو افتخاراً بالكذب وجراءة على الافك ما زلت أعرف مثالك الخبيثة أبدياً مرة بعد مرة أتذكر مصابيح الدجى ، وأعلام الهدى ، وفرسان الطراد ، وحفوف الاقران ، وابناء الطمان ، وربيع الضيفان ، ومعدن العلم ، ومهبط النبوة ؟ وزعمتم انكم احبى لما وراء ظهوركم ، وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكمت الأبطال ، ونساورت الاقران ، واقتحمت الليوث ، واعتركت الثنية وقامت رحاها على قطبها ، وفرت عن ناهها ، وطار شرار الحرب ، فقتلنا رجالكم ومن النبي صلى الله عليه وسلم على ذرايبكم ، وكنتم لعمرى في هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب ، ثم قال : وأما أنت يا مروان فما أنت والاكثر في قريش وأنت ابن طليق وأبوك طريد تتقلب في خزاية الى سوءة ، وقد أتى بك الى أمير المؤمنين يوم الجمل ، فلما رأيت الضرغام قد دميت برائته ، واحتبكت أنيابه كنت كما قال الاول .

بَصَبْنِ ثُمَّ رَمَيْنِ بِالْأَبْعَارِ

فلما من عليك بالعمو وأرخص خناقك بعد ما ضاق عليك وغصت
بريقك لا تقعد منا مقعد أهل الشكر ولكن تساوينا وتجارينا ، ونحن من
لا يدركنا عار ولا يلحقتنا خزابة ، ثم التفت الى زياد وقال : وما أنت
يا زياد وقريش ما أعرف لك فيها أديماً صحيحاً . ولا فرعاً ثابتاً ولا قديماً
ثابتاً ولا منبتاً كريماً ، كانت أمك بغياً يتداولها رجالات قريش وفجار
العرب ، فلما ولدت لم تعرف لك العرب والدأ فادعاك هذا - يعني معاوية -
فما لك والافتخار !! تكفيك سمية ويكفيننا رسول الله ﷺ وأبي سيد المؤمنين
الذي لم يرتد على عقبيه وعماي حمزة سيد الشهداء ، وجعفر الطيار في الجنة
وأنا وأخي سيدي شباب أهل الجنة ، ثم التفت الى ابن عباس فقال : انما
هي بغاث الطير انقض عليها البازي ، فأراد ابن عباس أن يتكلم فأقسم عليه
معاوية أن يكف فكف ، ثم خرجا ، فقال معاوية : أجاد عمرو الكلام
اولاً لولا ان حجته دحضت ، وقد تكلم مروان لولا أنه نكص ، ثم التفت
الى زياد فقال : ما دعاك الى محاورته ما كنت إلا كالجلجل في كف العقاب
فقال عمرو : أفلا رميت من ورائنا ؟ قال معاوية : إذا كنت شريككم في
الجهل أفأفأخر رجلاً رسول الله ﷺ جده وهو سيد من مضى ومن بقي
وامه فاطمة سيدة نساء العالمين ثم قال لهم : والله لئن سمع أهل الشام ذلك
أنه للسوءة السوءة فقال عمرو : لقد أبقى عليك ولكنه طعن مروان وزياداً
طعن الرعي بثفالها ووطئها وطئ البازل القراد بنسبه ، فقال زياد : والله
لقد فمل ولكنك يا معاوية تريد الاغراء بيننا وبينهم لا جرم والله لا شهدت
بجلسا يكونان فيه إلا كنت معها على من فاخرهما ، فخلا ابن عباس بالحسن
رضي الله عنه فقبل بين عينيه وقال : أفديك يا بن عمي والله ما زال بجرك
يزخر وأنت تصول حتى شفيتني من اولاد البغايا . ثم ان الحسن رضي الله
عنه غاب إماماً ثم رجع حتى دخل على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير ،
فقال معاوية : يا أبا محمد إني اظنك تعباً نصباً فأنت المنزل فأرح نفسك ،
فقام الحسن رضي الله عنه ، فخرج ، فقال معاوية لعبد الله بن الزبير : لو

اقتضرت على الحسن فأنت ابن حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته ولأبيك
 فى الاسلام نصيب وافر ، فقال ابن الزبير : أنا له ثم جعل أيمته يطلب
 الحجج فلما أصبح دخل على معاوية وجاء الحسن رضى الله عنه فحياه معاوية
 وسأله عن بيته فقال : خير بيت وأكرم مستغاض فلما استوى فى مجلسه
 قال له ابن الزبير : لولا أنك حوارى فى الحروب غير مقدم ما سلمت لمعاوية
 الأمر وكنت لا تحتاج الى اختراق السهول وقطع المراحل والمفاوز تطلب
 معروفه وتقوم ببابه ، وكنت حرباً أن لا تفعل ذلك وأنت ابن علي فى
 بأسه ونجدته ، فما أدري ما الذى حملك على ذلك ؟ أضعف حال أم وهى
 نحيزة ؟ ما اظن لك مخرجاً من هذين الحالين أما والله لو استجمع لي ما
 استجمع لك لعلت انى ابن الزبير وانى لا انكص عن الابطال وكيف لا
 أكون كذلك وجدتي صفية بنت عبدالمطلب وأبي الزبير حوارى رسول الله
 ﷺ وأشد الناس بأساً ، وأكرمهم حساباً فى الجاهلية ، واطوعهم لرسول الله
 ﷺ ؟ فالتفت الحسن اليه وقال : أما والله لولا ان بنى أمية تنسبني الى العجز
 عن المقال لكففت عنك نهائياً بك ولكن سأبين ذلك لتعلم أنى لست بالكليل
 ألبابى تعير وعلى تفتخر ولم نك لجدك فى الجاهلية مكرمة ان لا تزوجه عمي
 صفية بنت عبدالمطلب فبذخ بها على جميع العرب وشرف بكنها ، فكيف تفتخر
 من فى القلادة واسطتها وفى الاشراف سادتها ؟ نحن أكرم أهل الأرض زندا
 لنا الشرف الثاقب والكرم الغالب ثم تزعم أنى سلمت الأمر لمعاوية ، فكيف
 يكون ؟ وبجك كذلك ! وأنا ابن اشجع العرب ولداني فاطمة ميدة النساء
 وخيرة الامهات لم أفعل وبجك ذلك جبناً ولا فرقاً ولكنه بايعني مثلك
 وهو يطلب برة ويداجيني المودة فلم أتق بنصرته لانكم بيت غدر وأهل
 إحن ووتر فكيف لا تكون كما أقول ؟ وقد بايع أمير المؤمنين أبوك ثم نكث
 بيعته ونكص على تقييه واختدع حشية من حشايا رسول الله ﷺ ليضل
 بها الناس ، فلما داف نحو الائمة ورأى بريق الاسنة قتل بمضيعة لا
 ناصر له وأنى بك أسيراً ، وقد وطنتك الكهامة بأظلافها والحيل بسنابكها ،

واعتلاك الأشر ففصت بريقك وأقعبت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته
الليوث ، فنحن وبجك نور البلاد وأملاكها وبنا نفتخر الأمة وإلينا
تلقى مقاليد الأزمنة ، نصول وأنت تختدع النساء ثم نفتخر على بني
الأنبياء لم تزل الأقباب مننا مقبولة وعليك وعلى أبيك مردودة دخل
الناس في دين جدي طائعين وكارهين ، ثم بايعوا أمير المؤمنين صلوات الله
عليه فار الى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخذنا عرس رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقتلا عند نكثها بيعته وأني بك أسيرا تبصص بذنبك
فناشدته الرحم ان لا يقتلك فعفا عنك ، فأنت عتاقة أبي وأنا سيدك
وأبي سيد أبيك فذق وبال امرك ، فقال ابن الزبير : اعذرنا يا أبا محمد
فانما حملتني على معاورتك هذا واشتهي الاغراء بيننا فهلا إذ جهلت امسكت
عني فانكم اهل بيت سببتمكم الحلم ، قال الحسن : يا معاوية انظر أأكع
عن معاورة احد وبجك ؟ اندري من أي شجرة أنا والى من اتسي ؟ انته
قبل ان اسك بسمة يتحدث بها الركبان في آفاق البلدان ، قال ابن الزبير :
هو لذلك اهل ، فقال : معاوية اما انه قد شفا بلابل صدري منك ورمي
مقتلك فبقيت في يده كالحجل في كف البازي يتلاعب بك كيف شاء ،
فلا اراك نفتخر على احد بعد هذا . وذكروا ان الحسن بن علي صلوات
الله عليها دخل على معاوية فقال في كلام جرى من معاوية في ذلك :

فيم الكلامُ وقد سبقتُ مُبرِّزاً سَبَقَ الْجَوَادِ مِنَ الْمَدَى وَالْمَقْوَسِ

فقال معاوية : إياي تعني ؟ والله لأتيناك بما يعرفه قلبك ولا ينكره
جلساؤك انا ابن بطحاء مكة انا ابن اجودها جودا واكرمها ابوة وجدود
وأوفانا عهدا انا ابن من ساد قريشا ناشئا فقال الحسن : أجل إياك ،
اعني افعلني نفتخر يا معاوية وانا ابن ماء السماء وعروق الثرى وابن من
ساد اهل الدنيا بالحسب الثاقب والشرف الفائق والقديم السابق وابن من
رضاه رضى الرحمن وسخطه منخط الرحمن فهل لك اب كآبي او قديم

كقديسي ، فان تقى : لا تغلب ، وان تقى : نعم تكذب ، فقال : أقول :
لا تصديقاً لك ، فقال الحسن رضي الله عنه :

أَلْحَقْ أَبَدَجَ لَا تَرِيغُ سَبِيلَهُ وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ

قال : وقال معاوية ذات يوم وعنده اشراف الناس من قريش وغيرهم
اخبروني بأكرم الناس اباً واما وعماً وعمّة وخالا وخالة وجداً وجدّة ،
فقام مالك بن عجلان وأوماً الى الحسن بن علي صلوات الله عليه فقال : هو
ذا ابوه علي بن ابي طالب ، وامه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وعمه جعفر الطيار ، وعمته ام هانئ بنت ابي طالب ، وخاله القاسم
ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالته زينب بنت رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وجدته خديجة بنت
خويلد فسكت القوم ونهض الحسن ، فأقبل عمرو بن العاص على مالك فقال :
احب بني هاشم حملك على ان تكلمت بالباطل ، فقال ابن عجلان ما قلت
إلا حقاً وما احد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق الا لم
يعط امنيته في دنياه وختم له بالشقاء في آخرته ، بنو هاشم انضركم عوداً
واوراكم زنداً كذلك هو معاوية ؟ قال : اللهم نعم . قال : واستأذن الحسن
ابن علي رضي الله عنه على معاوية وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص
فأذن له ، فلما اقبل قال عمرو : قد جاءكم الفقه العمي الذي كان بين
لحيه عقله ، فقال عبد الله بن جعفر : مه والله لقد رمت صخرة مالهمة تنحط
عنها السيول وتقر دونها الوعول لا تبلغها السهام فايك والحسن اياك ، فانك
لا تزال راتعاً في لحم رجل من قريش ولقد رميت فما برح سهبك
وقدحت فما اوردى زندك ، فسمع الحسن الكلام ، فلما اخذ مجلسه قال :
يا معاوية لا يزال عندك عبد يرتع في لحوم الناس اما والله لئن شئت
ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الامور وتخرج منه الصدور ، ثم انشأ يقول :

أَتَأْمُرُ يَا مُعَاوِيَةَ عَبْدَ سَهْمٍ بِشْتَمِي وَالْمَلَأَ مِنَّا سُوءُ
 إِذَا أَخَذْتَ بِجَالِسِهَا قُرَيْشٌ فَقَدْ عَلِمْتَ قُرَيْشٌ مَا تُرِيدُ
 أَنْتَ تَظَلُّ تَشْتُمِي سِفَاهَهَا لِضَعْفِ مَا يَزُولُ وَلَا يَبِيدُ
 فَوَلِّ لَكَ مِنْ أَبِي كَابِي تُسَامِي بِهِ مَنْ قَدْ تُسَامِي أَوْ تَكِيدُ
 وَلَا جَدُّ كَجَدِّي بَابَ حَرْبٍ رَسُولِ اللَّهِ إِنْ ذُكِرَ الْجُدُودُ
 وَلَا أُمُّ كَأُمِّي مِنْ قُرَيْشٍ إِذَا مَا حُصِّلَ الْحَبُّ التَّلِيدُ
 فَمَا مِثْلِي تُهَكِّمَ بَابَ حَرْبٍ وَلَا مِثْلِي يُنْهَضُهُ الْوَعِيدُ
 فَمَلًّا لَا تَهْجُ مِنْهَا أُمُورًا يَشِيبُ لَهْوًا الْطِفْلُ الْوَلِيدُ

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية : ابعت الى الحسن بن علي
 فأمره أن يخطب على المنبر ففعله يحصر فيكون في ذلك مانعيره به ، فبعث
 اليه معاوية فأمره أن يخطب ، فصعد المنبر وقد اجتمع الناس ، فحمد الله
 وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا
 الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عم النبي أنا ابن البشير النذير السراج
 المنير أنا ابن من بعثه الله رحمة للعالمين أنا ابن من بعث الى الجن والانس
 أنا ابن مستجاب الدعوة أنا ابن الشفيع المطاع أنا ابن أول من ينفذ
 رأسه من التراب أنا ابن أول من يقرع باب الجنة أنا ابن من قاتلت معه
 الملائكة ونصر بالرعب من مسيرة شهر ، وأمعن في هذا الباب ولم يزل حتى
 أظلمت الارض على معاوية ، فقال : يا حسن قد كنت ترجو أن تكون
 خليفة ولست هناك ، قال الحسن : أنا الخليفة من سار بسيرة رسول الله
 صلى الله عليه وسلم وعمل بطاعته ، وإيس الخليفة من دان بالجوهر وعطل
 السنن واتخذ الدنيا أباً وأماً ، ولكن ذلك ملك أصاب ملكا يمتع به قليلا

ويعذب بعده طويلاً ، وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته وبقيت عليه التبعة ؟ فكان كما قال الله تعالى « وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » ثم انصرف ، فقال معاوية لعمر بن الخطاب : ما أردت إلا هتكى ما كان أهل الشام يرون أحداً مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا . قال : وقدم الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية ، فلما دخل عليه وجد عنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة وصناديد قومه ووجوه أهل بيته ووجوه أهل اليمن وأهل الشام . فلما نظر إليه معاوية أقعده على سريرته وأقبل عليه بوجهه يريه السرور به وبقدومه ، فحسده مروان وقد كان معاوية قال لهم : لا تحاوروا هذين الرجلين : فقد قلداكم العار عند أهل الشام - يعني الحسن ابن علي رضي الله عنه وعبد الله بن عباس - فقال مروان : يا حسن لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بناه له آباؤه الكرام من المجد والعلو ما أقعدك هذا المقعد ولقتلك وانت لهذا مستحق بقودك الجماهير الينا ، فلما قاومتنا وعلت الأمانة لك بفرسان أهل الشام وصناديد بني أمية اذعنت بالطاعة ، واحتجرت بالبيعة ، وبمشت تطلب الأمان أما والله لولا ذلك لأراق دمك ، ولعلت أنا نعطي السيوف حقها عند الوغى ، فأحمد الله إذ ابتلاك بمعاوية وعفا عنك بجله ثم صنع بك ما ترى ، فنظر إليه الحسن وقال : ويلك يا مروان لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها والمخاضة عند مخالطتها هبلتك أمك لنا الحجج البوالغ ، ولنا عليكم إن شكرتم النعم السوابغ ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار ، فشتان ما بين المنزلتين : نفتخر ببني أمية وتزعم أنهم صبر في الحرب أسد عند اللقاء ثكلتك الثواكل أولئك البهاليل السادة ، والحماة الذادة ، والكرام القادة بنو عبد المطلب أما والله لقد رأيتهم أنت وجميع من في المجلس ما هالتهم الأهوال ، ولا حادوا عن الأبطال كالليوث الضارية الباسلة الحنقة ، فعندها وليت هارباً وأخذت أسيراً ، فقلدت قومك العار ، لأنك في الحروب خوار أتهرق دمي ؟ فهلا أهرقت دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يذبح الحمل

وأنت تشغو ثغاء النعجة وتنادي بالويل والشبور كالمرأة الوكعاء ، ما دافعت عنه بسهم ، ولا منعت دونه بحرب ، قد ارتعدت فرائصك ، وغشي بصرك ، واستغثت كما يستغيت العبد بربه ، فأنجيتك من القتل ، ثم جعلت تبحت عن دمي وتحض على قتلي ؛ ولو رام ذلك معاوية معك لذبح كما ذبح ، ابن عفان ، وأنت معه أقصر يداً ، وأضيق باعاً ، وأجبن قلباً من أن تجسر على ذلك ، ثم تزعم أني ابتليت بحلم معاوية ، أما والله لو أعرف بشأنه وأشكر لنا اذ ولينا هذا الأمر ، فمتى بدا له فلا يغيض جفنه على الذي معك ، فوالله لأعنفن أهل الشام بجيش يضيق فضاؤه ويستأصل فرسانه ، ثم لا ينفمك عند ذلك الروغان والهرب ، ولا تنتفع بتدريج الكلام ، فنحن من لا يجهل آباؤنا الكرام القدماء الأكبر ، وفروعنا السادة الأخيار الأفاضل ، انطق ان كنت صادقاً ، فقال عمرو : ينطق بانحننا وتنطق بالصدق ، ثم أنشأ يقول :

قَدْ يَضْرُطُّ الْعَيْرُ وَالْمَكْوَاةُ تَأْخُذُهُ
لَا يَضْرُطُّ الْعَيْرُ وَالْمَكْوَاةُ فِي النَّارِ

ذق وبال أمرك يا مروان ، فأقبل عليه معاوية فقال : قد نهيتك عن هذا الرجل وأنت تأبى إلا انها كما فيما لا يعينك ، أربع على نفسك فليس أبوه كأبيك ، ولا هو مثلك أنت ابن الطريد الشريد وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكريم ، ولكن رب باحث عن حقه بظلمه ، فقال مروان : ارم دون بيضتك ، وقم بحجة عشيرتك ، ثم قال لعمرو : لقد طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتك ومنها نمت أعنتك ، وقام مغضباً ، فقال معاوية : لا تجار البحار فتغمرك ، ولا الجبال فتقهرك ، واسترح من الاعتذار . قال : ولقي عمرو بن العاص الحسن بن علي عليها السلام في الطواف ، فقال : يا حسن أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ؟ فقد رأيت الله أقامه بمعاوية فجعله ثابتاً بعد ميله وبيناً بعد خفائه أفيرضى الله قتل عثمان أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين ؟ عليك

ثياب كعرقبيء البيض وأنت قاتل عثمان ، والله انه لألم للشعث وأسهل
للوعث أن يوردك معاوية حياض أبيك ، فقال الحسن صلوات الله عليه :
إن لأهل النار علامات يعرفون بها : وهي الإلحاد في دين الله والمخالفة
لأعداء الله ، والانحراف عن دين الله ، والله إياك لتعلم أن علياً لم يتربث في
الأمر ولم يشك في الله طرفه عين ، وأيم الله لمتنهنين يا بن العاص أو لأقرعن
قصتك - يعني جبينه - بقراع وكلام ، وإياك والجرأة علي فإني من
عرفت لست بضعيف المعزز ولا بهش المشاة - يعني العظام - ولا بجرىء
المأكلة وإني لمن قريش كأوسط القلادة معرق حسبي لا أدعى لغير أبي ،
وقد تجاوزت فيك رجال من قريش فغضب عليك الأمها حسباً ،
وأعظمها لعنة ، فأياك عني إفاثاً أنت نجس ونحن أهل بيت الطهارة
أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً . قال : واجتمع الحسن بن علي
صلوات الله عليهما وعمرو بن العاص ، فقال الحسن : قد علمت قريش
بأسرها أبي منها في عز أروها لم أطبع علي ضعف ولم أعكس
علي خسف أعرف نسي وأدعى لأبي ، فقال عمرو : وقد علمت
قريش أنك ابن أفلها عقلاً ، وأكثرها جهلاً ، وإن فيك خصالاً لو
لم يكن فيك إلا واحدة منها لشمك خزيها كما شمل البياض الخثك ،
وأيم الله لأن لم تنته عما أراك تصنع لا كبسن لك حافة كجلد العائط
إذا اعتنطت رحها فما تحمل أريك من خالها بأحر من وقع الاثني أعرك
منها أديك عرك السلعة ، فانك طالما ركبت المجدد ، ونزلت في أعراض
الوعر التماساً للفرقة وإحصاداً للفتنة ، وإن يزيدك الله فيها إلا فظاعة . فقال
الحسن : أما والله لو كنت تسمو بجسك ، وتعمل برأيك ما سلكت فجع
قصد ولا حالت راية مجد ، أما والله لو أطاقتنا معاوية لملك بمنزلة العدو
الكاشع ، ونه طال ما نأخر شأوك واستر داؤك ، وطمح بك الرجا
إلى الغاية القصوى التي لا يورق بها غصنك ، ولا يخضر منها رعيك ، أما
والله لتوشكن بان العاص أن تقع بين لحبي خرغام ، ولا ينجيك منه

الروغان اذا التقت حلقتا البطان . ابن المنذر عن ابيه الشعبي عن ابن عباس انه دخل المسجد وقد سار الحسين بن علي رضي الله عنه الى العراق ، فاذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش قد استملاهم بالكلام ، فجاء ابن عباس فضرب بيده على عضد ابن الزبير وقال ؟ أصبحت والله كما قال الشاعر :

يا لك من قنبرة بممر خالك الجؤ فيضي واصفري
وتقرّي ما شئت أن تقرّي قد ذهب الصياد عنك فأبشري
لا بدّ من أخذك يوماً فاصبري

خلت الحجاز من الحسين بن علي وأقبلت تهر في جوانبها ، فغضب ابن الزبير وقال : والله انك لترى أنك أحق بهذا من غيرك ، فقال ابن عباس : انما يرى ذلك من كان في حال شك وأنا من ذلك على يقين ، قال : وبأي شيء استحق عندك أنك بهذا الامر أحق مني ؟ فقال ابن عباس : لانا أحق بمن يدل بحقه ، وبأي شيء استحق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا ؟ فقال ابن الزبير : استحق عندي اني أحق بها منكم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً ، فقال : أنت أشرف أم من شرفت به ؟ فقال : ان من شرفت به زادني شرفاً الى شرفي ، قال فعني الزيادة أم منك ؟ فتبسم ابن عباس ، فقال ابن الزبير : يان عباس دعني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت ، والله يا بني هاشم لا تحبوننا أبداً ، قال ابن عباس : صدقت نحن أهل بيت مع الله لا نحب من أبغضه الله ، قال : يا ابن عباس أما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة ؟ قال : انما يصفح عن أقر وأما من هر فلا والفضل لأهل الفضل ، قال ابن الزبير : فأين الفضل ؟ قال : عند أهل البيت لا تصرفه عن أهله فتظلم ولا تضعه في غير أهل فتندم ، قال ابن الزبير أفلست من أهله ؟ قال : بلى ان نبذت الحسد وازمت الجدد وانقضت حديثها . وروي عن ابن عباس أنه قال : قدمت على معاوية وقد قعد على سريره وجمع

من بني أمية ووفود العرب عنده فدخلت وسلمت وقعدت فقال : يا بن عباس من الناس ؟ نقلت : نحن ، قال : فاذا غبتم ، قلت : فلا أحد ، قال : فانك ترى أنني قعدت هذا المقعد بكم ، قلت : نعم فبمن قعدت ؟ قال : بمن كان مثل حرب ابن أمية ، قلت : من كمن عليه اناءه وأجاره بردائه ، قال : غضب وقال : أرخني من شخصك شهراً فقد أوتيت لك بصلتك وأضعفتها لك ، فلما خرج ابن عباس قال لخاصته : ألا نسألونني ما الذي اغضب معاوية ؟ قالوا : بلى فقل بنضلك ، قال : إن أبه حرباً لم يلق أحداً من رؤساء قريش في عقبه ولا مضيق إلا تقدمه حتى يجوزه ، فلقبه يوماً رجل من تميم في عقبه فتقدمه التميمي ، فقل حرب : أنا حرب بن أمية فلم يلتفت إليه وجازه ، فقال : ووعدك مكة ، فخافه التميمي ثم أراد دخول مكة ، فقال : من يجيرني من حرب بن أمية ، فقيل له : عبدالمطلب ، فقال : عبدالمطلب أجل قدراً من أن يجير علي حرب ، فأتى ليلاً إلى دار الزبير بن عبد المطلب فدق بابيه فقال الزبير لعبدته : قد جاءنا رجل إما طالب قري وإما مستجير وقد أجنبناه إلى ما يريد ، ثم خرج الزبير إليه ، فقال التميمي :

وَالصُّبْحُ أَبْأَجِّ ضَوْؤُهُ لِّلسَّارِي	لَا قَيْتُ حَرْبًا فِي التَّنِيَّةِ مُتَقِبِلًا
وَسَمَا عَلِيٌّ سُمُوًّا لَيْتِي ضَارِي	فَدَعَا بِصَوْتٍ وَآكْتَنِي لِيرُوعِي
وَأَتَيْتُ قَرَمَ مَعَالِمٍ وَفَخَارِ	فَتَرَكَتُهُ كَالْكَلْبِ بِنَبْحِ ظِلِّهِ
رَحْبَ الْمَبَاةِ مُكْرِمًا لِلجَارِ	لَيْتَا هَزَبْرًا يُسْتَجَارُ بَعِزِّهِ
وَالبَيْتِ ذِي الْأَحْجَارِ وَالْأَسْتَارِ	وَلَقَدْ حَلَفْتُ بِمَكَّةِ وَبِزَمْرَمِ
مَا كَبَّرَ الْحُجَّاجُ فِي الْأَمْصَارِ	إِنَّ الزُّبَيْرَ لَمَّا نَمِي مِنْ خَوْفِهِ

فقدمه الزبير وأجاره ودخل به المسجد ، فراه حرب فقام إليه فلطمه ،

فحمل عليه الزبير بالسيف فولى هاربا يعدو حتى دخل دار عبد المطلب فقال :
أجرني من الزبير ، فأكفأ عليه جفنة كان هاشم يطعم فيها الناس ، فبقي
نحوها ساعة ثم قال له : أخرج قال : وكيف أخرج وعلى الباب تسعة من
بنيك قد احتبوا بسيوفهم ؟ فالقى عليه رداء كان كساء إياه سيف بن ذي
يزن له طرتان خضروان ، فخرج عليهم فعملوا أنه قد أجاره عبد المطلب
فتفرقوا عنه . قال : وحضر مجلس معاوية عبد الله بن جعفر ، فقال عمرو
ابن العاص قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمني والطربات بالتغني محب
للقيان كثير مزاحه شديد طماحه صدود عن الشبان ظاهر الطيش رخي
العيش أخذ بالسلف منفاق بالسرف ، فقال ابن عباس : كذبت والله
أنت وليس كما ذكرت ، ولكنه لله ذكور ، وانعمائه مشكور ، وعن
الحجاز جور ، جواد كريم ، سيد حلیم اذا رمى أصاب واذا سئل أجاب
غير حصر ولا هيب ولا عيابة مغتاب ؛ حل من قریش في كريم النصاب
كالزبير الضرعام الجريء المقدام في الحسب المقام ، ليس بدعي ولا دنيء
لاكن اختصم فيه من قریش شرارها فغلب عليه جزارها فأصبح الامها
حسبا وأدناها منصبا ينوء منها بالذليل ويأوي منها الى القليل مذذب بين
الحين كالساقط بين المهدين لا المضطر فيهم عرفوه ولا الظاعن عنهم فقهوه ،
فليت شعري بأي قدر تتعرض للرجال ، وبأي حسب تعتد به عند النضال
أبنفسك وأنت الوغد اللئيم والنكد الذميم والوضيع الزنيم ؟ أم بمن تسمى
اليهم وهم أهل السفه والطيش والدناءة في قریش ؟ لا بشرف في الجاهلية
شهروا ولا بقديم في الاسلام ذكروا ، جملت تتكلم بغير لسانك وتنطق
بالزور في غير أقرانك ، والله لكان أبين للفضل وأبعد للعدوان أن ينزلك
معاوية منزلة البعيد السحيق ، فانه طالما سلس داؤك ، وطمح بك رجاؤك
الى الغاية القصوى التي لم يخضر فيها رعبك ولم يورق فيها غصنك ، فقال
عبد الله بن جعفر : أقسمت عليك لما أمسكت فانك عني ناخلت ولي
فاوضت ، فقال ابن عباس : دعني والعبد فانه قد كان يهدر خاليا ولا يجد

ملاحيا وقد أتيح له ضيفهم شرس الأفران . ففترس وللأرواح مختلس : فقال
ابن العاص : دعني يا أمير المزمين أنتصف منه فوالله ما ترك شيئا قال
بن عباس : دعه فلا يبقى المبقى الأعلى نفسه . فوالله إن قلبي لشديد ،
وان جوايي لعنيد ، واني لكما قال نابعة بني ذبيان :

وَقَدِمًا قَدْ قَرَعْتُ وَقَارَعُونِي فَمَا نَزَرَ الْكَلَامُ وَلَا شَجَانِي
يَصُدُّ الشَّاعِرُ الْعَرَافُ عَنِي صُدُودَ الْبِكْرِ عَنْ قَرْمِ هِجَانِي

قال : وبلغ عاتمة بنت عاثم (١) ثلب معاوية وعمرو بن العاص ابني
هاشم فقالت لأهل مكة : أيها الناس ان بني هاشم سادت فجادت ،
وملكت وملاكت وفضت وفضلت ، واصطفت واصطفيت ، ليس
فيها كدر عيب ولا اهلك ريب ولا خسروا طاعين ولا خازين ولا ناديين ،
ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالين ان بني هاشم أطول الناس باعا ،
وأجد الناس أصلا ، وأعظم الناس حلا ، وأكثر الناس علما وعطاء منا
عبد مناف المؤثر ، وفيه يقول الشاعر :

كَانَتْ قُرَيْشٌ بِيضَةً فَتَفَلَّقَتْ فَأَلْمَحُ خَالِصَهَا لَعْبِدٍ مَنَافٍ

وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه ، وفيه يقول الشاعر :

عَمَرُوا الْعُلَا هَاشِمَ التَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْتَنْتُونَ عِجَافُ

ومنا عبد المطلب الذي سقينا به الغيث ، وفيه يقول أبو طالب :

وَنَحْنُ سُنيُّ الْمَحَلِّ قَامَ شَفِيعُنَا بِمَكَّةَ يَدْعُو وَالْمِيَاهُ تَسُورُ

وابنه أبو طالب عظيم قریش ، وفيه يقول الشاعر :

أَيْتُهُ مَلِكًا فِقَامَ مَجَاجِي وَتَرَى الْعُلَيْجَ خَائِبًا مَذْمُومًا

ومنا العباس بن عبد المطلب أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأعطاه ماله ، وفيه يقول الشاعر :

رَدِيفُ رَسُولِ اللَّهِ لَمْ تَرَ مِثْلَهُ وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُؤَلَّدُ

ومنا حمزة سيد الشهداء ، وفيه يقول الشاعر :

أَبَا يَعْلَى بِكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ

ومنا جعفر ذو الجناحين أحسن الناس حالا وأكملهم كمالا ليس بفدار
ولا جبان أبداله الله بكلماته يديه جناحين يطير بهما في الجنة ، وفيه يقول
الشاعر :

هَاتُوا كَجَعْفَرِنَا وَمِثْلَ عَائِنَا كَانَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدَ الْخَالِقِ

ومنا أبو الحسن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أفرس بني هاشم ،
وأكرم من احتبى وانتعل ، وفيه يقول الشاعر :

عَلِيٌّ أَفَّ الْفُرْقَانِ صُحْفًا وَوَالِي الْمُسْطَفِيِّ طِفْلًا صَبِيًّا

ومنا الحسن بن علي عليه السلام سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب
أهل الجنة ، وفيه يقول الشاعر :

يَا أَجْلُ الْأَنْامِ يَا بِنَ الْوَصِيِّ أَنْتَ سَبْطُ النَّبِيِّ وَابْنُ عَلِيٍّ

ومنا الحسين بن علي حمله جبريل عليه السلام على عاتقه وكفاه بذلك
فخرًا ، وفيه يقول الشاعر :

حُبُّ الْحُسَيْنِ ذَخِيرَةٌ لِمُحِبِّهِ يَا رَبِّ فَأَحْشُرُنِي غَدًا فِي حِزْبِهِ

يا معشر قريش والله ما معاوية كأمير المؤمنين علي ولا هو كما يزعم هو والله شاني. رسول الله ﷺ واني آتية معاوية وقائلة له ما يعرق منه جبينه ويكثر منه عويله وأنينه ، فكتب عامل معاوية اليه بذلك ، فلما بلغه أنها قربت منه أمر بدار ضيافة فنظفت وألقت فيها فرش ، فلما قربت من المدينة استقبلها يزيد في حشمه وماليكه ، فلما دخلت المدينة أتت دار أخيها عمرو بن عاثم فقال لها يزيد : ان أبا عبد الرحمن يأمرك أن تنتقلي الى دار ضيافته وكانت لا تعرفه فقالت : من أنت كلاك الله ؟ قال : أبا يزيد بن معاوية ، قالت : فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد ، فتغير لون يزيد وأتى أباه فأخبره فقال : هي أم ابن قريش وأعظمهم حلما قال يزيد : كم تعد لها ؟ قال : كانت تعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة عام وهي من بقية الكرام ، فلما كان من الغد أنها معاوية فسلم عليها فقالت : على المؤمنين السلام ، وعلى الكافرين الموان والملام ، ثم قالت : أيكم عمرو بن العاص ! قال عمرو : هاأنذا ، قالت : أنت تسب قريشاً وبني هاشم وأنت أهل السب وفيك السب واليك يعود السب يا عمرو اني والله عارفة بك وبعبوبك وعبوب أمك واني أذكر ذلك : ولدت من أمة سوداء مجنونة حقاء تبول من قيامها وتعلوها اللثام واذا لامسها الفحل فكان نطقها أنفذ من نطقه ركبها في يوم واحد اربعون رجلا ، وأما أنت فقد رأيتك غاوبياً غير مرشد ومفرداً غير مصلح ، والله لقد رأيت فحل زوجتك على فراشك فما غرت ولا أنكرت ، وأما أنت يا معاوية فما كنت في خير ولا ربيت في نعمة فما لك ولبني هاشم نساؤك كنسائهم أم أعطى أمية في الجاهلية والاسلام ما أعطى هاشم ؟ وكفى فخراً برسول الله ﷺ ، فقال معاوية : أيتها الكبيرة أنا كاف عن بني هاشم ، قالت : فاني اكتب عليك كتاباً فقد كان رسول الله ﷺ دعا ربه ان يستجيب لي خمس دعوات أفأجعل

تلك الدعوات كلها فيك؟ فخان معاوية فحلف لا يسب بني هاشم أبداً، فهذا ما كان بين معاوية وبين بني هاشم من المفاخرة. قال: وكان علي ابن عبدالله بن عباس عند عبدالملك بن مروان فأخذ عبدالملك يذكر أيام بني أمية، فبينما هو على ذلك نادى المنادي بالآذان فقال: أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقال علي:

هَذِي الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ ابْنِ شَيْبَةَ بِنَاءٍ فَمَادَا بَعْدُ أُبُوَالْأ

فقال عبدالملك: الحق في هذا أين من أن يكابر. علي بن محمد النديم قال: دخلت على المتوكل وعنده الرضي فقال: يا علي من أشعر الناس في زماننا؟ قلت: البحتري، قال: وبعده، قلت: مروان بن أبي حفصة عبدك، فالتفت الى الرضي فقال: يا ابن عم من أشعر الناس. قال: علي ابن محمد العلوي، قال وما تحفظ من شعره؟ قال قوله:

أَقْدُ فَاخَرْتَنَا مِنْ كُرَيْشٍ عَصَابَةٌ بِمِطِّ خُدُودٍ وَأَمْتِدَادِ أَصَابِعِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْقَضَاءَ قَضَى لَنَا عَلَيْهِمْ بِمَا نَهَى نِدَاءَ الصَّوَامِعِ

فقال المتوكل: ما معنى قوله؟ - نداء الصوامع - قال: الشهادة قال: وأبيك انه اشعر الناس. وما قيل في هذا المعنى من الشعر قوله أيضاً:

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ بِأَنْسَابِنَا وَلَوْلَا السَّمَاءُ لُجُزْنَا السَّمَاءَ
فَحَسْبُكَ مِنْ سُودِدِ أَنَا بِجُسْنِ الْبَلَاءِ كَشَفْنَا الْبَلَاءَ
إِذَا ذُكِرَ النَّاسُ كُنَّا مُلُوكًا وَكَانُوا عَمِيدًا وَكَانُوا إِمَاءَ
يَطِيبُ الثَّنَاءُ لَأَيَّامِنَا وَذِكْرُ عَلِيٍّ يُطِيبُ الثَّنَاءَ
هَجَانِي رِجَالٌ وَلَمْ أَهْجُهُمْ أَبِي اللَّهِ لِي أَنْ أَقُولَ الْهَجَاءَ

وقال آخر :

وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَرَفْتَهُمْ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ
أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دَجَى السَّبِيلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزْعَ تَأْقِبُهُ
نُجُومُ السَّمَاءِ كُلَّمَا انْقَضَ كَوْكَبٌ بَدَأَ كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ

وقال آخر :

خُطَبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ بِيضُ الْوُجُوهِ مَقَاوِلُ لِسْنِ
لَا يَفْطَنُونَ لَعِبِ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحَفْظِ جَوَارِهِمْ مُفْطَنُ

(ضده)

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتخروا بأبائكم في الجاهلية فوالذي نفسي بيده لما يدحرج الجمل برجله خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية) . قال وكان الحسن البصري يقول : يا ابن آدم لم تفتخر وإنما خرجت من سبيل بواين نطفة مشجت باقدار . وقال بعضهم لرجل : افتخر ؟ ويحك وأولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قدرة وأنت فيما بينهما وعاء عذرة فما هذا الافتخار ؟ وروى عن ابن عباس أنه قال : الناس يتفاضلون في الدنيا بالشرف والبيوتات والامارات والغنى والجمال والهينة والمنطق ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى واليقين وأتقاهم أحسنهم يقيناً وأزكاهم عملاً وأرفعهم درجة . وقيل في ذلك :

مُزِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَانَ مَحْظُوراً عَلَيْهِ مَكَابِرُهُ
وَسِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَرُمَتْ أَبَاؤُهُ وَمَنَاسِبُهُ

وقيل لعامر بن قيس : ما تقول في الانسان ، قال : وما أقول فيمن

إن جاع خزع وان شبع بغي وطغي . وقال بعض الحكماء : لا يكون الشرف بالنسب الا ترى أن أخوين لأب وأم يكون أحدهما أشرف من الآخر ولو كان ذلك من قبل النسب لما كانت لأحدهم منهنم على الآخر فضل . لان نسبتها واحد ، ولكن ذلك من قبل الاعمال ، لان الشرف انما هو بالفضل لا بالنسب قال الشاعر :

أبوكَ أباي والجدُّ لا شكَّ واحدٌ
ولكننا عودانِ آسٌ وخروعٌ

وبلغنا عن المدائني قال : ليس السؤدد بالشرف ، وقد ساد الاحنف ابن قيس بحلمه وحصين بن المنذر برأيه ومالك بن مسمع بمحبته في العامة وسويد بن منجوف بعطفه على أراميل قومه ، وساد المهلب بن أبي صفرة بجميع هذه الحُصائل . وأما الشرف بالدين فالحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه أعرابي فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله من أكرم الناس حسناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً وأفضلهم تقوى ، فانصرف الاعرابي ، فقال : ردوه ثم قال يا أعرابي ، لعلك أردت اكرم الناس نسباً ؛ قال : نعم يا رسول الله ، قال يوسف الصديق صديق الله بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فابن مثل هؤلاء الآباء في جميع الدنيا ما كان مثلمهم ولا يكون مثلمهم أحد ابداً ، وقال الشاعر في ذلك :

ولم أرَ كالأَسباطِ أبناءَ والدٍ
ولا كأبيهم والداحين يُنسَبُ

قال : ودخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتسب له فقال : انا ابن الأشياخ الأكارم فقال صلى الله عليه وسلم (أنت إذا يوسف صديق الرحمن عليه السلام ابن يعقوب اسرائيل الله أو اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله) وقال صلى الله عليه وسلم (خير البشر آدم وخير العرب محمد وخير الفرس سلمان الفارسي وخير الروم صهيب وخير الحبشة بلال) قال : وسمع عمر بن الخطاب وهو خليفة صوتا

ولفظاً بالباب فقال لبعض من دنده : اخرج فانظر من كان من المهاجرين
الأولين فأدخله ، فخرج الرسول فوجد بلالا وصهيباً وسلمان فأدخلهم وكان ابوسفيان
ابن حرب وسهيل بن عمرو في عصابة من قريش جلوساً على الباب فقال :
يا معشر قريش ، انتم صنديد العرب واشرافها وفرسانها بالباب ويدخل حبشي
وفارسي ورومي ، فقال سهيل : يا اباسفيان انفسكم فلو موا ولا تدموا امير
المؤمنين دعى القوم فأجابوا ودعيتهم فأبيتهم وهم يوم القيامة اعظم درجات
واكثر تفضيلاً ، فقال أبو سفيان : لا خير في مكان يكون فيه بلال شريفاً
(فأما صناعات الأشراف) فانه روى ان أبا طالب كان يعالج العطر واللبز
واما ابو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا بزازين ، وكان
سعد بن أبي وقاص يعدق النخل ، وكان أخوه عتبة نجاراً ، وكان العاص بن
هشام أخو أبي جهل بن هشام جزاراً ، وكان الوليد بن المغيرة حدادا ،
وكان عتبة بن أبي معيط خماراً ، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت
خياطاً ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والادم ، وكان امية بن
خلف يبيع البروم ، وكان عبد الله بن جدعان نخاساً ، وكان العاص بن وائل
يعالج الخيل والابل ، وكان جرير بن عمرو وقيس ابو الضحاك بن قيس
ومعمر بن عثمان وسيرين بن محمد بن سيرين كانوا كلهم حدادين ، وكان
المسيب أبو سعيد زياتاً ، وكان ميمون بن مهران بزازاً ، وكان مالك بن
دينار وراقاً ، وكان أبو حنيفة صاحب الرأي خزازاً ، وكان مجمع الزاهد
حائكاً ، قيل : اتخذ يزيد بن المهلب بستاناً في داره بخراسان ، فلما ولي قتيبة
ابن مسلم جعله لابله فقال مرزبان مرو : هذا كان بستانا وقد اتخذته
لابلك ، فقال قتيبة : ابي كان اشترى ابان وكان ابو يزيد بستانيان فعملها
صار ذلك كذلك . قال وذكروا ان المؤمنون ذكر اصحاب الصناعات فقال :
السوقة سفل والصناع انذال والبجار بخلاء والكتاب ملوك على الناس والناس
أربعة : اصحاب الحرف وهي اماره وتجارة وصناعة وزراعة فمن لم يكن منهم
صار عيالا عليهم .

٢٣ - محاسن الثقة بالله سبحانه

قيل : خطب سليمان بن عبد الملك فقال : الحمد لله الذي أنقذني من ناره بخلاته . وقال الوليد بن عبد الملك : لأسفمن للحجاج بن يوسف وقره ابن شريك عند ربي وقال الحجاج : يقولون مات الحجاج ما أرجو الخير كله الا بعد الموت والله ما رضى الله البقاء الا لأهون خلقه عليه البس ابليس اذ قال « رب أنظرني الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم » . وقال أبو جعفر المنصور : الحمد لله الذي أجارني بخلافته وانقذني من النار بها . وحدثني ابراهيم بن عبد الله عن أنس بن مالك قال : دخلنا على قوم من الانصار وفيهم فتى عليل فلم نخرج من عنده حتى قضى نجه فاذا عجوز عند راسه فالتفت اليها بعض القوم فقال : استسلمي لامر الله واحتسبي قالت : أمات ابني ؟ قال : نعم ؛ قالت : أحق ما تقولون ؟ قلنا : نعم ، فمدت يدها الى السماء وقالت : اللهم انك تعلم أني أسلمت لك وهاجرت الى نبيك محمد صلوات الله عليه رجاء أن تعيشني عند كل شدة فلا تحملي هذه المصيبة اليوم ، فكشف ابنها الذي سجيناه وجهه وما برحنا حتى طعمه وشرب وطعمنا معه .

(ضده)

قال عيسى بن مريم صلوات الله ، تعالى عليه : يامعشر الحواريين ان ابن آدم مخلوق في الدنيا في أربع منازل : هو في ثلاث منها واثق وهو في الرابعة سيء الظن يخاف خذلان الله اياه ، فأما المنزلة الأولى فانه خلق في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة فوفاه الله رزقه في جوف ظلمة البطن فاذا أخرج من ظلمة البطن وقع في اللبن لا بخطو اليه بقدم ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض اليه بقوة بل يكوره

إليه اكراهاً وبوجر إيجاراً حتى ينبت عليه لحمه ودمه ، فإذا ارتفع عن اللبن وقع في المنزلة الثالثة من الطعام من أوبه يكسب عليه من حلال وحرام ، فان ماتا عطف عليه الناس هذا يطعمه وهذا يسقيه وهذا يؤويه وهذا يكسوه فإذا وقع في المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلاً خشياً ان لا يرزق فيشب على الناس فيخون اماناتهم ويسرق امتعتهم ويفصمهم اموالهم بخافة خذلان الله تعالى إياه .

٢٤ - محاسن طلب الرزق

قال عمرو بن عتبة من لم يقدمه الحزم أخره العجز . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى « يا ابن آدم أحدث لي سفراً أحدث لك رزقاً » ، وفي بعض الحديث (ساقروا تغنوا) ، وقال الكمي بن زيد الأسدي :

ولن يُزِيحَ هُمُومَ النَّفْسِ إِنْ أَحْضَرْتَ
حَاجَاتُ مِثْلِكَ إِلَّا الرَّحْلُ وَالْجَمَلُ

وقال أبو تمام الطائي :

و طولُ مُقَامِ الرِّزْقِ فِي أَحْيِ مُخْلِقٍ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَيْدَتْ مَحَبَّةً
لِدِيَابِجَتِيهِ فَاغْتَرِبْتُ تَجَدُّدِ
إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

وقال بعض الحكماء : لا تدع الحياة في التماس الرزق بكل مكان ، فان الكرم محتمل ، والدنيء عيال ، وأشد :

فسرني بلاد الله والتيس الغني تعيش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا
ولا ترض من عيش بدونٍ ولا تنم
وكيف ينام الليل من كان مُعسرا

وتقول العامة : كلب جوال خير من أسد رابض ، وتقول : من
غلى دماغه صائماً غلت قدره شائياً : ووقع عبد الله بن طاهر من سعي
دعي ومن لزم الماس رأى الأحلام ، هذا المعنى سرقه من توقيعات
أنوشروان فإنه يقول : هرك روذ جرد هرك خسبد خراب بئند ، وأنشد :

كفني حزناً أن النوى قدفت بنا بعيداً وأن الرزق أعيت مذهبهُ
ولو أننا إذ فرق الدهر بيننا غني واحدٍ منا تمول صاحبهُ
ولكننا من دهرنا في مؤونةٍ يكابنا طوراً وطوراً نكابهُ

وقال آخر :

ومن يك مثلي ذا عيالٍ ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذراً أو ينال غنيمَةً ومبلغ نفسٍ عذرها مثل منجج

وقال آخر :

وايس الرزق عن طلبٍ حيث ولكن أدل دلوك في الدلاء
تحكك بملئها حيناً وطوراً تجيء بحمأةٍ وقليل ماء

(ضده)

قيل : وجد في بعض خزائن ملوك العجم لوح من ججارة مكتوب

عليه : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فإن موسى عليه السلام
خرج ليقبس ناراً ، فتودي بالنبوة . وبلغنا عن ابن السهاك أنه قال : لا
تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض ، وكن اليوم مشغولاً بما أنت
مسئول عنه ذمياً وإياك والفضول فإن حسابها يطول ،

قال الشاعر :

إِنِّي عَلِمْتُ وَعِلْمُ الْمَرْءِ يَنْفَعُهُ أَنْ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى لَهُ فِيمَنْ يَنْيَنِي تَطْلُبُهُ وَلَوْ قَعَدْتُ أَنِّي لَا يُعْنِينِي

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا كُلُّ التَّمَطُّلِ ضَائِرٌ وَلَا كُلُّ شُغْلٍ فِيهِ لِمَرْءٍ مَنَفَعَةٌ
إِذَا كَانَتْ الْأَرْزَاقُ فِي الْقُرْبِ وَالنَّوَى عَلَيْكَ سِوَاءَ فَاغْتَنِمْ لَذَّةَ الدَّعَاةِ

وقال آخر :

سَهِّلْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الرُّزْقَ مَقْدُورٌ وَكُلُّ مُسْتَأْنَفٍ فِي اللُّوْحِ مَسْطُورٌ
أَتَى الْقَضَاءُ بِمَا فِيهِ مُلْدَأَةٌ وَكُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَمَحْظُورٌ
لَا تَكْذِبَنَّ فَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ إِنَّ الْحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَمَرُورٌ

وقال آخر :

لَا تَعْتَبَنَّ عَلَى الْعِبَادِ فَإِنَّمَا يَا أَيُّكَ رِزْقُكَ حِينَ يُوَدَّنُ فِيهِ

وقال آخر :

هي المقاديرُ تجرِي في أعنتِها
يوماً تَرِيشُ خُسيسَ القومِ تَرَفُهُ
فأصبرُ فليسَ لها صبرٌ على حالِ
دونَ السماءِ ويوماً تَخْفِضُ العَالِي

وقال آخر :

اصبرِ على زَمَنِ جَمِّ نوائِبِهِ
تَلْقَاهُ بِالْأَمْسِ فِي عَمِيَاهِ مُظْلَمَةٍ
فليسَ من شِدَّةِ إِيالِها فَرَجُ
ويُصبحُ اليَوْمَ قَدِ لاحتَ له الشُّرُجُ

وقال آخر :

الأربُّ راجٍ حاجةً لا يَنالُها
يَجولُ لها هذا وتُقضى لغيرِهِ
وآخرَ قد تُقضى له وهو آيسُ
فتأتِي الذي تقضى له وهو جالِسُ

وقال آخر :

فأما أنْ عُنيتَ بما الأقي
دَعوتُ اللهَ لا أُرْجو سِواهُ
وأُعِيتني المسائلُ بالقُروضِ
وَدَبُّ العَرشِ ذو فَرَجٍ عَرِيسِ

وقال آخر :

يا صاحبَ الهمِّ إنَّ الهمَّ مُنْفَرِجُ
اليأسُ يَقطعُ أحياناً بصاحبِهِ
أبشِرْ بخيرِ كأنَّ قد فَرَجَ اللهُ
لا تَيأسَنَّ فإنَّ الصانعَ اللهُ
إذا ابتليتَ فتقُ باللهِ وارضِ بهِ
إنَّ الذي يَكشِفُ البَلْوى هو اللهُ

وقال آخر :

وَإِذَا تُصِيبُكَ مِنَ الْحَوَادِثِ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ فَكُلُّ بَلِيَّةٍ تَتَكَشَّفُ

٢٥ - محاسن المواظ

قال الاصمعي : حجب فزت ضربة ، فاذا أعرابي قد كور عمامته على رأسه وقد تكب قوساً ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنما الدنيا دار مر والآخر دار مقر ، فخذوا من ممركم لمقركم ، ولا تهتكوا استاركم عند من يعلم أسراركم اما بعد فإنه لن يستقبل احد يومئذ من عمره إلا بفراق آخر من أجله ، فاستعجلوا لأنفسكم لما تقدمون عليه لا لما تظنون عنه ، وراقبوا من ترجعون اليه فإنه لا قوى أقوى من خالق ولا ضيف أضعف من مخلوق ولا مهرب من الله إلا اليه ، وكيف يهرب من يتقلب بين يدي طالبه ، وإنما يوفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، وقال بعض الأعراب : ان الموت ليقتنم على بي آدم كاقترام الشيب على الشباب ، ومن عرف الدنيا لم يفرح بها فهو خائف ولم يحزن فيها عى بلوى ولا طالب أغثم من الموت ، ومن عطف عليه الليل والنهار أروياه ، ومن وكل به الموت أفناه . وقال أعرابي كيف يفرح بعمر تنقصه الساعات وبسلامة بدن معرض للآفات ؟ لقد عجبت من المرء يفر من الموت وهو سيده ولا أرى أحداً الا استدركه الموت . وقيل وجد في كتاب من كتب بزجرهم صحيفة مكتوب فيها : ان حاجة الله الى عباده أن يعرفوه فمن عرفه لم يعضه طرفة عين كيف البقاء مع الفناء وكيف يأسى المرء على ما فاته والموت يطلبه . وقال كسرى : لم يكن من حق علمه أن يقتل والي

لنادم على ذلك (١) . قال : وحضرت الوفاة بجلا من حكماء فارس
فقبل له : كيف حالك ؟ قال : كيف يكون حال من يريد سفراً بعيداً
بغير زاد ويقدم على ملك عادل بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بغير
أنيس ؟

(ضده)

قيل : لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جزع أبوه عليه جزعاً
شديداً فقال ذات يوم لمن حضره : هل من منشد شعراً يعزبني به أو
واعظ يخفف عني فأتسلى به ؟ فقال رجل من أهل الشام : يا أمير المؤمنين
كل خليل مفارق خليله بأن يموت أو يذهب إلى مكان ، فتبسم عمر بن
عبد العزيز وقال : مصيبتى فيك زادني إلى مصيبتى مصيبة . وأصيب
الحجاج بن يوسف بمصيبة وعنده رسول لعبد الملك بن مروان فقال : ليت
إني وجدت إنساناً يخفف عني مصيبتى ، فقال له الرسول : أقول ، قال :
ق ، قال : كل إنسان مفارق صاحبه يموت أو يصلب أو ينار تقع عليه
من فوق البيت أو يقع عليه البيت أو يسقط في بئر أو يغشى عليه أو
يكرن شيء لا يعرفه ، فذحك الحجاج وقال : مصيبتى في أمير المؤمنين
أعظم حين وجه مثلك رسولاً .

٢٦ - محاسن فضل الدنيا

قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ،
ودار عافية لمن لهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مسجد أنبياء الله ،
ومهبط وحيه ، ومصلى ملائكته ، ومنجر أوليائه يكسبون فيها الرحمة ،

ويرجون فيها الجنة فمن ذابدها ؟ وقد أدت بينها ونادت بفراقها ونعت
 نفسها وشوقت بسرورها إلى السرور وبلائها إلى البلاء تخويفاً وتحذيراً وترغيباً
 وترهيباً ، فأيها الذام الدنيا والمفتن بفرورها متى غرتك أبصارع آباتك من
 البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم عالت بكفئك وكم مرضت بيديك
 نبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الاطباء وتلتمس لهم الدواء ؟ لم تتفهم
 بطلبتك ولم تشفهم بشفاعتك ولم تستشفهم بامشغالك بطبك مثلت بهم الدنيا
 مصرعك ومضجك حيث لا ينفعك بكأوك ولا يعني عنك أجاؤك ، ثم التفت
 إلى قبور هناك فقال : يا أهل الزاء والعز ، الأزواج قد كعبت والاموال
 قد قسمت والدور قد سكنت هذا خير ما عندنا ، فما خير ما عندكم ، ثم
 قال لمن حضر والله لو أدن هم لأجابوا بأن خير الزاد التقوى وأنشد :

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع الله من نالها
 من لم يؤاس الناس من فضيلها عرض للإدبار إقبالها

قال أبو حازم : الدنيا طالبة ومطلوبة طالب الدنيا يطلبه الموت حتى
 يخرجها منها ، وطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى توفيه رزقه . وقال الحسن
 البصري : بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا بعجوز متعبدة فقلت : من أنت ؟
 فقلت ؟ من بنات ملوك عمان ، قلت : فمن أين طعامك ؟ قالت : إذا
 كان آحر النهار جاءني امرأة متزينة فتضع بين يدي كوزاً من ماء
 ورغيفين ، قلت لها : أتعرفينها ؟ قالت : اللهم لا قلت : هي الدنيا
 خدمت ربك جل ذكره فبعت اليك الدنيا فخدمتك .

(ضده)

زعموا أن زياد بن ابيه مر بالحيرة فنظر إلى دير هناك فقال لحامده :
 لمن هذا ؟ قيل له هذا دير حرقه بنت النعمان بن المنذر فقال : بيلوا بنا اليه

نسمع كلامها ، فجمعت إلى وراء الباب فكلما الخادم فقال لها : كلمي الامير ، فقالت أوجز أم أطيل ؟ قال : بل أوجزي قالت : كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الارض أحد أعز منا وما غابت تلك الشمس حتى رحمتنا عدونا قال : فامر لها باوساق من شعير فقالت : أطعمتك يد شبعاء جاعت ولا أطعمتك يد جوعاء شبعت ، فسر زياد بكلامها ، فقال لشاعر معه : فيد هذا الكلام ليدرس فقال :

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدْماً وَلَا تَسَلْ
فَتَى ذاقَ طَعْمَ الْخَيْرِ مُنْذُ قَرِيبٍ

ويقال : إن فروة بن إباص بن قبيصة انتهى الى دير حرقة بنت النعمان فألفاها وهي تبكي فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : ما من دار امتلأت سروراً إلا امتلأت بعد ذلك تهوراً ثم قالت :

فَبَيْنَا نَسُورُ لِلنَّاسِ وَالْأَمْرِ أَمْرُنَا
إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوْقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فَأُفٍ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلُّبُ تَارَاتٍ بِنَا وَتَصَرَّفُ

قال : وقالت حرقة بنت النعمان لسعد بن ابى وقاص : لاجعل الله لك الى لثم حاجة ولا زالت لكريم اليك حاجة ، وعقد لك المن في اعناق الكرام ، ولا أزال بك عن كريم نعمة ولا أزالها بغيرك إلا جعلك سبياً لردّها عليه . قال : وقال عبدالملك بن مروان لسلم بن يزيد الفهمي : أي الزمان أدركت افضل وأي ملوكه أكلن ؟ قال : أما الملوك فلم أر إلا ذاماً وحامداً ، وأما الزمان فرفع أقواماً ووضع آخرين وكلهم يذم زمانه لانه يبلي جديدهم ويهرم صغيرهم ، وكل ما فيه منقطع إلا الامل

قال : فاخبرني عن فهم قال : هم كما قال الشاعر :

دَرَجَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَى فَوْ
مِ بْنِ عَمْرٍو فَأَصْبَحُوا كَالرَّمِيمِ
وَحَلَّتْ دَارُهُمْ فَأَضَحَتْ قِفَاراً
بَعْدَ عِزِّ وَثُرْوَةٍ وَنَعِيمِ
وَكَذَاكَ الزَّمَانُ يَذْهَبُ بِالنَّاسِ
سِ وَتَبَقِيَ دِيَارُهُمْ كَالرُّسُومِ

قال : فمن يقول منكم :

رَأَيْتُ النَّاسَ مُدْخِقُوا وَكَانُوا
يُحِبُّونَ الْغِنَى مِنْ الرِّجَالِ
وَإِنْ كَانَ الْغِنَى أَقْلَ خَيْراً
بِحَيْلٍ بِالْقَلِيلِ مِنْ النَّوَالِ
فَلَا أُذْرِي عَلامَ وَفِيمَ هَذَا
وَمَاذَا يَرْجُونَ مِنَ الْمُحَالِ
أَلِدُنْيَا فَلَيْسَ هُنَاكَ دُنْيَا
وَلَا يُرْجَى لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي

قال : انا وقد كستها . قال ولما دخل علي صلوات الله عليه المدائن فنظر الى ابوان كسرى أنشد بعض من حضره قول الاسود بن يعفر :

مَاذَا يَوْمُلُ بَعْدَ آلِ مُحَرَّقٍ تَرَكَوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَهْلِ الْخَوَرَنَقِ وَالسُّدَيْرِ وَبَارِقِ
وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرْفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقَرَةَ يَسِيلُ عَلَيْهِمْ
أَرْضٌ تَخَيَّرَهَا لِطَيْبِ نَسِيمِهَا
كَبُّ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ أُمِّ دُوَادِ
جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ
فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِعَادِ

فَإِذَا النِّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُبْلَغُ بِهِ يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَيْلَى وَنَفَادٍ

وقال علي صلوات الله عليه : أبلغ من ذلك قول الله تعالى « كم تتركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم وتعة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخريين فما بكتم عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

وقال عبد الله بن المعتز : أهل الدنيا كركب يساريهم وهم نيام . وقال غيره : طلاق الدنيا مهر الجنة . وذكروا أن أعراياً ذكر لدنيا فقال : هي حمة المصاب رنقة اشارب . وقال آخر الدنيا لا تمتك بصاحب . قال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله تعالى انه لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها . وقال : إذا أقبلت الدنيا على امرئ أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه وقال الشاعر :

أَبَا دُنْيَا حَسَرْتُ لَنَا فِإِعَا
وَكَانَ جَمَالَ وَجْهِكَ فِي النَّقَابِ
دِيَارٌ طَالَمَا حُجِبَتْ وَعَزَّتْ
فُصِّحَ إِذْ نَهَا سَهْلَ الْحِجَابِ
وَقَدْ كَانَتْ لَنَا الْأَيَّامُ ذَلَّتْ
فَتَمَّ قُرْنَتْ بِأَيَّامِ صِغَابِ
كَأَنَّ الْعَيْشَ فِيهَا كَانَ ظِلًّا
يُقَلِّبُهُ الزَّمَانُ إِلَى ذَهَابِ

قال الأصمعي : وجد في دار سليمان بن داود عليه السلام على قبره مكتوباً :

وَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لِشَيْءٍ يَسْرُهُ
فَسَوْفَ كَعَمْرِي عَنْ قَرِيبٍ يَلُومُهَا

إِذَا أُدْبِرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً
وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيراً هُمُومِهَا

وكان ابراهيم بن آدم ينشد :

تُرْفَعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا تُرْفَعُ

وقال أبو العافية :

يَا مَنْ تَرَفَعَ بِالْدُّنْيَا وَزِينَتِهَا لَيْسَ التَّرْفَعُ رَفَعَ الطَّيْنِ بِالطَّيْنِ
إِذَا أَرَدْتَ شَرِيفَ الْقَوْمِ كُلِّهِمْ فَانْظُرْ إِلَى مَلِكِ فِي زِيٍّ مَسْكِينِ
ذَلِكَ الَّذِي عَظُمَتْ فِي النَّاسِ هِمَّتُهُ

وَذَاكَ يَصْلُحُ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ

وقال آخر :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ

وقال محمود الوراق :

هِيَ الدُّنْيَا فَلَا يَفْرُكُ مِنْهَا مَخَائِلُ تَسْتَفِزُّ ذَوِي الْعُقُولِ
أَقْلُ قَلِيلِهَا يَكْفِيكَ مِنْهَا وَلَكِنْ لَسْتَ تَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ
تَشِيدُ وَتَبْتِئِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَأَنْتَ عَلَى التَّجَهُزِ لِلرَّحِيلِ
وَمِنْ هَذَا عَلَى الْأَيَّامِ تَبْقَى مَضَارِبُهُ بِمَدْرَجَةِ السُّيُولِ

وقال آخر :

دُنْيَا تَدَاوَلَهَا الْعِبَادُ ذَمِيمَةٌ شَيْبَتُ بَأْكَرِهِ مِنْ تَقِيحِ الْحُنْظَلِ
وَثَبَاتُ دُنْيَا مَا تَزَالُ مُلِمَّةٌ مِنْهَا فَجَائِعٌ مِثْلُ وَقْعِ الْجَنْدَلِ

وقال آخر :

حَتَّى مَتَى أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ مُشْتَغِلٌ وَعَامِلٌ اللَّهُ بِالرَّحْمَنِ مَشْغُولٌ

وقال أبو نواس الحسن بن هاني :

دَعِ الْحِرْصَ عَلَى الدُّنْيَا وَفِي الْعَيْشِ فَلَا تَطْمَعِ
وَلَا تَجْمَعِ أَكَّ الْمَالِ فَهَا تَدْرِي لِمَنْ تَجْمَعِ
وَلَا تَدْرِي أَمِي أَرْضِ كَ أَمٍ فِي غَيْرِهَا تُضْرَعِ

قال الاصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء وهو يقول : بينا أنا أدور
في بعض البراري إذا أنا بصوت :

وَإِنَّ أَمْرًا دُنْيَاهُ أَكْثَرُ هَمِّهِ لِمُسْتَنْبِكِ مِنْهَا بِجَبَلِ فُرُورِ

فقلت : أناسي أم جنبي ؟ فلم يجبني أحد فنقشته على خاتمي . قال
وسمع يحيى بن خالد بيت العدوي في وصفه الدنيا :

مُحْتَوِفًا رَصْدًا وَعَيْشَهَا نَكَدٌ وَشُرْبُهَا رَنَقٌ وَمُلْكُهَا دُولٌ

فقال : لقد نظم في هذا البيت صفة الدنيا . قال وسع المأمون بيت
أبي نواس :

إِذَا مَتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ نَكَشَتْ لَهُ عَنْ عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

فقال : لو سئلت الدنيا عن نفسها ما وصفت نفسها كصفة أبي نواس .
وقيل للحسن البصري : ما تقول في الدنيا ، قال : ما أقول في دار :
حلالها حساب وحرامها عقاب فقبل ما سمعنا كلاماً أوجز من هذا قال
بلى كلام عمر بن عبد العزيز كتب اليه عدي بن أرطاة وهي علي حمص
قد تهدمت واحتاجت الى صلاح حيطانها ، فكتب اليه : حصتها بالعدل
ونق طرفها من الظلم والسلام .

٢٧ - محاسن الزهد

محمد بن الحسن عن أبي همام وكان قد عرف ضعفاً قال : كنت معه
في طريق مكة فلما بعدنا في الرمل نظر الى ما تلقى الابل من شدة
الحرق بكى ضعيفاً فقلت : لو دعوت الله ان يطر علينا كان أخف علي
هذه الابل ، قال : فنظر الى السماء وقال : ان شاء الله فعل قال :
فوالله ما كان الا أن تكلم حتى نشأت سحابة فهطلت . وعن عطاء بن
يسار أن أبا مسلم الخولاني خرج الى السوق بدرهم يشتري لأهله دقيقاً ،
فعرض له سائل فأعطاه بعضه ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي ،
فأتى التجارين فلأ مزوده من نشارة الحطب وأنى منزله فألقاه وخرج
هارباً من أهله فاتخذت المرأة المزود فإذا دقيق حواري لم تر مثله
فعبثته وخبزته ، فلما جاء قال : أين الك هذا ؟ قالت : الدقيق الذي
جئت به . وعن أبي عبد الله القرشي عن صديق له قال : دخلت بئر
زمزم فإذا بشخص ينزع الدلو مما بي الورك ، فلما شرب أرسل الدلو
فأخذته فشربت فضله فإذا هو سويق لم أر أطيب منه ، فلما كانت القابلة
في ذلك الوقت جاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه ونزع الدلو فشرب ثم
أرسله فأخذته فشربت فضله فإذا هو ماء مضروب بالعسل لم أر شيئاً قط
أطيب منه فأردت أن آخذ طرف ثوبه فانظر من هو فقاني ، هل أكان

في الليلة الثالثة قدمت قبالة زوزم في ذلك الوقت فجاء الرجل وقد
أسل ثوبه على وجهه فنزع الدلو فشرب وأرسله وأخذته وشربت فصلته
فإذا هو أطيب من الأول ، فقلت : يا هذا أمالك برب هذه البنية من
أنت ؟ قال : تكتم علي حتى أموت ؟ قلت : نعم ، قال لي : أنا سفيان
الثوري وكانت تلك الشربة تكفيني إذا شربتها الى مثلها لا أجد جوعا ولا
عطشا . وقال الاصمعي رأيت أعرابيا يكدح جبهته في الارض يريد ان
يجعل سجادة فقلت ما تصنع ؟ قال : ابي وجدت الاثر في وجه الرجل الصالح .

وقال الشاعر :

كَيْفَ يَبْكِي لِحَبْسٍ فِي طُلُولِ مَنْ سَيَقْضِي أَيَّوْمَ حَبْسٍ طَوِيلِ
إِنَّ فِي الْبَمْتِ وَالْحِسَابِ لَشُغْلًا عَنْ وَقُوفٍ بِرَسْمِ رَبْعٍ مُحْمِلِ

وقال آخر :

إِنَّ الشَّقِيَّ الَّذِي فِي النَّارِ مَنَزِلُهُ وَالْفَوْزُ فَوْزُ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ
يَارَبَّ أَسْرَفْتُ فِي ذَنْبِي وَمَعْصِيَتِي وَقَدْ عَلِمْتُ يَقِينًا سُوءَ آثَارِي
فَاغْفِرْ ذُنُوبًا إِلَهِي قَدْ أَحْطَتْ بِهَا رَبَّ الْعِبَادِ وَزَحْزَحْنِي عَنِ النَّارِ

وقال ذو الرمة :

مَعْصَى الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُجْبَهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُجْبُكَ صَادِقًا لِأَطَقْتَهُ إِنْ أُلْحِبُّ لَمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وقال أبو نواس :

أَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ
 وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ
 وَتَسْكِينَةٍ فاعْلَمَنْ شَاهِدُ
 تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ
 وقال أيضاً :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ
 يَسُوقُهُمْ مِنْ قَرَارٍ
 يَجُوزُ خَلْقًا فَخَلْقًا
 حَتَّى بَدَتْ حَرَكَاتُ
 قَ مِنْ ضَعِيفٍ مَهِينٍ
 إِلَى قَرَارٍ مَكِينٍ
 فِي الْحَجَبِ دُونَ الْعُيُونِ
 مَخْلُوقَةٌ مِنْ سُكُونِ

وقال آخر :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْقَى
 إِلَّا يَا بَنَ الَّذِينَ مَضَوْا وَبَادُوا
 وَمَالِكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادُ
 كَأَنَّكَ مَا تَظُنُّ الْمَوْتَ حَقًّا
 أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبْقَى
 إِذَا جَعَلْتَ إِلَى اللَّاهُوتِ تَرْقَى

وقال آخر :

يَا قَلْبُ مَهْلًا وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ
 مَالِكَ بِالثَّرَاهَاتِ مُشْتَغَلًا
 فَقَدْ لَعَمْرِي أَمِرْتُ بِالْحَذَرِ
 أُنْفِي يَدَيْكَ الْأَمَانُ مِنْ سَقَرِ

وقال آخر :

إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِالْقِيَامَةِ
 فَلَقَدْ هَلَكْتَ وَإِنْ جَحَدْتَ
 وَاجْتَرَأْتَ عَلَى الْخَطِيئَةِ
 فَذَلِكَ أَعْظَمُ لِلْبَلِيَّةِ

وقال آخر

وَأَفْنِيَّةُ الْمُلُوكِ مُحَجَّبَاتٌ وَبَابُ اللَّهِ مَبْدُولُ الْفَنَاءِ
فَمَا أَرْجُو سِوَاهُ لِكَشْفِ ضُرِّي وَلَا أَفْزَعُ إِلَى غَيْرِ الدُّعَاءِ
وَلَا أَدْعُو إِلَى الْأَوَائِ كَهَفَاً سِوَى مَنْ لَا يَصَمُّ عَنِ الدُّعَاءِ

(ضده)

قيل : كان جندي بقزوين يصلي في بعض المساجد فانتقده المؤذن أياً ما
فصار إليه وقرع بابه عليه فخرج إليه فقال له المؤذن : أبو من ؟ قال :
أبو الجحيم ، قال : بشس يا هذا رد الباب . قال : وقيل للقبني ما أيسر
ذنبك ؟ قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلت بدير
نصرانية فأكلت عندها طفشيلاً بلحم خنزير وشربت خمرها وفجرت بها
وسرقت كساءها وخرجت (١) . قيل أتى خمسة من القتيان الى قرية
فنزّلوا على باب خان فقام أحدهم يصلي والباقيون جلوس فمرت بهم نبطية
فقالوا : دلينا على قعبة قالت نعم كم أنتم ؟ قالوا : نحن أربعة ، فأومس
الذي يصلي بيده سبحان الله أنا الخامس .

وقال الشاعر :

وَإِنِّي فِي الصَّلَاةِ أَحْضَرُهَا ضَحْكَةُ أَهْلِ الصَّلَاةِ إِن شَهِدُوا

(١) - ذكر ابن قتيبة في كتابه أخبار السمرات هذه القصة لابي الطمعيان القيني .
وقد نسبت هذه الجزئية أيضاً للفرزدق وفيها يقول له جرير ،

وكننت اذا نزلت بدار قوم رحلت بخزبة وتركت عاراً

أَقْعُدُ فِي سَجْدَةٍ إِذَا رَكَعُوا
 أَسْجُدُ وَالْقَوْمُ رَاكِعُونَ مَعًا
 وَأَرْفَعُ الرَّأْسَ إِنْ هُمْ سَجَدُوا
 وَأُسْرِعُ الْوَتْبَ إِنْ هُمْ قَعَدُوا
 فَلَسْتُ أَذْرِي إِذَا هُمْ فَرَغُوا
 كَمْ كَانَ تِلْكَ الصَّلَاةُ وَالْعَدَدُ

وقال آخر :

وَأَصْلِي فَأَغَطُّ الدَّهْرَ فِيمَا
 وَمَوَاقِيتُ حِينَهَا لَسْتُ أَذْرِي
 بَيْنَ سَبْعٍ وَأَرْبَعٍ وَثَمَانٍ
 مَا أَذَانٌ مَوْقَتْهُ مِنْ أَذَانٍ

وقال آخر :

نِعْمَ الْفَتَى لَوْ كَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ
 عَدَاكَ مَشَافِرُهُ الدَّانُ فَأَنْفَهُ
 وَيُقِيمُ وَقْتَ صَلَاتِهِ حَمَادُ
 مِثْلُ الْقَدُومِ يَسْنُهُ الْخَدَّادُ
 فَمَا بِيضٌ مِنْ شُرْبِ الْمُدَامَةِ وَجْهَهُ
 فَبَيَاضُهُ يَوْمَ الْحِسَابِ سَوَادُ

وقال آخر :

إِنْ قَرَأَ الْعَادِيَاتِ فِي رَجَبٍ
 بَلْ نَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ فِي سَنَةٍ
 لَمْ يَعُدْ مِنْهَا إِلَّا إِلَى رَجَبٍ
 فَخْتِمُ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

٢٦ - محاسن النساء العاديات

قيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحسن قول النساء في

صخر أخبها .

لَا بُدَّ مِنْ مَيِّتَةٍ فِي صَرِّهَا غَيْرٌ وَالذُّهْرُ مِنْ شَأْنِهِ حَوْلٌ وَإِضْرَارٌ
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَّمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ

وقيل للخساء : صفي لنا صخرًا ؟ فقالت : كان مطر السنة الغبراء وذعاف
الكتيبة الحمراء ، قيل فمعاوية ؟ قالت : حياء الجذبة اذا نزل ، وقرى
الضيف اذا حل ، قيل : فايها كان عليك أحنى ؟ قالت أما صخر فسقام
الجسد ، وأما معاوية فجمرة الكبد وأنشدت :

أَسْدَانٌ مُحَمَّرًا الْمَخَالِبِ تَجْدَةٌ غَيْثَانٍ فِي الزَّمَنِ النَّضُوبِ الْأَعْسَرِ
قَعْرَانٍ فِي النَّادِي رَفِيعًا مَحْتِدٍ فِي الْمَجْدِ فَرَعًا سَوْدِيٍّ مُتَخَيِّرِ

وروى انها دخلت على عائشة أم المؤمنين وعليها صدر من شعر ،
فقالت لها عائشة : أنتخذين الصدر وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه ؟
فقالت : يا أم المؤمنين ان زوجي كان رجلا متلافاً منفقاً فقال لي : لو أتيت
معاوية فاستعنتيه ، فخرجت وقد لقيتني صخر فأخبرته فشاطرني ماله ثلاث
مرات ، فقالت له امرأته : لو أعطيتها من شرارها - تعني الابل - فقال :

ثَالِثٌ لَا أَمْنَحُهَا شِرَارَهَا وَهِيَ حَصَانٌ قَدْ كَفَّتْنِي عَارَهَا
وَإِنْ هَلَكْتُ مَزَّقَتْ خِمَارَهَا وَأَتَّخَذَتْ مِنْ شَعْرِ صِدَارَهَا

فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدر ونذرت أن لا أنزعه حتى أموت
قال ثور بن معن السلمي : حدثني أبي قال : دخلت على الخساء في الجاهلية
وعليها صدر من شعر وهي تجمز ابنتها فكلمتها في طرح الصدر فقالت :
يا حقاء والله لأنا أحسن منك عرساً ، وأطيب منك درساً ، وأرق منك نعلاً

وأكرم منك بعلا. قال عبد الرحمن بن مرة عن بعض أشياخه ان عمر بن الخطاب قال للخنساء: ما أفرح ما آفي عينيك؟ قالت: بكائي على السادات من مضر، قال: يا خنساء انهم في النار قالت: ذلك أطول لعويلي. وما اخترنا من أشعارها قولها:

تَفَرَّقَنِي الدَّهْرُ قَرَعًا وَغَمَزًا	وَأَوْجَعَنِي الدَّهْرُ نَهَشًا وَوَحْزًا
وَأَفَنِي رَجَائِي فَبَادُوا مَعًا	فَأَصْبَحَ قَلْبِي لَهُمْ مُسْتَفْزًا
كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حِمِّي يُتَّقَى	إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَرًّا
وَكَانُوا سَرَاةَ بَنِي مَالِكِ	وَزَيْنَ الْعَشِيرَةِ مَجْدًا وَعِزًّا
وَهُمْ فِي الْقَدِيمِ صِحَاحُ الْأَدْبِ	مِ وَالْكَائِثُونَ مِنَ النَّاسِ حِرْزًا
بِسُمْ الرِّمَاحِ وَبِيبِضِ الصَّفَاحِ	فَبِالْبَيْضِ ضَرْبًا وَبِالسُّمْرِ وَخِزَا
حَزْرَنَا نَوَاصِي فُرْسَانِكُمْ	وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنْ لَا تُحْزَا
وَمَنْ ظَنَّ مَتْنٌ يُبْلَاقِي الْحُرُوبِ	بِأَنْ لَا يُصَابَ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزًا
تَعَفُّ وَتَعْرِفُ حَقَّ الْقِرَى	وَتَتَّخِذُ الْحَمْدَ ذُخْرًا وَكَزَا
وَنَلْبَسُ فِي الْحَرْبِ نَسِجَ الْحَدِيدِ	وَفِي السَّلَامِ نَلْبَسُ خِزَا وَقَزَا

وروي خبر الخنساء من جهة أخرى ذكروا أنها أقبلت حاجة فمرت بالمدينة ومعها أناس من قومها، فأتوا عمر بن الخطاب فقالوا: هذه خنساء فلو وعظمتها فقد طال بكاؤها في الجاهلية والاسلام، فقام عمر وأنها وقال: يا خنساء قال: فرفعت رأسها فقالت: ماتت وما الذي تريد؟ فقال: ما الذي أفرح ما آفي عينيك؟ قالت: البكاء على سادات مضر. قال: انهم هلكوا في الجاهلية وهم أعضاء الاله وحشو جهنم، قالت: فذاك أبي وامي فذلك

الذي زادني وجعا ، قال : فأنشديني ما قلت ، قالت : أما أني لا أنشدك ما قلت
قبل اليوم ولكني أنشدك ما قلته الساعة ، فقالت :

سَقَى جَدَثًا أُعْرَاقُ غَمْرَةَ دُونَهُ وَبَيْشَةَ دِيَمَاتِ الرَّبِيعِ وَوَابِلَهُ
وَكَنتُ أَعِيرُ الدَّمْعَ قَبْلَكَ مَنْ بَكَى
فَأَنْتَ عَلَى مَنْ مَاتَ قَبْلَكَ شَاغِلُهُ
وَأَرْعِيهِمْ سَمْعِي إِذَا ذَكَرُوا الْأُسَى

وَفِي الصَّدْرِ مِنِّْي زُفْرَةٌ لَا تُزَايِلُهُ

فقال عمر : دعوها فانها لا تزال حزينه أبداً . ليلي الأخيلية هجاها رجل
من قومها فقال :

أَلَا حَيًّا لَيْلَى وَقَوْلًا لَهَا هَلَا فَقَدْ رَكِبْتُ إِيمًا أَعْرًا مُحَجَّلًا
فَأَجَابَتْهُ :

تُعَيِّرُنِي دَاءٌ بِأُمَّكَ مِثْلُهُ وَأَيُّ جَوَادٍ لَا يُقَالُ لَهُ هَلَا

ذكروا انها دخلت على عبد الملك بن مروان فقال لها : يا ليلي هل بقي
في قلبك من حب توبة فتي الفتيان شيء ؟ قالت : وكيف أنساه ؟ وهو الذي
يقول يا أمير المؤمنين :

وَأَوْ أَنْ لَيْلَى فِي ذَرِّي مُتَمَنِّعٍ بِنَجْرَانَ لَا لَتَفَتْ عَلَيَّ فُصُورُهَا
حَامَةً بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرْمِسِي
سَقَاكَ مِنَ الْغُرِّ الْغَوَادِي مَطِيرُهَا

أَبِينِي لَنَا لَا زَالَ رِيْشُكَ نَاعِمًا (١)
 وَبَيْضُكَ فِي خَضْرَاءِ غُصْنٍ نَضِيرُهَا
 تَقُولُ رِجَالٌ لَا بَضِيرُكَ نَأْيُهَا
 بَلَى كُلُّ مَا شَفَّ النَّفُوسَ يَضِيرُهَا
 أَيَذْهَبُ رَيْمَانُ الشُّبَابِ وَلَمْ أُرْ
 كَوَاعِبَ فِي هَمْدَانٍ بَيْضًا نُحُورُهَا

قال : عمرك الله أن تذكره . واتوبه في ايلي الاخيلية :

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلِيَّ وَدُونِي جَنْدَلٌ وَصَفَائِحُ
 لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا
 إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ
 وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى فِي السَّمَاءِ لَأَصْعَدْتِ
 بِطَرْفِي إِلَى لَيْلَى الْأَمِيُونِ اللَّتَوَامِحُ

فلما مات توبة مر زوج ليلي بليلى على قبره فقال لها : سلمى على توبة
 فانه زعم في شعره أنه يسلم عليك تسليم البشاشة ، فقالت : ما تريد الى من
 بليت عظامه ، فقال : والله لتفعلن ، فقالت وهي على البعير : سلام عليك
 يا توبة فتمى الفتيان ، وكانت قطاة مستظنة في ثقب من ثقب القبر ، فلما سمعت
 الصوت طارت وصاحت فنفر البعير ورعى بليلى فهانت فدفنت الى جنب

قبر توبة . قال وسأل الحجاج ليلي هل كان بينك وبين توبة ريبة قط ؟
قالت : لا والذي أسأله صلاحك ألا أنه مرة قال لي قولاً ظننت أنه خنع
لبعض الأمر فقلت له :

وذي حاجةٌ فُلنا له لا تبُحَّ بها فليس إكبا ما حيتُ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا يندبني أن نخونهُ وأنت لأخري فارغٌ وخليلُ

فما كلمني بعد ذلك بشيء حتى فرق بيني وبينه الموت ، قال الحجاج .
فما كان بعد ذلك ؟ قالت : لم يلبث أن قال لصاحب له : إذا أتت الحاضر
من بني عباد فقل بأعلى صوتك :

عفا الله عنها هل أبيتنَّ ليلةً من الدهر لا يسري إلي خيالها

فلما سمعت الصوت خرجت فقلت :

وعنه عفا ربي وأحسن حاله تعزُّ علينا حاجةٌ لا ينأها

قال : ودخلت ليلي على الحجاج فأنشدته قولها فيه :

إذا نزل الحجاج أرضاً سقيمةً تتبعم أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلامٌ إذا هز القناة ثناها
أحجاجٌ لا تُعطي العصابة منهم ولا الله يُعطي للعصابة منهاها

فوصلها الحجاج بألف دينار ، وقال : لو قلت : بدل غلام همام لكان
أحسن . هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان قيل : لما قتل شيبه
وعتبة ابنا ربيعة والوايد بن عتبة رثتهم هند فقالت :

إني رأيتُ فساداً بعد إصلاح في عبدِ شمسٍ قلبي غيرُ مرتاحٍ

هَاجَتْ لَهُمْ أَدْمُوعٌ تَتْرَى وَمَنْبِهُمَا
 مِنْ رَأْسٍ مَخْرُوبَةٍ مَا إِنْ أَلَا لَاحِي
 كَمَا تَنَادَتْ بَنُو فِهْرٍ عَلَى حَنْقٍ وَالْمَوْتُ بَيْنَهُمْ سَاعٍ لِأَزْوَاحٍ
 كَأَنَّما النَّسِجُ فِي قَتْلِ مُصْرَعَةٍ سُرْجٌ أَضَاءَتْ عَلَى جُذُرِ وَأَوْاحٍ
 يَا آلَ هَاشِمٍ إِنَّا لَا نُصَالِحُكُمْ
 حَتَّى نَرَى الْخَيْلَ تَرْدِي كُلَّ كَفَّاحٍ
 إِنْ يُمَكِّنِ اللَّهُ يَوْمًا مِنْ هَزِيمَتِكُمْ
 يورث نساءكم داءً يتقراح

فأجابتها عمرة بنت عبد الله بن رواحة الانصاري :

يَا هِنْدُ مَهْلًا لَقَدْ لَاقَيْتِ مُهْبِئَةً يَوْمَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزْوَاحُ فِي الرَّاحِ
 أَسَدٌ غَطَارِقَةٌ غُرٌّ جَحَاجِحَةٌ أَبْنَاءُ مُحْصِنَةٍ بَيْضٌ لِحَجَّاجِحِ
 هُنَالِكَ الْفَوْزُ وَالرُّضْوَانُ إِنْ صَبَرُوا
 مَعَ الرَّسُولِ فَمَا آبُوا بِتَقْبَاحِ
 اللَّهُ أَهْلَكَهُمْ وَالْأَوْسُ شَاهِدَةٌ وَالخِزْرَجُ الْغُرْفِيُّهُمْ كُلُّ مُجْتَبَحِ
 لَا تَبْمَدَنَّ فَإِنِّي غَيْرُ صَارِخَةٍ
 وَكَيْفَ تَصْرُخُ ذَاتُ الْجَمَلِ يَا صَاحِ

٢٩ - النساء الماجنات

قال سليمان بن عبد الملك : أنشدوني أحسن ما سمعتم من شعر النساء فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين سار رجل من الظرفاء في بعض طرقاته إذ أخذته السماء ، فوقف تحت مظلة ليستكن من المطر وجارية مشرفة عليه ، فلما رآته حذفته بجحر فرفع رأسه وقال :

لَوْ بِتُّفَاحِيَّةٍ رَمَيْتِ رَجُونًا وَمِنَ الرَّمِيِّ بِالْخُصَاةِ جَفَاءُ
فَأَجَابَتْهُ :

مَا جَهِلْنَا الَّذِي ذَكَرْتَ مِنَ الشُّكْلِ وَلَا بِالَّذِي نَرَاهُ خَفَاءُ
وَدَايَةَ مَعَهَا فَقَالَتْ :

قَدْ بَدَأْتِيهِ مَا ذَكَرْتَ وَجَدِّي كَيْتَ شِعْرِي فَيْلٌ لِهَذَا وَفَاءُ
وَسَائِلَةٌ فِي الْبَابِ فَقَالَتْ :

قَدْ لَعَمْرِي دَعَوْتَهَا فَأَجَابَتْ هِيَ دَاءٌ وَأَنْتَ مِنْهُ شِفَاءُ

قال سليمان فأتلتها الله هي والله أشعرهم :
(عنان جارية الناطقي) قال السلوي : دخلت يوماً على عنان وعندها رجل اعراقي ، فقالت أبا عم لقد أتى الله بك ، قلت : وما ذلك ؟ قالت : هذا الاعراقي دخل علي فقال : بلغني أنك تقولين الشعر نقولي بيتاً ، فقلت لها : قولي ، فقالت : قد رنج علي ، فقل أنت ، فقلت :

لَقَدْ جَدَّ الْفِرَاقُ وَعَيْلَ صَبْرِي عَشِيَّةَ عَيْرُهُمْ لِلْبَيْنِ زُمَّتُ

فقال الاعرابي :

نَظَرْتُ إِلَى أَوَاخِرِهَا صُحْبًا وَقَدْ بَانَ وَأَرْضَ الشَّامِ أُمَّتٌ

فقال عنان :

كَتَمْتُ هَوَاكُمُ فِي الصَّدْرِ مِنِّي عَلَى أَنْ الدُّمُوعَ عَلَيَّ نَمَّتْ

فقال الاعرابي : انت والله اشعرنا ، ولولا انك بجرمة رجل لقبلتك ، ولكنني اقبل البساط . وقال بعضهم : دخلت علي عنان فاذا عليها قميص يكاد يقطر صبغة وقد تناولها مولاها بضرب شديد وهي تبكي فقلت :

إِنَّ عِنَانًا أُرْسَاتُ دَمْعِهَا كَالدَّرِّ إِذْ يَنْزِلُ مِنْ سَمَطِهِ

فقلت واثارت الى مولاها :

فَلَيْتَ مَنْ يَضْرِبُهَا ظَالِمًا نَجِفُ يُمْنَاهُ عَلَى سَوِطِهِ

فقال مولاها : هي حرة لوجه الله ان ضربتها ظالما او غير ظالم ، قل : واجتمع ابو نواس والفضل الرقاشي والحسين الخليل وعمر بن الوراق ومحكم ابن رزين والحسين الخياط في منزل عنان فتناشدوا الى وقت العصر ، فلما ارادوا الانصراف قالوا : اين نحن الليلة : فكس قال : عندي ؟ فقلت عنان : بالله قولوا شعرا وارضوا بحكمي ، فقال الرقاشي :

عَذْرَاهُ ذَاتُ أَحْمَرَارٍ إِنِّي بِهَا لَا أَحَاشِي

قَوْمُوا نَدَامَايَ رَوُّوا مُشَاشِكُمْ مِنْ مُشَاشِي

وَنَاطِحُونِي كُتُوسًا نِطَاحَ صُلبِ الكِبَاشِ

وَإِنْ نَكَلْتُ فَجِلُّ لَكُمْ دَمِي وَرِيَاشِي

فقال ابو نواس :

لا بل إليّ ثقتي قوموا بنا بحياتي
 قوموا نلذّ جميعاً بقول هالك وهات
 فان اردتم فتاة اتيتكم بفتاتي
 وان اردتم غلاماً صادفتهموني مؤاتي
 فبادروه مجوناً في وقت كل صلاة

وقال الحسين الخليع :

أنا الخليع فقوموا إلى شراب الخليع
 إلى شراب لذيد وأكل جدي رضيع
 ونيك أحوى رخيم بالخندريس صريع
 قوموا تناولوا وشيكاً مثال ملك رفيع

وقال الوراق :

قوموا إلى بيت عمرو إلى سماع وخمر
 وساقيات علينا تطاع في كل أمر
 ويفسري رخيم يزهو بجيد ونحر
 فذاك برّ وان شئتم اتينا ببحر
 هذا وايس عليكم أولى ولا وقت عصر

وقال محكم بن رزين :

قوموا إلى دارِ أهويِّ وظلُّ بيتِ دفينِ
فيه من الوردِ والمرِّ زنجوشِ والياسمينِ
وربيعِ مسكِ ذكيِّ وجيِّدِ المرزجورِ
قوموا فصيروا جميعاً إلى الفتى ابنِ رزينِ

فقال الحسين الخياط :

قَضَتْ عِنَانُ عَلَيْنَا بَأْنَ نَزُورَ حُسَيْنَا
وَأَنْ تَقْرُؤَا لَدَيْهِ بِالْقَصْفِ وَاللَّهِو عَيْنَا
فَمَا رَأَيْنَا كَطَرْفِ الْحُسَيْنِ فِيهَا رَأَيْنَا
قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ مِنْهُ زَيْنًا وَبَاعَدَ شَيْنَا
قوموا وقولوا أجزنا مَا قَدْ قَضَيْتِ عَلَيْنَا

وقالت عنان :

مَهَلًا فَدَيْتُكَ مَهَلًا عِنَانُ أُحْرَى وَأَوْلَى
بَأَنْ تَمْسَلُوا لَدَيْهَا أَسْنَى النَّعِيمِ وَأَحْلَى
فَإِنْ عِنْدِي حَرَامًا مِنْ الشَّرَابِ وَحِلًّا
لَا تَطْمَعُوا فِي سَوَائِي مِنَ الْبَرِّيَّةِ كَلًّا
يَا سَادَتِي خَبِّرُونِي أَجَازَ حُكْمِي أَمْ لَا

فقالوا جميعاً : قد أجزنا حكمك وأقاموا عندها . قال : وكتبت
عنان الى الفضل بن الربيع :

كُنْ لِي هُدًى إِلَى الْخَلِيفَةِ سُلْمًا بُورِكَتَ يَا بَزْوَزِيرِهِ مِنْ سُلْمٍ
حَثَّ الْإِمَامَ عَلَى شِرَائِي وَقُلَّ لَهُ رِيحَانَةٌ ذُخِرَتْ لِأَنْتِكَ فَأَشَمَمِ

وكانت عنان تتوقى أبا نواس وتخاف بكونه وسفهه ، وفيها يقول :

عِنَانُ يَا مَنْ تُشْبِهُ الْعَيْنَا أَنْتُمْ عَلَى الْحَبِّ تَلُومُونَا
حُسْنُكَ حُسْنٌ لَا يُدَى مِثْلُهُ قَدْ تَرَكَ النَّاسَ مَجَانِدِنَا

فهيأت لأبي نواس وتصنعت له الى أن صار اليها فرأى عندها بعض
وجوه أهل بغداد فأحب أن ينجلها ، فقال لها :

مَا تَأْمُرِينَ لِصَبِّ يَكْفِيهِ مِنْكَ قُطَيْرَةٌ

فقلت :

إِيَّايَ تَعْنِي بِهِذَا عَلَيْكَ فَأَجْلِدْ عُمَيْرَةَ

فقال :

إِنِّي أَخَافُ وَرُبِّي عَلَى يَدَيَّ مِنْ عُبَيْرَةٍ

فقلت :

عَلَيْكَ أُمَّكَ نِكْهَا فَإِنَّهَا كُنْدَبِيرَةٌ

فأخجلته ، وشاع الخبر حتى بلغ الرشيد فاستظرفها وطلبها من الناطقي
فجملت اليه فقال لها : يا عنان ، قالت : لبيك يا سيدي ، فقال : ما

تأمرين لصب ؟ قالت : قد مضى الجواب في هذا يا أمير المؤمنين ، قال :
بجياتي كيف قلت ؟ قالت : قلت :

إِيَّايَ تَعْنِي بِهَذَا عَلَيَّكَ فَاجْلِدْ عُمَيْرَةَ

فضحك الرشيد وطلبها من مولاها فاستام فيها مالا جزيلا فردها
(عريب جارية المأمون)

وَأَنْتُمْ أَنَاسٌ فِيكُمْ الْغَدْرُ شِيمَةٌ لَكُمْ أَوْجُهُ شَتَّى وَأُلسِنَةٌ عَشْرُ
عَجِبْتُ لِقَابِي كَيْفَ يَضْبُو إِلَيْكُمْ عَلَى عُظْمٍ مَا يَلْقَى وَلَا يَسْ لَهُ صَبْرُ

(فضل الشاعرة) حدثنا القاسم بن عبد الله الحراني قال : كنت عند
سميد بن حميد الكاتب ذات يوم وقد اقتصد ، فأنته هدايا فضل الشاعرة
ألف جدي ، وألف دجاجة ، وألف طبق رياحين ، وطيب وغبير ، وغير
وغير ذلك ، فلما وصل ذلك كتب إليها : ان هذا اليوم لا يتم سروره
إلا بك وبحضورك ، وكانت من احسن الناس ضربا بالعود ، وأملحهم صوتا ،
وأجودهم شعرا ، فأنته فضرب بينه وبينها حجباب ، وأحضر قوما ندماءه ،
ووضعت المائدة وجيء بالشراب ، فلما شربنا أفداحنا أخذت عودها فغنت
بهذا الشعر والصوت لها والشعر والأبيات هذه :

يَا مَنْ أَطَلْتُ تَفْرُسِي فِي وَجْهِهِ وَتَنْفُسِي
أَفْدِيكَ مِنْ مُتَدَلِّلِ يَزْهُو بِقَتْلِ الْأَنْفُسِ
هَبْنِي أَسَأْتُ وَمَا أَسَأْتُ بَلَى أَقُولُ أَنَا الْمُسِي
أُحْلَفْتَنِي أَنْ لَا أَسَأْتُ رِقُ نَظْرَةً فِي مَجْلِسِي
فَنَظَرْتُ نَظْرَةَ عَاشِقٍ أُتْبِعْتُهَا بِتَنْفُسِي

وَنَسِيتُ أَنِّي قَدِ حَلَمْتُ فَمَا يُقَالُ لِمَنْ نَسِيَ
وضربت أيضاً وغنت :

عَادَ الْحَبِيبُ إِلَى الرِّضَا فَصَفَحَتْ عَنَّا قَدَمَ مَضَى
مِنْ بَعْدِ مَا لَصُدُودِهِ سَمِيتَ الْحَسُودُ فَعَرَّضَا
تَعَسَّ الْبَغِيضُ فَلَمْ يَزَلْ لَصُدُودِنَا مُتَعَرِّضَا
هَبْنِي أَسْأْتُ وَمَا أَسَأْتُ تُوْفَانِ أَسْأْتُ لَكَ الرِّضَا

قال فما أتى علي يوم أسر من ذلك اليوم :

(صاحبة الفرزدق) ذكروا أن الفرزدق كان مع أصحاب له فاذا هو
بجارية مع مولاها فقال لاصحابه : هل أخجل لكم هذه؟ قالوا : نعم فقال :

إِنَّ لِي أُمْرًا خَبِيثًا لَوْ نُهِيَ يَجْكِي الْكُمَيْتَا
لَوْ يَرَى فِي السَّقْفِ صَدْعًا لَتَحَوَّلَ عَنَّا كَبُوتَا
أَوْ يَرَى فِي الْأَرْضِ شَقًّا لَنَزَا حَتَّى يَمُوتَا

فقال الجارية :

زَوَّجُوا هَذَا بِأَلْفِ وَأَرَى ذَلِكَ مُقُوتَا
قَبْلَ أَنْ يَنْقَلِبَ الدَّاءُ فَلَآ يَأْتِي وَيُوتَى

فخجل الفرزدق وانصرف : (١)

(١) في هامش الاصل . قيل ان هذه الردافة جرت بين ابي نواس وعنان
جارية الناطقي والايات تروى على غير هذا .

(صاحبة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي) قالت :

عَزَمْتُ عَلَى قَابِي أَنْ أَكْتُمَ الْهَوَى
فَإِنْ حَانَ مَوْتِي لَمْ أَدْعَكَ بَعْصَتِي
فَضَجَّ وَنَادَى إِنِّي غَيْرُ عَاقِلٍ
وَأَقْرَرْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ أَنَّكَ قَانِلِي

(جارية البارقي) ذكروا انها أشدت في مجلس عمرو بن مسعدة :

يَا أَحْسَنَ الْعَالَمِ حَتَّى مَتَى
وَكَيْفَ مَنجَايَ وَبَجْرُ الْهَوَى
يَرْتَفِعُ الْحُبُّ وَالْمَحْطُ
مُذْ حَفَّ بِي لَيْسَ لَهُ سَطُّ

فأجبت :

يُدْرِكُكَ الْوَصْلُ فَتَمْجُو بِهِ
أَوْ يَقَعُ الْبَحْرُ فَتَنْحَطُّ

(المغنية المديحة) قال علي بن الجهم : كنت في مجلس محمد بن عمرو بن مسعدة فأقبلت جارية كأنها البدر ليلة التهام بلدون كأنه الدر في البياض مع احمرار خدين كشقائق النعمان فسلمت ، فقال لي محمد : يا أبا الحسن هذه الجنة التي كنتم توعدون . فقالت :

وَمَا الْوَعْدُ يَا سُؤْلِي وَغَايَةَ مُنْتَبِي
فَإِنَّ فُؤَادِي مِنْ مَقَالِكَ طَائِرُ

فقال لها محمد :

أَمَا وَإِلَهُ الْعَرْشِ مَا قَلْتُ سَيِّئًا
وَمَا كَانَ إِلَّا أَنِّي لِكَ شَاكِرُ

فقال ابن الجهم :

أَمْسِكْ فِدَيْتِكَ عَنْ عِتَابِ مُحَمَّدٍ
فَهُوَ الْمَصُونُ لَوُدِّهِ الْمُتَحَادِرُ

فأقبلت تحدثنا ، فإذا عقل كامل ، وجمال فاضل ، وحسن قاتل ، وردف
أثنى فقلت : لقد أقر الله عيننا ترك فقالت : أقر الله أعينكم ، وزادكم
سرورا وغبطة ، ثم اندفعت تعني بنعمة لم أسمع أحسن منها :

أروح بهم من هواك مبرح أناجي به قلبا كثير التفكر
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فما زلنا يومنا ذلك معها في الفردوس الاعلى ، وما ذكرتها بعد ذلك
إلا اشتقت لها وأسفت عليها . محمد بن حماد قال : كنا يوما عند اسحاق
ابن نجيح وعنده جارية يقال لها : شادن موصوفة بجودة ضرب العود ، وشجو
صوت ، وحسن خلق ، وظرف مجلس ، وحلاوة وجه ، وأخذت العود وغنت :

ظي تكامل في نهاية حسنه فزها بيهجته وتاه بصده
فالشمس تطلع من فرند جبينه والبدر يغرق في شقائق خده
ملك الجمال بأنسه فكأنما حسن البرية كلها من عنده
يارب هب لي وصله وبقاهه أبدأ فلست بعائش من بعده

فطارت عقولنا ، وذهلت البانبا من حسن غنائها وظرفها فقلت :
يا سيدتي من هذا الذي تكامل في الحسن والبهاء سواك ؟ فقالت :

فإن مجت نالتي عيون كثيرة وأضعف عن كتابته حين أكرم

٣٠ - الأعرابيات

حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان قال : لما خرج المتوكل الى دمشق
كنت عديله فلما صرنا بقنسرين قطعت بنو سليم على التجار فأبى ذلك

أليه ، فوجه قائدا من وجوه قواده اليهم فحاصرهم ، فلما قربنا من القوم اذا نحن بجارية ذات جمال وهيئة وهي تقول :

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَمَا إِلَيْنَا سُمُوَ الْبَدْرِ مَالٍ بِهِ الْغَرِيفُ
فَإِنْ نَسَلْنَا فَعَفُوَ اللَّهُ نَرْجُو وَإِنْ نُقْتَلُ فَقَاتَلْنَا شَرِيفُ

فقال لها المتوكل : أحسنت ، ما جزاؤها يا فتحة ، قلت : العفو والصلة : فأمر لها بعشرة آلاف درهم وقال لها : مري الى قومك وقولي لهم : لا تردوا المال على التجار فاني اعرضهم عنه . الاصمعي قال : خرجت الى بادية فاذا أنا بخباء فيه امرأة فدنوت فسلمت فاذا هي احسن الناس وجهاء ، وأعداهم قامة ، وافصحهم لسانا فحارفيها بصري واعترتني خجلة فقالت ، ما وقوفك ؟ فقلت :

هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ مَخِيضِ الْيَوْمِ نَشْرَبُهُ
أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى تَقْبِيلِ عَيْنَيْكَ
فَلَسْتُ أَنبِي سِوَى عَيْنَيْكَ مَنزَلَةٌ
أَمْ هَلْ تَجُودِي لَنَا عَضًّا بِجَدِّكَ
أَوْ تَأْذِنِينَ بَرِيقِ مِنْكَ أَرْضُفُهُ
رُدِّي الْجَوَابَ عَلَى مَنْ زَادَهُ كَلْفًا
تَكَرُّرُهُ الطَّرْفِ فِي أَجْدَالِ مَا قَبِكَ

فرفعت رأسها إلي وقالت : يا شيخ ألا تستحي ارجع الى أهلك وارغب في مثلك . وقال بعضهم : رأيت أعرابية بالنجاح فقلت لها : أنتشدين ؟ قالت نعم في مثلك ورب الكعبة ، قلت : فأنشديني ، فأنشأت تقول :

لَا بَارِكَ اللَّهُ فِيمَنْ كَانَ يُخْبِرُنِي أَنْ الْمُحِبِّ إِذَا مَا شَاءَ يَنْصَرِفُ
وَجَدُ الْمُحِبِّ إِذَا مَا بَانَ صَاحِبُهُ وَجَدُ الصَّبِيِّ بِنْدَيْ أَبِي أُمِّهِ الْكَلِفُ

قال : قلت لها انشدني من قوالك فقالت :

بِنَفْسِي مَنْ هَوَاهُ عَلَى التَّنَائِي وَطُولِ الدَّهْرِ مُؤْتَنِقٌ جَدِيدُ
وَمَنْ هُوَ فِي الصَّلَاةِ حَدِيثُ نَفْسِي وَعَدْلُ الرُّوحِ عِنْدِي بَلْ يَزِيدُ

فقلت لها : ان هذا كلام من قد عشق . فقالت : وهل يعرى من
من ذلك من له سمع وقلب ؟ ثم أنشدني :

إِلَّا أَبِي وَاللَّهِ مَنْ لَيْسَ نَافِعِي بِشَيْءٍ وَلَا قَلْبِي عَلَى الْوَجْدِ نَاكِرُهُ
وَمَنْ كَبِدِي تَهْفُو إِذَا ذُكِرَ اسْمُهُ بِشَيْءٍ وَمَنْ قَلْبِي عَلَى النَّأْيِ ذَاكِرُهُ
لَهُ خَفَقَانٌ يَرْفَعُ الْجَيْبَ الشَّجْبِي وَيَقْطَعُ أَزْرَارَ الْجُرْبَانِ نَائِرُهُ

قال : وكتب عمر بن ابي ربيعة الى امرأة بالمدينة :

بَرَزَ الْبَدْرُ فِي جَوَارِ تَهَادِي مُخْطَفَاتُ الْخُصُورِ مُعْتَجِرَاتِ
فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ لِبَكْرِي عَجَلْتُ فِي الْحَيَاةِ لِي حِينَاتِ
هَلْ سَبِيلٌ إِلَى الَّتِي لَا أَبَالِي بَعْدَهَا أَنْ أَمُوتَ قَبْلَ وَفَاتِي

فأجابته :

قَدْ أَنَا الرَّسُولُ بِالْأَبْيَاتِ فِي كِتَابٍ قَدْ خُطَّ بِالتُّرَاهَاتِ
هَائِرُ الطَّرْفِ إِنْ نَظَرْتَ وَمَاطِرُ فُكِّ عِنْدِي بِصَادِقِ النَّظَرَاتِ

عُرِّ غَيْرِي فَقَدْ عَرَفْتُ لِعَمِيرِي عَهْدَكَ الْخَائِنَ الْقَلِيلَ الثَّبَاتِ

٣١ - محاسن المتكلمات

حدث عمر بن يزيد الاسدي قال : مررت بخرقاء صاحبة ذي الرمة فقلت لها : هل حجبت قط ؟ قالت : أما علمت أي منسك من مناسك الحج ما منعك أن تسلم علي أما سمعت قول عمك ذي الرمة :

تَمَامُ الْحِجِّ أَنْ تَقِفَ الْمَطَايَا عَلَى خَرْقَاءَ وَإِضَاعَةَ اللِّثَامِ

فقلت لها : لقد أثر فيك الدهر ، قالت أما سمعت قول العجيف العقيلي حيث يقول ؟ :

وَخَرْقَاءُ لَا تَرْدَادُ إِلَّا مَلَا حَةَ . وَلَوْ عُمِّرَتْ أَعْمِيرَ نُوْحٍ وَجَلَّتْ

قال : ورأيتها وإن فيها لمباشرة ، وأن ديباجة وجهها لطرية كأنها فتاة ، وأنها لتزيد يومئذ على المائة ، واقد حدثت أنه شُبب بها ذو الرمة وهي ابنة ثمانين سنة . وحدث رجل من بني أسد قال : أدركت ميا صاحبة ذي الرمة وكان الرجل أعور قال : ورأيتها في نسوة من قومها فقلت : أهذه مي ؟ وأومأت إليها ، فقلنا : فقلت ما أدري ما كان يعجب ذا الرمة منك وما أراك علي ما كان يصف ؟ فتنفست الصعداء وقالت : انه كان ينظر بعينين وأنت تنظر الي بعين واحدة . وروى الأصمعي عن رجل من أهل الشام قال : قدمت المدينة فقصدت منزل ابن هرمة فاذا بنية له تلعب فقلت لها : ما فعل أبوك ؟ قالت : وفد الى بعض الاخوان ، قلت : فالحري لنا ناقة فانا أضيافك ، قالت : باعاه والذي خلقك ما عندنا شيء ، قلت : فباطل ما قال أبوك ؟ قالت : فما قال قلت قال :

كَمْ نَاقَةٍ قَدْ وَجَّاتُ مَنَحَرَهَا لِمُسْتَهْلٍ الشُّؤْبُوبِ أَوْ جَمَلٍ

قالت : يا عماء فذلك القول من أبي أصارنا الى أن ليس عندنا شيء ؛
قال : وأتى زياد الأقطع باب الفرزدق وكان له صديقاً ؛ فخرجت اليه
ابنة الفرزدق وكانت تسمى مكية وأما حبشية ، فقال لها : ما اسمك ؟
قالت : مكية قال : ابنة من ؟ قالت : ابنة الفرزدق قال : فأملك
قالت : حبشية فأمسك عنها فقالت : ما بال يدك مقطوعة ؟ قال : قطعها
الحوروية قالت بل قطعت في اللصوصية قال : عليك وعلى أبيك لعنة الله ،
وجاء الفرزدق فأخبر بالخبر فقال : أشهد أنها بنتي ، وأنشأ يقول :

حَامٍ إِذَا مَا كُنْتَ ذَا حَمِيَّةٍ بِدَارِمِيٍّ بِنْتُهُ صَبِيَّةٌ
صَمَّخَمَحٍ مِثْلِ أَبِي مَكِيَّةِ

وحدث سليمان ابن عباس السعدي قال : كان كثير يلقي حاج أهل
المدينة بقديد على ست مراحل ، ففعل عاماً من الاعوام غير يومهم الذي
نزلوا فيه فوقف حتى ارتفع النهار فركب جملاً في يوم صائف ووافى قديداً
وقد كل بعيره ونعب ، فوجدهم قد ارتحلوا وقد بقي فتى من قریش فقال
الفتى لكثير : اجلس قال : فجلس كثير الى جنبي ولم يسلم علي ،
فجاءت امرأة وسبية جميلة فجلست الى خيمة من خيام قديد واستقبلت
كثيراً فقالت : أنت كثير ؟ قال : نعم ، قالت : أنت ابن أبي جمعة ؟
قال نعم قالت : أنت الذي تقول :

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَجْلَانِ مَجْلِسِي وَأُضْمِرَنَّ مِنِّي هَيْبَةً لَا تَجِبُهَا

قال : نعم ، قالت : فعلى هذا الوجه هيبة ان كنت كاذباً فعليك
لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قال : فضجر كثير وقال : ومن
أنت ؟ فسكتت ولم تجبه بشيء ، فسأل الموالي التي في الخيام عنها فلم

يخبونه ، فضجر واختاط عقله ، فلما سكن قالت : أنت الذي تقول :

مَتَى تَنْشُرَا عَنِّي الْعِمَاءَ تُبْصِرَا جَمِيلَ الْحَيَا أُغْفَلْتَهُ الدَّوَاهِنُ

أهذا الوجه جليل ؟ ان كان كاذباً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فاختلط وقال لو عرفتك لفعلت وفعلت ، فلما ، سكن قلت له : أنت الذي تقول :

يَرُوقُ الْعُيُونُ النَّاطِرَاتِ كَأَنَّهُ هِرَقْلِيُّ وَزَنِ أَحْمَرَ التُّبْرِ رَاجِحُ

أهذا الوجه الذي يروق الناظرات ؟ ان كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين قال : فازداد ضجراً واختلط وقال : لو عرفتك والله لقطعتك وقومك مجاه ، ثم قام فاتبعته طرفي حتى تواري عني ، ثم نظرت الى المرأة فإذا هي قد غابت عني فقلت : لولاة من بنات قديد لك الله على أن أخبرني من هذه المرأة أن أطوي لك ثوبي هذين اذا قضيت حجي ثم أعطيكها فقالت : والله لو أعطيتني زنتها ذهباً ما أخبرتك من هي ؟ هذا كثير مولاي لم أخبره ، قال القرشي : فرحت وبني أشد بما بكثير . قيل : وقدم كثير الكوفة وكان شيعياً من أصحاب محمد بن الحنفية فقال : دلوني على منزل قطام ، قيل له : وما تريد منها ؟ قال : أريد أن أوبخها في قتل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقيل له : عد عن رأيك فان عتلها ليس كعقول النساء ، قال : لا والله لا أنتهي حتى انظر اليها وأكلها ، فخرج يسأل عن منزلها حتى دفع اليها فاستأذن فأذنت له ، فرأى امرأة برزة قد تحددت وقد حنا الدهر من قناتها فقالت : من الرجل ؟ قال : كثير بن الرحمن ، قالت : التبيخي الخزاعي ؟ قال : التبيخي الخزاعي ، ثم قال لها : أنت قطام ؟ قالت : نعم ، قال : أنت صاحبة علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، قالت : بل صاحبة عبد الرحمن بن ملجم ، قال : أليس هو قتل علياً ؟ قالت : بل مات

بأجله ، قال : والله اني كنت احب أن أراك الما رأيتك نبت عيني عنك ،
وما ومقك قلبي ، ولا احلوايت في صدري قالت : انت والله قصير القامة
صغير الهامة ضعيف الدئامة كما قيل : لأن تسمع بالمعيدي خير من ان
تراه ، فأنشأ كثير بقول :

رَأَتْ رَجُلًا أَوْ ذَى السَّفَارِ بِحِسْمِهِ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْطِقٌ وَجَنَاجِنُ

قالت لله درك ما عرفت إلا بعزة تقصيراً بك ، قال : والله لعد
سار لها شعري ، وطار بها ذكري ، وقرب من الخلفاء مجلسي ، وإنيها
لكما قلت فيها :

وَإِنْ خَفِيَتْ كَأَنْتَ أَمِينِيكَ قُرَّةً وَإِنْ تَبَدُّ يَوْمًا لَمْ يَعْمَكَ عَارُهَا
مِنْ أَخْفَرَاتِ الْبَيْضِ لَمْ تَرِ شِقْوَةَ وَفِي الْحَسَبِ الْحَضِّ الرَّفِيعِ نَجَارُهَا
فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى يَمْسُجُ النَّدَى جَنَجَانُهَا وَعَرَارُهَا
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إِذَا جِئْتَ طَارِقًا
وَقَدْ أَوْقَدْتَ بِالْمَنْدَلِ الرُّطْبِ نَارُهَا

قالت : والله ما سمعت شعراً أضف من شعرك هذا ، والله لو فعل
هذا بزنجية طاب ريجها ألا قلت كما قال امرؤ القيس :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجِدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

قال فله در بلادك وخرج وهو يقول :

أَلْحَقْ أَتَبِجُ لَا تَزِيغُ سَبِيلَهُ وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ

قال : وقال المسيب رواية كثير : انطلق كثير مرة فقال لي : هل

لك في عكرمة بن عبد الرحمن بن هشام ؟ وهو يومئذ علي حنظلة بن عمرو ابن نعيم ، فقلت : نعم قال : فخرجنا نريده حتى اذا صدرنا عن المدينة اذا نحن بامرأة على راحلة تسير فسرت حذاءها فقالت : أتروي لكثير شيئاً قلت : نعم قالت أنشدني ، فأنشدتها من شعره : فقالت : أين هو ؟ قلت هو ذلك الذي ترين على غير الطريق فقالت بعد ان دنت منه : قاتل الله زوج عزة حيث يقول :

لَمَرُّكَ مَا رَبُّ الرَّبَابِ كَثِيرٌ يَنْحَلِي وَلَا أَبَاؤُهُ بِفَجْوَلِ

فغضب كثير وسار وتركها ، ثم نزل منزلاً فجاءت جارية لها تدعوه فأبى كثير ان يأتيها فقلت : ما رأيت مثلك قط امرأة مثل هذه توصل اليك فتأبى عليها فلم أزل به حتى أتتها قال : فسفرت عن وجهها ، فاذا هي اجمل الناس واكملهم ظرفاً وعملاً ، واذا هي غاضرة ام ولد بشر بن مروان فصحبناها حتى كنا بزلة فهالت بنا الطريق فقالت له : هل لك أن تأتي الكوفة فأضخن لك على بشر الصلة والجائزة ؟ فأبى وامرت له بخمسة آلاف درهم ولي بألفين فلما اخذنا الخمسة الآلاف قال : ما اصنع بمكرمة ، وقد اصبت ما توي فذلك قوله حيث يقول :

شَجَا أَظْمَانُ غَاضِرَةَ الْعَوَادِي بغيرِ مَشُورَةٍ عِوَضًا فُؤَادِي
أَغَاضِرَ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ بِنْتِمْ حُنُوءَ الْمَائِدَاتِ عَلِي وَسَادِي
رَثَيْتِ لِعَاشِقٍ لَمْ تَشْكُمِيهِ جَوَانِحُهُ تَلَذُّعُ بِالزَّنَادِ

— الشكيمة — العطيه و — الزناد — جمع زند وهو عود يقدح منه النار ، قال الحكم بن صخر الثقفي : حججت فرأيت بأقررة امرأتين لم أر كجهلها وظرفها ونياهما ، فلما حججت وصرنا بأقررة اذا أنا باحدي الجاريتين قد جاءت فسألت سؤال منكر فقلت : فلانة ؟ قالت : فذاك

أبي وأمي رأيتك عاماً أول شاباً سوقة والعام شيخاً ملكاً وفي وقت دون ذلك ما تنكر المرأة صاحبها ، فقلت : ما فعلت أختك ؟ فتنفست الصعداء وقالت : قدم علينا ابن عم لنا فتزوجها فخرج بها الى نجد فذاك حيث أقول :

إِذَا مَا قَفَلْنَا نَحْوَ نَجْدٍ وَأَهْلِهِ فَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا الْقَفُولُ إِلَى نَجْدٍ

فقلت : أما اني لو أدركتها لتزوجتها ، قالت : فذاك أبي وأمي ، فما يمنعك من شربكتها في حسنها ، وشقيقتها في حسبها ، قلت : قول كثير :

إِذَا وَصَلَتْنَا خُذَّةً كَبِيْرًا تَزِيلُنَا أَيْدِنَا وَقُلْنَا الْحَاجِيَّةُ أَوْلُ

قالت : وكثير بيني وبينك أليس هو الذي يقول :

هَلْ وَصَلُ عَزَّةً إِلَّا وَصَلُ غَانِيَةً فِي وَصَلِ غَانِيَةٍ مِنْ وَصَلِهَا خَافُ

قال : فتركت جوابها ولم يمنعني منه الا العي .

٣٢ — محاسن النساء

قيل : أحسن النساء الرقيقة البشرة النقية اللون يضرب لونها بالعداء الى الحمرة وبالعشي الى الصفرة . وقالت العرب : المرأة الحسناء أرق ما تكون محاسن ، صبيحة عرسها ، وأيام نفاسها ، وفي البطن الثاني من حملها . وقيل لاعرابي أنحسن صفة النساء ؟ قال : نعم اذا عذب ثناياها ، وسهل خذاها ، ونهد ندياها ، وفعمم ماعداها ، والتف فخذاها ، وعرض وركاها ، وجدل ساقاها فتلک هم النفس ومناها . ووصف أعرابي امرأة فقال : كان وجهها السقم لمن رآها ، والبرء لمن ناجاها ، وذكر أعرابي امرأة فقال : أرسل الحسن الى خديها صفائح نور ورشق السحر عن لحظها بأسهم حداد ، ولقد

تأملت فوجدت للبدر نورا من بعض نورها . وذكر أعرابي امرأة فقال :
هي شمس تباهي بها شمس سمائها ، وليس لي شفيح اليها غيرها في اقتضاها ،
ولكني كتوم لفيض النفس عند امتلائها . وذكر أعرابي امرأة فقال :
ما أحسن من حبها نغاسا ولا أنظر اليها الا اختلاسا ، وكل أمرىء منها
يرى ما أحب . وذكر أعرابي امرأة فقال : لها جند من أولؤ رطب مع
رائحة المسك الاذفر في كل عضو منها شمس طالعة (وبما جاء في الحسن
من الشعر) قال عبدالله بن المعتز : أنشدني أبو سهل أسماعيل بن علي لأبي
الصواعق :

ومريضٍ طَرْفٍ أَيْسَ يَطْرِفُ طَرْفَهُ
نَحْوَ الْمَدَى إِلَّا رَمَاهُ بِحَتْفِهِ
ظَبِيٌّ لَهُ نَظَرٌ ضَعِيفٌ كَمَا
قَصَدَ الْقَوِيَّ أُنَى عَائِيهِ بِضَعْفِهِ
قَدْ قَلْتُ أَمَا مَرَّ بِحَطْرٍ مَائِسًا
وَالرَّدْفُ يُجْذِبُ خَضْرَهُ مِنْ خَلْفِهِ
يَا مَنْ يُسَلِّمُ خَضْرَهُ مِنْ رَدْفِهِ
سَلِّمُ فُؤَادَ مُجِبِّهِ مِنْ طَرْفِهِ

قلنت في هذا المعنى وعلى هذا الوزن :

وَحَيَاةٍ مِنْ جَرَحِ الْفُؤَادِ بِطَرْفِهِ
لَأَحْبَرَنَّ قِصَائِدِي فِي وَصْفِهِ
قَمَرٌ بِهِ قَمَرُ السَّمَاءِ مُتَمِيمٌ
كَالْفُضْنِ يَعْجَبُ نِصْفُهُ مِنْ نِصْفِهِ
إِنِّي عَجِبْتُ لِحَضْرِهِ مِنْ ضَعْفِهِ
مَاذَا تَحْمَلُ مِنْ ثِقَالَةِ رَدْفِهِ
هَذَا وَمَا أُذْرِي بِأَيِّهِ فِتْنَةً
جَرَحَ الْفُؤَادِ بِلُطْفِهِ أَمْ طَرْفِهِ
أَمْ بِالذَّلَالِ أَمْ الْجَمَالِ أَمْ الضِّيَا
مِنْ وَجْهِهِ أَمْ بِالْقَفَا مِنْ خَلْفِهِ

وأنشد أبو الحسين بن فهم لأبي نواس :

كفالك ما مرَّ على راسي من شادينٍ قطعَ أنفاسي
أكثرُ ما أبلغُ في وصفه تحيُّري من قلبه القاسي
أغارُ أن أنتَ منه الذي ينعتُه الناسُ من الناسِ
ولم أرَ العشاقَ قبلي رأوا بوصفٍ من يهوونَ من باسِ
كلُّ أحاديثي نعتٌ له منكشفٌ منِّي جلاسي

قلت في هذا المعنى وهذا الروي والوزن :

لو عشرُ ما مرَّ على راسي مرَّ بصلدٍ حَجَرَ قاسي
لأنصدعت فيه صدوعٌ كما صدَّعَ قلبي طولٌ ونسواسي
يا غصنَ آسٍ ومحالٍ إذا قصَّرتُ تشبيوكَ بالأسِ
ماذا على طرفك لو أنه أعارَ لحظاً منه قرطاسي
ليتك علَّتَ بمطلٍ ولم تقطعُ رجائي منك بالياسِ

وقال آخر :

وزائرةٌ يحتمُّها الشوقُ طارقه أتتنامن ألفردوسٍ لاشكَّ آبقه
إذا ما تئنَّتْ قالَ للريحِ قدُّها

كذا حرُّ كي الأغصانِ إن كنتِ صادقَه

وقال آخر :

قد أقبل البدرُ في قرأطقه
يسطو عليه بسيفِ مقلتهِ
يسلبُ بالدلِّ قلبَ عاشقه
لا بالذي شدَّ في مناطقه

وقال آخر :

قل للملاحِ الحدقِ
هل في فؤادي للقوى
إن لم تُرووا عطشي
يا مُقلّةً أجفائها
وللحسانِ الخلقِ
أوجسدي شيءٌ بقي
بخلاً فبلّوا رمقي
يا مُقلّةً أجفائها
بقيت في رقِّ الهوى
مخشوةً بالأرقِ
شقيةً فيمن شقي

وقال آخر :

يا ملاحَ الدلالِ والاعتجاجِ
أنت زرفنت فوقَ خديك صدغاً
ما أرى القلبَ من هواك ناجي

من عبيرٍ على صفائحِ عاجِ
أشرفتُ وجنتاك بالنورِ حتى
أغنتنا الخلقَ عن ضياءِ السراجِ
فعلتُ مقلتك بالقلبِ مني
فعله القرّمطيُّ بالحجاجِ
يا هلالاً أنتُ منه بضوءِ
جئحِ إيلٍ من الظلامِ الداجي

وقال آخر :

نَشَرَتْ غَدَائِرَ فَرَعِهَا لِتُظَلَّنِي حَذَرَ الْعُيُونِ مِنَ الْعُيُونِ الرَّمَقِ
فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّني صُبْحَانَ بَاتَاتِ تَحْتَ لَيْلٍ مُطْبِقِ

وقال آخر :

يَا غَزَالًا وَهَلَالًا وَقَضِيبًا وَكُنْدِيَا
كَمْ وَكَمْ أَضْمِرٌ وَجَدًّا بِكَ مَكْتُومًا عَجِيبًا
كَيْفَ يُزْجِي بُرَّةٌ مَنْ قَدِ كَتَمَ الدَّاءَ الطَّيْبِيَا

وقال آخر :

شَمْسٌ مُمَثَّلَةٌ فِي خَلْقِ جَارِيَةٍ كَأَنَّهَا بَطْنُهَا طَيُّ الطَّوَامِرِ
فَالْجِسْمُ مِنْ جَوْهَرٍ وَالشَّعْرُ مِنْ سَبِجٍ وَالتَّغْرُ مِنْ لَوْلُوٍّ وَالْوَجْهُ مِنْ عَاجِ

وقال آخر :

نَتِيحٌ دَلَالٍ حَارٍ فِي مُحْسِنِهِ الطَّرْفُ بَدِيعٌ جَمَالٍ زَانَهُ الْعَقْلُ وَالظَّرْفُ
فَفَكَّرَتْهُ قَبْرٌ وَمَنْطِقُهُ لُطْفُ لَهُ رَيْقَةٌ عُلَّتْ بِمَاءِ قَرْنُقَلِ
سَمَاوِيٍّ لَوْنٌ لَا يُحِيطُ بِهِ وَصَفُ تَجَسَّمٌ فِي جِسْمٍ مِنَ النُّورِ سَاطِعِ
يُمَازِجُهَا التَّفَاحُ وَالْخَمْرَةُ الصَّرْفُ تَمَكَّنَ فِي دِعْصٍ يَنْوِي بِهِ رِدْفُ

عَلَى صَخْنِ خَدَّيْهِ بِهَارٍ مُنَوَّرٍ وَوَرْدٍ جَنِيٍّ لَا يَلِيْقُ بِهِ الْقَطْفُ
تَكَامَلَ فِيهِ الْحُسْنُ وَالنُّورُ وَالْبَهَا

كَبَدْرِ الدُّجَى إِذ تَمَّ مِنْ شَهْرِهِ النِّصْفُ
بِرَاهُ إِلَهِي لِي عَذَابًا وَفِتْنَةً فَمَا عِنْدَهُ عَدْلٌ وَلَا عِنْدَهُ عَطْفُ

وقال آخر :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَيَّ فِيكَ يَهْوُنُ
قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ أَكُونَ شَقِيًّا بِكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ
يَا غَزَالًا بِلَحْظِهِ يَفْتِنُ النَّاسَ سَ وَفِي طَرْفِهِ الرَّدَى وَالْمَنُونُ
لَكَ صَبْرٌ وَلَيْسَ لِي عَنْكَ صَبْرٌ فَأَنَا الْيَوْمَ هَائِمٌ مَحْزُونُ
قَدْ خَلَعْتُ الْعِدَارَ فِيكَ حَبِيبِي مَا أَبَالِي بِمَا رَمَتْنِي الظُّنُونُ

وقال آخر :

يَا نَظْرَةَ جَاءَتْ عَلَى يَاسٍ مِنْ سَاحِرِ الْمُقَلَّةِ مَيَّاسٍ
أَطْرَافُهُ تُتَقَدُّ مِنْ لِينِهَا وَقَلْبُهُ كَالْحَجَرِ الْقَاسِي
يَلُوْمُنِي النَّاسُ عَلَى حُبِّهِ أَعَانَنِي اللَّهُ عَلَى النَّاسِ

وقال آخر :

يَا وَيْحَ جِسْمٍ يَدُوبُ مِنْ قَلْقِهِ مِنْ حُبِّ مَنْ لَمْ أَقِفْ عَلَى خُلُقِهِ
مِنْ حُبِّ ظَنِّي مُهْفَفٍ لَبِقٍ يَهْتَزُّ مِثْلَ الْقَضِيبِ فِي وَرَقِهِ

لَمْ تَرَ عَيْنِي وَلَنْ تَرَى أَبْدَاءُ
كَأَنَّمَا الْمِسْكُ حِينَ تَسْحَقُهُ
أَوْ خَمْرَةٌ فِي الزُّجَاجِ صَافِيَةٌ
أَحْسَنَ مِنْ نَحْرِهِ وَمِنْ عُنُقِهِ
بِمَاءٍ وَرْدٍ يَفُوحُ مِنْ عَرَقِهِ
شِيْبَتِ بِمَاءِ السَّحَابِ فِي نَسَقِهِ

وقال آخر :

أَرْبَعَةٌ قَرَّحَتْ فَوَادِي
مُثَلَّةٌ خَشْفٍ وَقَدْ غُضِنِ
نَفْسِي وَمَالِي فِدَاءَ ظَلِي
فَمَنْ لَصَبٍ أَسِيرٍ شَوْقِي
فَطَالَ وَجَدِي وَعَيْلَ صَبْرِي
وَطِيبُ وَرْدٍ وَحُسْنُ بَدْرِي
أَذَابَ جِسْمِي وَلَيْسَ يَذْرِي
قَتِيلُ صَبِّ سَيْفِ هَجْرِي

وقال آخر :

وَمَارِيحُ رِيحَانٍ بِمِسْكِ وَعَنْبَرِي
بِأَطْيَبِ مَنْ رِيَا حَبِيبِي لَوْ أَنِّي
يَعْلُ بِكَافُورٍ وَدُهْنَةِ بَانِ
وَجَدْتُ حَبِيبِي خَالِيًا بِمَكَانِ

٣٣ - محاسن التزويج !

روي أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله اني أريد أن أتزوج فادع الله أن يرزقني زوجة صالحة ، فقال : (لو دعا جبريل وميكائيل وأنا معها ما تزوجت الا المرأة التي كتب الله لك فانه ينادي في السماء ألا ان امرأة فلان بن فلان فلانة بنت فلانة) . وقال صلى الله عليه وسلم (عليكم بالابكار فانهن أطيب أفواها وأنتق أرحاما) . وقال عمر رضي الله عنه : عليكم بالابكار وامتنعوا بالله من شرار النساء وكونوا

من خيارهن على حذر قال الشاعر :

لَا تَنْكِحَنَّ عَجُوزًا إِنْ دُعِيَتْ لَهَا وَإِنْ حُبِّبْتَ عَلَى تَرْوِيجِهَا الذَّهَبَا
فَإِنْ أَتَوَكَ وَقَالُوا إِنَّهَا نَصَفٌ فَإِنَّ أَطْيَبَ نِصْفَيْهَا الَّذِي ذَهَبَا
وقال آخر :

عَلَيْكَ إِذَا مَا كُنْتَ لَا بُدَّ نَاكِحًا ذَوَاتِ الثَّنَايَا الْغُرِّ وَالْأَعْيُنِ النَّجْلِ
وَكُلَّ هَضِيمِ الْكَشْحِ خَفَاقَةَ الْحِشَا قَطُوفَ الْخَطَا بَلْهَاءَ وَافِرَةَ الْعَقْلِ

وقال الحارث بن كلدة : لا تنكحوا من النساء إلا الشابة ، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتى ، ولا من الفاكهة إلا النضيج . وقال مغيرة بن شعبه : حصنت تسعاً وتسعين امرأة ما أمسكت واحدة منهن على حب ولكنني أحفظها لمنصبها وولدها ، فكنت استرضيهن بالباه شاباً ، فلما أن شبت وضعفت عن الحركة استرضيتهن بالعطية . وقال بعضهم : لذة المرأة على قدر شهوتها ، وغيرها على قدر لذتها ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (إنما النساء لعب فاذا تزوج أحدكم فليستحسهن) . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : تزوجها سمراء ذلفاء عيناء فان فركتها فعلى صداقها . وقال الحجاج بن يوسف : من تزوج قصيرة فلم يجدها على ما يريد فعلى صداقها . وروى عن علي صلوات الله عليه أن رجلاً أتاه فقال : اني تزوجت امرأة مجنونة ، فقالت المرأة : يا امير المؤمنين انه يأخذني عند الجماع غشية ، فقال للرجل : ما أنت لها بأهل . وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (إياكم وخضراء الدمن — وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء —) ، وقال بعضهم : لا تتزوجن حنانة ولا ائانة ولا منانة ولا عسبة الدار ولا كبة القفا — فأما الحنانة — فالتى قد تزوجها رجل من قبل فهي تمنح اليه — والائانة — التى تمنع من غير علة — والمنانة — التى لها مال تمنع — وعسبة الدار — الحسناء فى أصل السوء — وكبة القفا — التى اذا قام

زوجها من المجلس قال الناس فعلت امرأة هذا كذا وفعلت كذا . وقال
محمد بن علي رضي الله عنهما : اللهم ارزقني امرأة تسرني اذا نظرت ، وتطيعني
اذا أمرت ، وتحفظني إذا غبت . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : اذا
خطب أحدكم امرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها وإن كانت لا تعلم ، وقال
بعض الشعراء في تزويج الشبه :

إِذَا أَرَدْتَ حُرَّةً تَبَغِيهَا كَرِيمَةً فَانظُرْ إِلَى أُخِيهَا
يُنْبِيكَ عَنْهَا وَإِلَى أَبِيهَا فَإِنَّ أَشْبَاهَ أَبِيهَا فِيهَا

وقال آخر :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادًا لِنَفْسِكَ أَيَّمَا لِنَجَلِكَ فَانظُرْ مَنْ أُبُوها وَخَالِهَا
فَإِنَّهَا مِنْهَا كَمَا هِيَ مِنْهَا كَمَا النَّعْلُ إِنْ قَيْسَتْ بِنَعْلِ مِنْهَا

وقال آخر :

إِذَا كُنْتَ عَنْ عَيْنِ الصَّبِيَّةِ بَاحِثًا فَأَبْصِرْ تَرَى عَيْنَ الصَّبِيِّ فَذَلِكَ

قال خالد بن صفوان لدلال : أطلب لي امرأة بكرأ أو كبر حسانا
عند جارها ماجنة عند زوجها قد أدها الغنى وذلها الفقر ، لا ضرة صغيرة ،
ولا عجزاً كبيرة ، قد عاشت في نعمة وأدركتها حاجة ، لها عقل وافر ،
وخلق طاهر ، وجمال ظاهر ، صلة الجبين ، سهلة العينين ، سوداء المقلتين ،
خدجة الساقين ، لقاء الفخين ، نبيلة المقعد ، كريمة المختد ، رخيمة المنطق ،
لم يداخلها صلف ولم يشن وجهها كلف ، ويجهها أرج ، ووجهها بهج ،
لينة الاطراف ، ثقيلة الازداف ، لونها كالرق ، ونديها كاللحى ، أعلاها عسيب ،
وأسفلها كتيب ، لها بطن مخطف ، وخصر مرهف ، وجيد أتلع ، ولب مشبع ،
تثنى ثنني الخيزران ، وتميل ميل السكران ، حسنة المآق ، في حسن البراق ،

لا الطول أزرى بها ولا الفصر قال الدلال : استفتح ابواب الجنان ، فانك سوف تراها .
وقال أيضاً : لا تتزوج واحدة فتحيض اذا حاضت وتنفس اذا نفست وتعود
اذا عادت وتمرض اذا مرضت ، ولا تتزوج اثنتين فتقع فيما بين الجرتين ،
ولا تتزوج ثلاثا فتقع بين اثني ، ولا تتزوج اربعا فيحقرنك ويهرمنك ويفلسنك ،
فقال له رجل : حرمت ما احل الله ، فقال : طمران و كوزان و رغيفان و عبادة
الرحمن . وعن صالح بن حسان قال : رأيت امرأة بالمدينة يقال لها حواء
وهي التي علمت نساء المدينة النقع وعمو السخر والحركة والغربة والرهز ،
وكانت لها سقيفة تتحدث اليها رجالات قريش ولم يكن في المدينة
اهل بيت إلا وتأخذ صبيانهم وقصصهم ثديها أو ثدي إحدى بناتها فكان
اهل المدينة يسمونها حواء . ولم يكن بالمدينة شريف من يجلس في
من يجلس في سقيفتها الا واصل اليها في السنة ثلاثين وسقا وأكثر
من طعام وتمر مع الدنانير والدرهم والحلدم والكساء ، فجاءها
ذات يوم مصعب بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص وابن عبد الرحمن
ابن ابي بكر فقالوا لها : يا خالة قد خطبنا نساء من قريش ولسانا نتفح
الا بنظرك اليهن فارشدينا بفضل علمك فيهن ، فقالت لمصعب : يا ابن ابي
عبدالله ومن خطبت ؟ قال : عائشة بنت طلحة ، قالت : فأنت يا ابن الصديق
قال : أم القاسم بنت زكرياء بن طلحة ، قالت : فأنت يا ابي أحبجة
قال : زينب بنت عمرو بن عثمان . فقالت : يا جارية علي بمقلي - تعني
خفيها - أأتها بها فخرجت ومعها خادم لها فأنت عائشة بنت طلحة فقالت :
مرحبا بك يا خالة فقالت : يا بني انا كنا في أدبة لقريش فلم تبق امرأة
لها جمال الا ذكرت وذكر جمالك ، فلم أدرك كيف أصفك فتجودي لانظرك
فألفت درعها ثم مشيت وارتج كل شيء منها ، ثم أقبلت على مثل ذلك
فقال : فذاك ابي وأمي خذي ثوبيك وأنتهن جميعاً على مثل ذلك ، ثم رجعت

الى السقيفة فقالت : يا بن ابي عبد الله ما رأيت مثل بنت طلحة عائشة
قط بملئة التراب زجاء العينين هدبة الأشعار مخطوطة المتمين ضخمة العجيزة
لفاء الفخذين مسرولة الساقين ، واضحة الشعر نقيه الوجه فرعاء الشعر الا انني
رايت خلتين هما اعيب ما رايت فيها : اما احدهما فيواربها الخف وهي
عظم القدم ، والأخرى يواربها الخمار وهي عظم الاذن ، واما انت يا بن
احيعة فما رايت مثل زينب بنت عمرو فراهة قط الا ان في الوجه ردة
ولكني مشيرة عليك بأمر تستأنس اليه وهي ملاحه تعتر بها واما انت يا بن
الصديق فوالله ما رايت مثل ام القاسم ما شبهتها إلا بخوط بانه تشنى او خشف
يتقلب على رمل ولم أرها إلا فوق الرجل واذا زادت على الرجل المرأة لم
تحسن لا والله الا من يملأ المنكبين فتزوجوهن . وقال أعرابي في أخت
له تزوجت بغير كفو :

وَلَوْ رَكِبْتُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ بِأَقْبَحَ عِنْدَ اللَّهِ مِمَّا أَسْتَحَلَّتْ

قال : وكان بالمدينة رجل قد اعطي جودة الرأي ولم يكن فيها من يريد
إبرام امر الا ساوره ، فأراد رجل من فريش ان يتزوج فأتاه فقال : انا
اريد ان اضم الي اهلا فأشر علي ، قال : افعل تحصن دينك وتغن مؤونتك
وإياك والجمال البارع قال : ولم نهيتني وانما هو نهاية ما يطلب الناس ؟
قال : لانه ما فاق الجمال الا لحقه قول اما سمعت قول الشاعر ؟ :

وَلَنْ تُصَادِفَ مَرَعِي مَوْثِقًا أَبَدًا إِلَّا وَجَدْتَ بِهِ آثَارَ مَا كُولِ

قيل : وكانت جارية من بنات الملوك تكره التزويج فاجتمع عندها
نسوة فتذاكرن التزويج وقلن لها ما يمنعك منه ؟ قالت : وما فيه من الخير ؟
قلن : وهل لذة الميش الا في التزويج ؟ قالت فلتصف كل واحدة ممنكن
ما عندها فيه من الخير حتى اسمع ؟ فقالت احدها من : زوجي عوني في الشدائد
وهو عاندي دون كل عائد ان غضبت عطف وان مرضت لطف قالت :

نعم الشيء هذا ، قالت الاخرى : زوجي لما عناني كلف ولما اسقمني شاف عرقه المسك المداف وعناقه كالحلحله ولا يمل طول العهد ، قالت : هذا خير منه ، قالت الاخرى : زوجي الشمار حين ابرد وانيسي حين ابرد ، فتزوجت فقلن لها : يا فلانة كيف رأيت ؟ قالت : انعم النعيم وسرورا لا يوصف والذة ليس منها خلف

٣٤ - أمثال في التزويج

قيل : ان اول من قال لاهنك انقيت ولا ماءك ابقيت : الضب بن اروي الكلاعي ، وذلك انه خرج من ارضه فلما سار اياما حار في تلك المفاوز التي تسفها وتخلف عن اصحابه وبقي فردا يعسف فيها ثلاثة ايام حتى دفع الى قوم لا يدري من هم ، فنزل عليهم وحدثهم وكان جميلا وان امرأة من افاضل اولئك هويته ، فأرسلت اليه ان احطبني فخطبها ، وكانوا لا يزوجون الا شاعرا او رجلا يزجر الطير او يعرف عيون النساء فسألوه فلم يحسن شيئا من ذلك فلم يزوجوه ، فلما رأت امرأة ذلك زوجته نفسها على كره من قومه فلبث فيهم مالم يلبث ، ثم ان رجلا من العرب اغار عليهم في خيل فاصتأصلهم فتطيروا بضب وأخرجوه وارأته وهي طاعت فانطلقا ، واحتمل ضب شيئا من ماء وشيئا يوما وليته الى الغد حتى اشتد الحر وأصابها عطش شديد فتالت له : ادع الي السقاء حتى اغتسل به فانا ننهي الى الماء ونستقي فاعتسلت بها في السقاء ولم يقع منها موقعا ، وأتيا العين فوجداهما ناضبة وأدركها العطش فقال ضب : لاهنك انقيت ولا ماءك ابقيت ، فذهبت مثلا ثم استظلا تحت شجرة كبيرة فأنشأ ضب يقول :

نالله ما ظللة أصاب بها سواد قلبي قارع العطب
ظل كئيب الفؤاد مضطربا وتكنسي من غدائر قلب

أَنْ يَعْرِفَ الْمَاءَ تَحْتَ صُمِّ صَفَاً أَوْ يُخْبِرَ النَّاسَ مَنْطِقَ الْخُطْبِ
أَخْرَجَنِي قَوْمَهَا بِأَنْ رَحَاً دَارَتْ بِشُؤْمٍ لَهُمْ عَلَى قُطْبِ

فلما سمعت ذلك فرحت وقالت : قم فارجع الى قومي فانك شاعر فانطلقا راجعين حتى انتهيا اليهم فاستقبلوهم بالسيف والعصا فقال لهم صب : اسمعوا شعري ثم ان بدا لكم ان تقتلوني بعد فافعلوا وتركوه فصار فيهم عزيزاً . وقيل ان اول من قال :

* في الصيف ضيقت اللبن * فتول بنت عبد وكانت تحت رجل من قومه فطلقتها وأنها رغبت في أن يراجعها فأبى عليها ، فلما يئست خطبها رجل يقال له : عامر بن شاذب فتزوجها فلما بني بها بدا للزوج الأول مراجعتها وهوى بها هوى شديداً فجاء يطلبها ويرنو بنظره اليها ففطنت به فقالت :

أَتَرَكَتَنِي حَتَّى إِذَا عُلِّقْتُ أُبَيْضَ كَالشَّطَنِ
أَنْشَأَتْ تَطْلُبُ وَصَلْنَا فِي الصَّيْفِ ضَيَّعَتِ اللَّبْنَ

فذهبت مثلاً ، فقال له زوجها الأول واسمه الأشق فهل بقي شيء ؟ قالت : نعم فاصله عن جميع مالك وطلاقي فان فصلته تزوجتك فرضي بذلك ، ثم راجع نفسه فقال لها ذلك فقالت : أما اذا ضننت بمالك فانطلق الى مكان اذا أنت تكلمت سمع زوجي كلامي وكلامك ثم اقعده كأنك لا تشعر به وقل :

لَمَّا اللَّهُ بِنْتَ الْعَبْدِ إِنْ وَصَّالُهَا وَصَالُ مَلُولٍ لَا تَدُومُ عَلَى بَعْلِ
تَحَدُّمُنِي أَنْ سَوْفَ تَقْتُلُ عَامِراً لِأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِي مَالِهِ عَامِرٌ مِثْلِي
فَهَيْهَاتَ تَرَوِيجُ الَّتِي تَقْتُلُ الْفَتَى إِذَا مَا أَبَتْ يَوْمًا وَإِنْ كَانَ مِنْ أَجْلِي

فَتَقْتَلَنِي يَوْمًا إِذَا هَوَيْتُ فَتَى سِوَايَ وَإِنِّي الْيَوْمَ مِنْ وَصْلِهَا مُجَلِي

فانطلق الأشق ففعل ما أمرته به فسمعه عامر فوقع في قلبه قوله ، وقد كان عرف حبها له فصدق ذلك ودخل عليها فطلقها وتزوجها الأشق . وذكروا أن بطنا من قريش اشتدت عليهم السنة ، وكان فيهم جارية يقال لها زينب من أكمل نسائهم جمالا وأتمن تاماً وأشرفت فرآها شاب يقال له عروة ، فوقع في قلبه فجهل يطالها ولا يقدر على أكثر من ذلك ، فاشتد وجده بها ، فلما انقضت السنة وأرادوا الرجوع الى منازلهم دعا بعض جواري الحي فقال : يا ابنة الكرام هل لك في يد تتخذين بها عندي شكراً ؟ قالت : ما أخرجني الى ذلك ، قال : تنطلقين الى خيمة فلانة كأنك تقبسين ناراً فاذا أنت جلست فقولي حيث تسمع زينب :

أَلَا هَلْ لَنَا قَبْلَ التَّفَرُّقِ لَيْلَةٌ وَيَوْمٌ فَتَقْضِي كُلَّ نَفْسٍ مُنَاهَا

فانطلقت الجارية ففعلت ذلك ، فلما سمعت زينب قولها وكانت تقني رأس زوجها وكان عنده أخ له . فقالت بحبيبة لها :

أَعْمَرِي لَقَدْ طَالَ الْمَقَامَةُ هَاهُنَا لَوْ أَنَّ لِحِبَّ حَاجَةً لَقَضَاهَا

فسمع أخو الزوج قول الجارية وجواب زينب فقال :

أَلَا يَعْلَمُ الزَّوْجُ الْمُفْلَى بِأَنَّهَا رِسَالَةٌ مَشْغُوفِ الْفُؤَادِ رَجَاهَا

فانتبه الزوج لأمرهم وعرف ما أرادت فقال :

لَحَى اللَّهُ مَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِوَدِّهِ وَمَنْ يَمْنَحُ النَّفْسَ الطَّرُوبَ هَوَاهَا

انطلقى يا زينب فأت طالق ، فخرجت من عنده وبعثت الى عروة

وأعلمته وأقامت حتى انقضت عدتها ثم تزوجته .

٣٥ - في الناشئة

ذكروا أن الاخطل كانت عنده امرأة وكان بها معجباً ، فطلقها وتزوج بطلقة رجل من بني تغلب ، وكانت بالتغلي معجبة فيينا هي ذات يوم جالسة مع الاخطل اذ ذكرت زوجها الاول فتفتست الصعداء ثم ذروت دموعها فعرف الاخطل ما بها فذكر امرأته الاولى وانشأ يقول :

كِلَانَا عَلَى وَجْدٍ يَبِيْتُ كَأَنَّمَا مَجْنِيهِ مِنْ مَسِّ الْفِرَاشِ قُرُوحُ
عَلَى زَوْجِهَا الْمَاضِي تَنُوحُ وَزَوْجُهَا عَلَى الطَّلَّةِ الْأُولَى كَذَاكَ يَنُوحُ

قيل : وخاصمت امرأة زوجها الى زياد فجعلت تعيبه وتقع فيه ، فقال الزوج : أصلح الله الامير ان شر المرأة كبرها ان المرأة اذا كبرت عقم رحما وبدا لسانها وساء خلقها ، والرجل اذا كبر استعكم رأيه وقل جهله ، قال : صدقت وحكم له بها ، وذكروا أن امرأة أنت عبيد الله بن زياد وكانت ذات شحم وجسم وجمال مستعدية على زوجها وكان أسود دميم الخلقه فقال : ما بال هذه المرأة تشكوك ؟ قال : أصلح الله الامير سلها عما ترى من جسمها وشحمها أمن طعامي أم من طعام غيري ؟ قالت من طعامك أفتمن علي بطعام أطمعتمنيه والكلاب تأكل ؟ قال : سلها عن كسوتها من مالي هي أم من مال غيري ؟ قالت : من مالك أفتمن علي بثوب كسوتنيه ، قال : وسلها عما في بطنها مني هو أم من غيري ؟ قالت منك ووددت أنه في بطني من كلب ، قال الرجل : أصلح الله الامير فما تريد المرأة الا أن تطعم وتكسي وتنكح ، قال : صدقت فخذ بيدها . قال : خرج رجل مع قتيبة بن مسلم الى خراسان وخلف امرأة

يقال لها هند من أجل نساء زمانها فلبث هناك سنين فاشترى جاربية
اسمها جمانة ، وكان له فرس يسميه الورد فوقعت الجارية منه موقعاً
فأنشأ يقول :

ألا أباي اليوم ما فعلت هندُ إذا بقيت عندي الجمانة والوردُ
شديدُ مناطِ القصرين إذا جرى وبيضاء مثل الرثم زينا العقْدُ
فهذا لأيام الهياج وهذه لحاجة نفسي حين ينصرف الجندُ
فبلغ ذلك هنداً كتبت إليه :

ألا أقره مني السلام وقل له عنيينا بفتيات غطارفة مُردِ
فهذا أمير المؤمنين أميرهم سبانا وأغناكم أراذلة الجندِ
إذا شاء منهم ناشى مذكفه إلى كبد ملساء أو كفل نهدِ

فلما قرأ كتابها أتى به الى قتيبة فأعطاه إياه فقال له : أبعدهك الله
هكذا يفعل بالحرة وأذن له في الاصراف . قال وسمع عمر بن الخطاب
امرأة تنشد وتقول :

فمنهن من تسقى بعدبٍ مُبردٍ تقاخ فتلكم عند ذلك قرّتِ
ومنهن من تسقى بأخضر آجنٍ أجاج فلولا خشية الله قرّتِ

فأمر باحضار زوجها فوجده متغير الفم فخيره جارية من المغنم او
خمسائة درهم على طلاقها فاختار الخمسائة فدفعته اليه وخلي سبيلها . وحكي
عن الفضل بن الربيع انه كان بمكة ومعه الفرج الرخبي ، وكان الفضل
صبيحاً ظريفاً والفرج دمياً قبيحاً ، فخرجا الى الطواف ثم انصرفا الى بعض
طرقات مكة ووقعا يتغديان ، فبينما هما كذلك على طعامها اذ وقفت عليها

امرأة جميلة بهية حسنة سُكَّاة وعليها بوقع فرفته عن وجهها فاذا وجه كالدينار وذراع كالجوار ، فسلمت وقعدت وجعلت تأكل معها قال الفضل : فأعجبني ما رأيت من جمالها وهيتها فقلت . هل لك من بعل ؟ قالت : لا ، قلت : فهل لك في بعل من أصحاب أمير المؤمنين حسن الخلق والخلق ؟ قالت : وأين هو ؟ فأشار الى فرج فقالت : جوابك عند فراغنا فلما أكلت قالت للفضل : تقرأ شيئاً من كتاب الله ؟ قال : نعم ، قالت : أفتؤمن به ؟ قال : نعم ، قالت : فان الله يقول « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » فضحك الفضل ودخل على الرشيد فأخبره فأمر بإحضارها ، فلما نظر اليها أعجب بها فتزوجها وحملها الى مدينة السلام . قال وحج اسماعيل بن طريح فوقفت عليه أعرابية جميلة قال : فقال لها هل لك أن تزوجيني نفسك ؟ فقالت من غير توقف :

يَكِي الْحَسْبُ الزَّكِي بَعِيْنٍ غَزِيْرَةٍ مِنْ الْحَسْبِ الْمُنْقُوصِ أَنْ يُجْمَعَ مَعَا

وانصرفت . قال العتيبي : كنت كثير التزوج فمرت بامرأة فأعجبني فأرسلت اليها ألك زوج ؟ قالت : لا ، فصرت اليها فوصفت لها نفسي وعرفتني موضعي فقالت : حسبك قد عرفناك ، فقلت لها : زوجيني نفسك ؛ فقالت : نعم ولكن ها هنا شيء تخمله ، قلت : وما هو ؟ قالت : بياض في مفرق رأسي ، قال : فانصرفت فصاحت بي ارجع فرجعت اليها فأسفرت عن رأسها فنظرت الى وجه حسن وشعر أسود فقالت : انا كرهنا منك عافاك الله ما كرهت منا وأنشدت :

أَرَى شَيْبَ الرِّجَالِ مِنَ الْغَوَانِي بِعَوْضِ شَيْبِهِنَّ مِنَ الرِّجَالِ

وعن عطاء بن مصعب قال : جاءت امرأة الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت : يا أمير المؤمنين لا أنا ولا زوجي ، فقال لها : وما لك من زوجك ؟ قالت : مر بإحضاره فأحضر ، فاذا رجل قدر الثياب قد

طال شعر جسده وأنفه ورأسه ، فأمر عمر ان يؤخذ من شعره ويدخل الحمام ويكسى ثوبين أبيضين ثم يؤتى به ففعل ذلك ، ودعا المرأة فلما رأت الزوج قالت : الآن ، فقال لها عمر : اتقي الله وأطيعي زوجك ، قالت : أفعلى يا أمير المؤمنين ، فلما ولت قال عمر : تصنعوا للنساء فانهن يحبين منكم ما تحبون منهن . ويقال : ان المرأة تحب اربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك وتبغض يوماً واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها ،! والرجل يبغض اربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك وان احب يوماً واحداً شهدت جوارحه .

٣٦ - نساء الخلفاء

علي بن محمد بن سليمان قال : ابي يقول : كان المنصور شرط لأم موسى الحميرية أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتبت عليه بذلك كتاباً أكدته وأشهدت عليه بذلك ، فبقي مدة عشر سنين في سلطانه يكتب الى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق وجهد أن يفتيه واحد منهم في التزويج وابتاع السراري فكانت أم موسى اذا علمت مكانه بادرتة وارسلت اليه بمال فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتب لم يفته حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد فأنته وفاتها وهو بجلوان ، فأهديت اليه مائة بكر وكان المنصور أقطع أم موسى الضيعة المسماة بالرحبة فوقفها قبل موتها على المولدات الاناث دون الذكور ، فهي وقف عليها الى هذا الوقت . حدثنا يحيى بن الحسن عن محمد بن هشام قاضي مكة قال : كانت الخيزران لرجل من ثقيف فقالت لمولاهما الثقيفي اني رأيت رؤيا ، قال وما هي ؟ قالت : رأيت كأن القمر خرج من قبلي وكان الشمس خرجت من دبري ، قال لها : لست من جوارى مثلي أنت تلدين خليفتين : فقدم بها مكة فباعها في الرقيق فاشترت وعرضت على المنصور فقال : من أين أنت ؟ قالت : المولد مكة

والنشأ بجرش قال : فلك أحد ؟ قالت : مالي أحد إلا الله وما ولدت أمي
غيري ، قال يا غلام اذهب بها الى المهدي وقل له : تصلح الولد ، فأتى بها
المهدي فوَقعت منه كل موقع فلما ولدت موسى وهرون قالت : ان لي أهل
بيت بجرش ، قال : ومن لك ؟ قالت : لي أختان اسمها أسماء وسلسل ولي
أم واخوان ، فكتب فأتى بهم فتزوج جعفر بن المنصور سلسل فولدت منه
زبيدة واسمها سكينه تزوجها الرشيد وبقيت أسماء بكرها فقال المهدي للخيزران
قد ولدت رجلين وقد بايعت لهما وما احب ان تبقين امة واحب ان اعتقك
وتخرجين الى مكة وتقدمين فأتزوجك ، قالت : الصواب رأيت ، فأعتقها
وخرجت إلى مكة فتزوج المهدي أختها أسماء ومهرها الف الف درهم ، فلما
احس بقدم الخيزران استقبلها فقالت : ما خبر اسماء وكم وهبت لها ؟
قال : من أسماء ؟ قالت : امرأتك ، قال : إن كانت اسماء امرأتي فهي طالق ،
فقالت له : طلقها حين علمت بقدمي ، قال : أما اذا علمت فقد مهرتها الف
الف درهم ووهبت لها الف الف درهم ثم تزوج الخيزران . قال : كانت نخلة
جارية الحسين الخلال قبل أن يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه وتغنيه
فولدت للحسين ابناً فلما ولي المتوكل الخلافة طرده ليلاً فقال له الحسين :
زرتنا جعلت فداك ، قال استهيت أن اسمع غناء نخلة فأخرجها اليه مطبومة
الشعر فقال : يا خلال أليس قد ولدت منك ابناً ؟ قال : بلى ، قال فأنا احب
ان تعتقها ، قال : فانها حرة ، قال : فاشهد اني قد تزوجتها قومي بالنخلة ،
فاشهد ذلك على الحسين فعوضه منها خمسة عشر الف دينار وحول اليه نخلة .
قيل ووصف للمتوكل ابنة سليمان بن القاسم بن عيسى بن موسى الهادي
وعدة من الهاشميات فحملن اليه وعرض عليه فاختارها من بينهما وصرف
البواقي ونزلت منه منزلة حتى ساوى بينها وبين قبيصة في المنزلة ، وكانت
جارية لها لباقة وملاحة ووصفت له ريطة بنت العباس بن علي فحملت اليه
فتزوجها ثم سألها أن تطم شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه فأعلمها ان لم
تفعل فارقتها فاخترت الفرقة فطلقها ، ووصفت له عائشة بنت عمرو بن الفرج

الرخجي فوجه في جوف الليل والسماء تطل الى عمر أن احمل الي عائشة
فأله ان يصفح عنها فانها القيمة بأمره فأبى فانصرف عمر وهو يقول : اللهم
قني شر عبدك جعفر ثم حملها بالليل فوطئها ثم ردها الى منزل أبيها قال :
وكان الهادي يشاور من أصحابه عبد العزيز بن موسى وعيسى بن دأب
والعزيزي وعبد الله بن مالك فخرج ذات يوم اليهم وهو مغضب كأنه حمل
هائج منتفخ الأوداج منتقع اللون فأقبل حتى جلس في مجلسه وكان العزيزي
أجرأهم عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين انا نرى بوجهك ما كدر علينا عيشنا
وبغض الدنيا اليها فان رأى امير المؤمنين ان يخبرنا بالسبب فان كان عندنا
حيلة أعلنناه بها وان تكن مشورة أشرنا بها وان امكن احتمال الغم عنه
وقيناه بأنفسنا وحملنا الغم عنه ، قال : فاطرق طويلا والعزيزي قائم فقال
له : اجلس يا عزيزي فاني لم أر كصاحب الدنيا قط أكثر آفات وأعظم
نايبة ولا أنقص عيشا قال العزيزي : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : لبابة
بنت جعفر بن أبي جعفر قد علمتم موقعها مني واثرتها عندي كلمتي بادلال
فأغلظت فلم يكن لها عندي احتمال ولا عندها اقصار حتى وثبت عليها
وضربتها ضربا موجعا ، قال وسكت فقال ابن دأب : يا أمير المؤمنين انك
والله لم تأت منكرا ولا بديعا قد كان أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم يؤدبون نساءهم ويضربونهن هذا الزبير بن العوام حوارى
رسول الله ﷺ وابن عمته ونب على امراته اسماء بنت أبي بكر وهي
فضل نساء أهل زمانها فضربها في شيء عتب عليها فيه ضربا مبرحا حتى
كسر يدها وكان ذلك سبب فراقها ، وذلك انها استغاثت بولدها عبدالله
فجاء يخلصها من أبيه فقال : هي طالق ان حلت بيني وبينها ففعل وبانت
منه ، وهذا كعب بن مالك الانصاري عتب على امراته وكانت من المهاجرات
فضربها حتى حال بنوها بينه وبينها فقال :

فلولا بنوها حوّلها لخبّطتها كخبّطة فرّوجٍ ولمّ أتلغّم

قال : فسرى عن موسى الغضب وطابت نفسه ودعا بالطعام فأكلنا
وأمر له بعشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً فتلهفت ونعجبت عن انقطاعي عن
الحديثين وهما في بابي وأنا أعلم بها منه .

٣٧ - المطلقات

قيل : كانت أم الحجاج بن يوسف الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود
وكانت عند المغيرة بن شعبة فوأها يوماً تتخلل بكرة فقال : أنت طالق
والله لئن كان هذا من غذاء يومك لقد شرهت ، وإن كان من عشاء أمسك
لقد انتنت فقالت : لا يبعد الله غيرك والله ما هو إلا من السواك فخلف
عليها بعده يوسف أبو الحجاج فأولدها الحجاج ، وفيها أشعار : منها

أهَاجَتِكَ الظَّعَائِنُ يَوْمَ بَانُوا بَدِي الزَّيِّ الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ
ظَعَائِنُ أُسْلِكَتْ نَقَبَ الْمُنْقَى تُحْتِ إِذَا وَنَتْ أَيَّ أَحْتِثَاثِ
كَأَنَّ عَلَى الْخَدَائِجِ يَوْمَ بَانُوا نِعَاجًا تَرْتَعِي بَقْلَ الْبِرَاتِ
تَوَمَّلْ أَنَّ تُلَاقِي أَهْلَ بُصْرَى فَيَالِكَ مَنْ لِقَاءِ مُسْتَرَاتِ
تَهَيَّجْنَا الْحَمَامُ إِذَا تَدَاعَى كَمَا سَجَعَ النَّوَائِحُ بِالْمِرَاتِ

وفي زينب أخت الحجاج يقول النسيبي :

وَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ سِرْبِ رَأَيْتُهُ خَرَجْنَا مِنَ التَّنْعِيمِ مُعْتَمِرَاتِ
وَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ النَّسِيبِيِّ أَعْرَضَتْ
وَكُنَّ مِنْ أَنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِرَاتِ

تَضَوَّعَ مِسْكَابُطْنُ نَعْمَانَ إِذْ مَشَتْ

بِهِ زَيْنَبٌ فِي نِسْوَةِ عَطِرَاتِ

يُلبِّينَ لِلرَّحْمَنِ مَوْتَجِرَاتِ

نَوَاعِمَ لَا سُعْمًا وَلَا عَبِرَاتِ

حِجَابًا مِنَ الْقَسِيِّ وَالْحَبِرَاتِ

أَوَانِسَ بِالْبَطْحَاءِ مُعْتَجِرَاتِ

وَيَخْرُجْنَ بِالْأَسْحَارِ مُعْتَمِرَاتِ

مَرَرْنَ بِفَخٍّ ثُمَّ رُحْنَ عَشِيَّةً

دَعَتْ نِسْوَةٌ شَمَّ الْعَرَانِينَ بُدْنًا

فَأَذْنَيْنِ لَمَّا قَمْنَ يَحْجُبْنَ دُونَهَا

أَجَلُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ عَرْشُهُ

يُخَبِّينَ أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ التُّقَى

عوانة عن محمد بن زياد عن شيخ من كندة قال : خرج الحارث بن سليل الأسدي زائراً أعلقمة بن حفصة الطائي فلما قدم عليه بصر بابنة له يقال لها : الزباء وكانت من أجل نساء أهل عصرها وأعجب بها فقال لأبيها : أنتك زائراً وقد ينكح الخاطب ويكرم الطالب ويفتح الراغب ، فقال : أنت امرؤ كريم يقبل منك الصفر ويؤخذ منك العفر فاقم تنظر في أمرك ، ثم انكفأ إلى أهله فقال : ان الحارث بن سليل سيد قومه منصباً وحسباً وبيتاً فلا ينصرفن من عنده الا بحاجته فأريدي ابنتك عن نفسها فخلت بالزباء فقالت : يابنية أي الرجال أحب إليك الكهل الجعجاج الفاضل المناح أم القتي الوضاح ، قالت : الزمور الطماح قالت : يابنية ان الشيخ يبرك ولا يغيرك وليس الكهل الفاضل الكثير الثائن كالحديث السن الكثير الضن ، قالت : يا امه اخشى الشيخ ان يدنس ثيابي ويشمت بي أتوابي ويبيي شبابي ، قال : فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها فتزوجها الحارث بن سليل على خمسين ومائة من الابل وألف درهم وابنتي بها ثم رحل بها إلى قومه ، فبينما هو جالس ذات يوم وهي إلى جانبه إذ أقبل فتية من بني أسد نشاوي يتبخثرون ، فلما نظرت إليهم تنفست الصعداء وبكت فقال : ما شأنك ؟

قالت : مالي وللشيوخ الناهضين كالفروخ قال : ثكلتك امك تجوع الحره
ولا تأكل بشديها فذهبت مثلاً أما وأبيك لرب غارة شهدتها . وخيل وزعتها .
وسبية أردفتها ، وخمرة شربتها إلحقي بأهلك فأنت طالق وقال :

تهزأت أن رأيتني لا بساً كبيراً وغاية الناس بين الموت والكبير
فإن يكن قد علارأسي وغيره صرف الزمان وتغيير من الشعر
فقد أروح للذات الفتى جذلاً وقد أصيد بها عيناً من البقر
عنى اليك فاني لا توافقني

مُورُ الكلام ولا شربٌ على الكدر

قال : وقال الحجاج لأبن القرية : ما تقول في التزويج ؟ قال : وجدت
أسعد الناس في الدنيا ، وأقرهم عيناً وأطيبهم عيشاً ، وأبقاهم سروراً
وأرخاهم بالا وأشبههم شباباً من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة
اطيفة نظيفة مطيبة ان ائتمنتها زوجها وجدها أمينة ، وان فتر عليها وجدها
قائمة وان غاب عنها كانت له حافظة تجد زوجها أبداً ناعماً وجارها سالماً
ومملوكها آمناً ، وصبيها طاهراً قد ستر حملها جهلها ، وزين دينها عقلها ،
فتملك كالريحانة والنخلة لمن يجتمئها وكالؤلؤة التي لم تثقب والمسكة التي لم تفتق
قوامه صوامه ضاحكة بسامة ان أيسرت شكرت ، وان أعسرت صبرت
فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه ، وانما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على
الشيخ الضعيف يجره في الارض جراً فبعلها مشغول وجارها متبول وصبيها
مرذول وقطها مهزول ، قال : يابن القرية قم الآن فاخطب لي هندابنت
اسماء ولا تزد على ثلاث كلمات : فأتاهم فقال جئت من عند من تعلمون
والامير يعطيكم ما تسألون أفتمنكون أم تدعون ؟ قالوا أنكحنا وغنمنا
فرجع الى الحجاج فقال : أصلح الله الامير صلاح من رضي عمله ، ومد في

الخيرات أجله وبلغ به امله جمع الله شملك ، وأدام طولك ، وأقر عينك ،
ووقاك حينك ، وأعلى كعبك ، وذلك صعبك ، وحسن حالك على الرفاء
والبنين والبنات والتيسير والبركة وأسعد السعود وأيمن الجدود ، وجعلها الله
ودوداً ولوداً ، وجمع بينكما على الخير والبركة ، وتزوجها الحجاج ثم انه
دخل ذات يوم عليها وهي تقول :

وما هِنْدُ إِلَّا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ سَلِيلَةٌ أَفْرَاسٌ تَجَلَّمَلْهَا بَعْلُ
فَإِنَّ تُجِبْتَ مُهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحَرَى وَإِنْ بَكَ أَقْرَافٌ فَمَا نَجِبَ الْفَخْلُ

فخرج من عندها مغضبا ودعا ابن القرية فدفع اليه مائة الف درهم وقال
ادخل على هند وطلقها عني ولا تزد عني كلمتين وادفع اليها المال ، فحمل
ابن القرية المال ودخل عليها فقال : ان الامير يقول كنت قبنت وهذه
المائة ألف صداقك ، فقالت يا ابن القرية ما سررت به اد كان ولا جزعت
عليه إذ بان ، وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به . وكان القول أشد على
الحجاج من فراقها . وذكروا أن عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق رضي
الله عنه كانت عنده عاتكة بنت زيد بن نفييل فأحبها حباً شديداً فأمره أبوه
بفراقها وان يطلقها تطليقة واحدة ففعل ثم ندم على فعله فقال :

فَلَمْ أَرَ مِنِّي طَلَقَ الْيَوْمَ مِثْلَهَا وَلَا مِثْلَهَا فِي غَيْرِ جُرْمٍ مُتَلَقُّ
لَهَا خُلُقٌ سَهْلٌ وَحُسْنٌ وَمَنْصِبٌ وَخَلْقٌ سَوِيٌّ مَا يُعَابُ وَمَنْطِقٌ
أَعَاتِكَ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَيْكَ بِمَا تُخْفِي الْقُلُوبُ مُعَلَّقٌ
أَعَاتِكَ مَا أَنَاكَ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَمَا لَاحَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ مُحَلَّقٌ

فسمع أبو بكر ذلك فرق له وأمره بمراجعتها . وعن علي بن دعبل
قال : حدثني ابي قال خرجت وهي اعرابي وانبطي الى موضع يقال له

بطيائنا من امصار دجلة متنزهين فأكلنا وشربنا ، فقال الاعرابي : قل بيت
شعر فقلت :

نَلْنَا لِذِيْدِ الْعِيْشِ فِي بَطِيَّائِنَا

فقال الأعرابي :

لَمَّا حَثَّنَا أَقْدَحًا ثَلَاثًا

فقال النبطي :

وَأَمْرَاتِي طَالِقٌ ثَلَاثًا

وما زال يبكي حتى الصباح فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال ذهبت امرأتي
بقافية . قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي كنت أنا والحسين بن الضحاك يوماً
عند المعتصم وحضرت فينة تعرض عليه فأعجب بها فقال للمدنيين : كيف
ترونها ؟ فقال أحدهم : امرأته طالق ان كان رأى مثلها ، وقال آخر : امرأته
طالق ان لم ... وسكت فقال المعتصم : ان لم ... ، قال : لا شيء ، فضحك
وقال له : وبجك ما دعاك الى طلاق أهلك بلا سبب ، فقال : يا أمير المؤمنين
كلنا قد طلق امرأته بلا سبب . وما قيل في ذلك من الشعر :

رَحَلَتْ أُمِّيَّةٌ بِالطَّلَاقِ وَنَجَوْتُ مِنْ رِقِّ الْوِثَاقِ
بَانَتْ فَلَمْ يَجْزَعْ لَهَا قَلْبِي وَلَمْ تَدْمَعْ مَا قِي
لَوْ لَمْ أُرْحُ بِفِرَاقِهَا لِأُرِحْتُ نَفْسِي بِالْأَبَاقِ
وَخَصِيْتُ نَفْسِي لَا أُرِيدُ حَلِيلَةَ حَتَّى التَّلَاقِ

وقال آخر :

رَأَيْتَ أَثَانَهَا فَطَمِعْتَ فِيهَا وَقَدْ نَصَبْتَ لِعِيرِكَ بِالْأَثَانِ

فَطَلَقَهَا وَعَدَّ النَّفْسَ عَنْهَا سَرِيحاً إِنَّ نَفْسَكَ فِي التَّوَاتِ
وَالِإِ فَالسَّلَامُ عَلَيْكَ إِنِّي سَأَخْذُ مِنْ غَدِي لَكَ فِي الْمَرَاثِي

٣٨ - محاسن وفاء النساء

قال الكسروي : كتب بلاش بن فيروز الى ملك الهند يخطب ابنته فلم ينعم له ورد رسوله خائباً ، فتجشم وسار اليه في خيله ورجله ، لما اصطفت الخيلان دعاه بلاش الى المبارزة وقال : انه عار على الملوك ان يوردوا جنودهم الهلاك ويفوزوا بأنفسهم ، فبرز اليه ملك الهند فاختلفت بينهما ضربتان ، فمنعت بلاشاً حصانه درعه وضرب بلاش الهندي على عاتقه فقطع حبله حتى انتهى السيف الى ثدوده فخر ميتاً وانهرمت خيله ، فافتتح بلاش مدينته وأمر ثقاته فأحدقوا بقصر ابنة الملك ، فلما احتوى على أمواله بعث الى ابنة الملك ان تأتيه ، فقالت للرسول وهي تبكي : قل للملك المزين بالحلم المحب في رعيته السعيد بالظفر انك قد ملكتني وصرت بمن يستحق عطفك وراقتك ، فان رأيت ان تطيب نفساً عن النظر الي حتى ترجع الى دار مملكتك وافعل ، فانصرف الرسول الى بلاش فأخبره فأجابها الى ما سألت ، وسار وحملها حتى قدم دار الملكة هيأ لها مقصورة مفردة عن سائر حرمه فأنزأها فيها وأمر لها بعقيق الديباج وفاخر الجواهر واسقاط من الذهب والصلاة والجوائز والأثاث . ولم يأمر لغيرها من نساءه ، واستأذنها في الدخول عليها وأذنت له ، ودخل عليها وأقام عندها سبعة أيام ولياليها عجباً منه بها لا يحير اليها جواباً ولا يخف عن صدر جلسها ، فخرج من عندها اليوم الثامن وقد وقع في قلبه ما أظهرت من خفة

مجلسه عليها ولبثت أشهراً لا بدخل عليها فقالت يوماً لحاضنتها . ما أعجب
 أمر الملك بذل دمه في طلبي حتى اذا ظفر سلا عني انطلقني حتى تسألني عن
 عدة نسائه وأبين أكرم عليه وأتيني بعلم ذلك ، فانطلقت حتى عرفت ذلك
 وانصرفت فقالت : اني وجدت له أربعمائة امرأة ما بين أمة وحررة وليس
 فيهن أكرم عليه من ابنة سائس من سواسه أعجبه فتزوج بها ، فقالت :
 انطلقني اليها واقربنيها مني السلام واعلمها اني أريد مؤاخذتها والانقطاع اليها
 فانطلقت الحاضنة الى ابنة السائس فأبلغتها رسالة مولاتها ، فقالت لها :
 اقربنيها مني السلام واعلمها اني قد أحببتها وأجبتها الى ما سألت فتصير الي ،
 فانصرفت فأخبرتها بما قالت ، فتهيات بأحسن هيئة وأقبلت اليها ودخلت
 عليها ، فرفعت مجلسها وأقبلت عليها ، فذكرت حبها لها ورغبتها في
 مواصلتها فردت عليها ابنة السائس أحسن الرد وأعلمتها سرورها بذلك ، ثم
 تحدثا ساعة وانصرفت وجعلت الهندية تأتمها غبا وتظهر الأنا ، فلما أنست
 بها قالت لها : انك قد استلبت قلب الملك وقهرت جميعنا بفضلك وليس
 لواحدة منا نصيب فاعلمينا الأمر الذي فضلتينا به لنزداد سروراً بما أوتيت
 ومحبة الك والانقطاع اليك ، قالت : اني لما عرفت ضعف نسبي وقلة جمالي
 علمت أنه لا يرجع الملك مني الى شيء أحظى به عنده مثل المؤاناة في
 الخلوة وان أبسطه اذا هم بالحركة واحتميل قلبه باللطف وفضل الخدمة ،
 فلما رأي على ذلك مستمرة ورأى من سائر نسائه أنفة الاكفاء وزهو
 الجمال وخيلاء الملك ، وعلمت اني ان أخذت ما أخذته مع خمول نسبي
 وقلة جمالي ودقة خطري لا يليق بي مثل الذي يليق بهن ، ففضلني على
 جميع نسائه بذلك . فلما سمعت ابنة الملك ذلك علمت أن قلوب الرجال
 لا تستمال إلا بالمؤاناة وسرعة الاجابة في الباه عند المشغلة ، فعزمت أن
 تجعل ذلك عدة لاستعطاف قلب الملك ، فانصرفت الى قصرها وقالت لبعض
 جوارها : اذهبي الى فلانة - تعني ابنة السائس - فان رأيت الملك
 عندها فاعلمها اني عميلة من وجع عرض لي ، فانطلقت الجارية فاذا الملك

عندها ، فأخبرتها بذلك ، فرق الملك لها وذكر غربتها وقتله أباهما فقال لابنة السائس : ما تترين في اتيانها ؟ فقالت أيها الملك : إنه ليس في نسائك من لها عندي مثل منزلتها فصر إليها فانها غريبة قد فارقت أهلها وهي في موضع رحمة ، فقام الملك حتى دخل عليها وانتهى الى باب مجلسها ، فقامت اليه تمشي بأحسن هيئتها متكسرة في حليها وزينتها عبقة بطيبها وعطرها فقبات بين عينيه وأخذت بيده حتى أجلسته في صدر فراشها وجعلت تقبل يديه ورجليه ضاحكة اليه مظهرة السرور به . فجذبها الى نفسه ودعاها الى المضاجعة فاتته ولم يرد في الخلوة شيئاً الا أجابته اليه ، فلما قضى حاجته نازعها الى المحادثة فقال : اين ما ذكر رسولك من وجعك ؟ قالت : يا سيدي كنت متوجهة لفراقك حتى سقاني لقاؤك ، وقلت ذلك لما نالني من تباريح الشوق اليك وطول صدودك وسلوتك ، ثم أخذ معها في المداعبة ، وأقام عندها سبعة أيام فيبينها هما يتلاعبان ويتذاكران ويتعانقان اذ دخلت جارية لابنة السائس فحيت الملك بتحية الملوك ثم قالت للهندية : ان سيدتي - تعني ابنة السائس - تقول قد اجتمع فيك ثلاث خصال : الأولى العذر بعملك ، والثانية فضل تطاولك ، والثالثة كفران النعمة المنعم واني عن قريب رادتك من الملك الى غصص الغيظ . فأفحمتها وهملت عينها ونظرت الى الملك كالستغيثة به ، فقال لها الملك : يا حبيبتى ما تنكرين من أمتك قد وهبتها لك وجميع ما تملك ، فتجلى عنها غمها فقالت لرسولتها : انطلقى اليها فاعلمها ان الملك قد وهبها وما تملك لي ، وفولي لها : أرجعك فحش نفسك الى اؤم حسبك واممال أدبك إثنيني الساعة بصغار الذلة ورقة العبودية ، فلما أبلغتها الرسول ذلك أقبلت ندخلت عليها فحيت الملك وقامت بين يديه ، فقالت لها الهندية : ما كان أعظم زهوك في رسالتك ، قالت : يا سيدتي أناذنين لي في الكلام ؟ قالت : تكلمي قالت : أيتها السيدة لست متوجهة اليك بشيء هو أملك بك من حلك ، ولا أعطف علي من نضلك ، ولم يظلم من رفع فوقى

من هو أفضل مني ، وكل فرع يرجع الى أصله ، وكل زهر ينسب الى سنخه ، فقالت : صدقت فدعي عنك كلام الأدب فقد ملكتك على رغم أنفك وانا زوجتك من فلان خادمي فليس لك فضل عليه ، قالت ابنة السائس : من اعتاد معالي الأمور لم تطلب نفسه بأسافلها ، ومن صاحب العظاء أبت غريزته الادنياء ، وانا ترقبت عطفك ورجوت حسن نظرك ، فأما اذا عزمت على هذا فقد طاب الموت وما الذي أستبقي منك ، ثم قالت : أيا الملك ان جذل المسرة منك لا يستقر ويقع موقعه الا بعد المخالفة عندك ، فاحترس من هذه الهندية فانها لا تؤمن عليك ، لانها ليست من جنسك فيعطفها عليك الرحم ، ولا من أهل ملكتك فتعرف تطواك عليها ، وانا هي شبيهة بموتورة قد قتلت أباهم وهدمت عزها ، فاحترس منها ولا يلهينك موقعها من قلبك ، فانها متى احتالت في قتلك لم يكن في أيدينا من الظفر الا قتلها كما كان من أمر الثعلب وعظيم الطير ، فقال الملك : وما كان من حديثها ، قالت : يقال ان ثعلباً جاع في ليلة فرقى شجرة لياكل منها ، فسال الوادي الذي فيه تلك الشجرة بسيل شديد فاقتلعها والثعلب عليها ، ثم رفعها ووضعها حتى ألقى الثعلب الى أرض بعيدة من أرضه ، فأصبح وقد ألقاه السيل الى سفح جبل كثير الاشجار مشر الاغصان ، وعلى تلك الاشجار جنس من الطير لا يحصى عدداً ، فألقى الى شجرة قصياً مقشعراً لا يعرف أرضه ولا يقدر على مؤلفة الدواب فمر به عظيم الطير فقال له : ما أنت ؟ فقال : أنا دابة سال بي السيل فألقاني في جبلكم وقد أصبحت غريباً ، فقال له عظيم الطير : فهل لك حرفة ؟ قال : نعم أعرف الثار اذا بلغت حد بلوغها واصنع للطير أكذافاً في الأرض تكن فيها فراخها من الحر والبرد ، فقال له عظيم الطير : قد أدركت عندنا بغيتهك فأقم عندنا نواسك وتعرف حق مجاورتك ، فأقام الثعلب عند ملك الطير فكان يعرفهم الثار المدركة ويجفر هن بمخاليبه قبوراً في الارض يفرخن فيها ، وكان الثعلب اذا جن عليه الليل وقرم الى اللحم

أدخل يده في جحر من تلك الاججرة فاخرج طيراً أو فراخاً فأكاه ودفن ريشه وجعات الطير تتفقد ما كان يأكل واحداً بعد واحد فقال بعضها لبعض : ما فقدنا أفاضلنا الا منذ صارت هذه الدابة بين أظهرنا وما كانت هذه الطير تطيل الغيبة وما تدري ، ادهاها فقال عظيمها : ان هذا حسد منك هذه الدابة فلا تغفلن ما أصبحت فيه من فضل المطعم وما فيه فراخكن من هذه الاكنان التي لا يخاف عليها برد فيها ولا حر فقالت الطير : أنت سيدنا وأبصر بالامور منا ، قال : وعلي أن أقطع هذا القول وأبين حق ذلك من بطله بنفسي ، فلما أظلم الليل نزل من الشجرة فدخل بعض تلك الاكنان وأقبل الثعلب على العادة التي اعتادها الى ذلك الكن فادخل يده قبض على رأس الملك فقال الملك للثعلب : لقد نصحتني الطير لو قبات نصحتها ، قال الثعلب : أنت هو ، قال : نعم ، قال : ما ظننت أن يبلغ من ححك كل هذا ؟ قال ملك الطير : دعني أردك في منزلتك بحسب ما رأيت من فضل علمك ولطيف حيلتك ، قال له الثعلب : ان أبوي أدباني أن لا أعلق ابياني بشيء وأتركه إذ ليس من جهلك ان لا تتجزأ من الثمار ومن الاكنان بنا كان آباؤك يكتفون به ولم ترض حتى اخترت امري بنفسك ولم تجعل التفرير في ذلك بغيرك ثم أكاه ودفن ريشه ، وفقدت الطير عظيمها فاستوحشت وضربت الثعلب ضرباً يخاليتها ومناويرها حتى قتله ولم يصلن في عظيم خطر ملكهن الى اكثر من قتل الثعلب فاحترس من هذه الهندية قالت الهندية : انما تفرعين المرأة باربعة رجال بابيها واخيها وولدها وبعلمها وفضل النساء المختارة بعلمها على جميع اهلها ، والمؤثرة له على نفسها فكيف بمن ذهب ابوها واخوها فبقي بعلمها ؟ أنتعب ان تهلكه على أن مثلك في رداة همتك وخبت نيتك مثل الغراب والحمامة ، قال الملك : وما كان من حديثهما ؟ قالت : زعموا ان غراباً الف مطبخاً لبعض الملوك . فأخذ من اطيب اللحمان التي قد صارت فيه شيئاً فظنوا ان الغراب اخذه لقلته وفائه ولؤم جوهره فطردوه

عن مطبخهم وقالوا : ما نرجو من هذا الغراب وهو من الطيور التي تعاف ويتطير منها ، فأفشى ذلك الغراب امره الى حمامة قد كان بينها معرفة وفزع الى رآيها واخبرها ما كان فيه من نعيم الأكل والمشرب فقالت له الحمامة : انطلق بي حتى تربني هذا المطبخ فانطلق حتى اتى سطح المطبخ فقالت الحمامة : ابي ارى هذا البيت ليس فيه موضع يدخل فاحفر لي بمنقارك قدر ما ادخل فان منقاري يضعف عن ذلك ، فحفر الغراب في سقف البيت بمنقاره حتى دخلت فيه الحمامة وتوسطت في البيت فأعجبهم حسن خلقها وصفاء لونها ، فجعل لها خازن المطبخ موضعاً نأوى اليه ، فلبثت في ذلك البيت قريرة عين ، فناداها الغراب ما هكذا قدرت فيك فقالت الحمامة : لو وفيت لك حل بي غدرك وان القوم عرفوا وفائي وحسن جواربي وعرفوا غدرك وقلة وفائك ونكت عهدك ، فهذا مثلي ومثلك يا ابنة السائس اني لو وفيت لك ارداني غدرك وقتلني مكرك ! قالت ابنة السائس : ايها السيدة ان الذي سمعت مني كان لشدة الأنفة فأردت أن أنفي عن نفسي الذي اردت من انكاحي خاتمك فلانا ، قالت الهندية : لا بد من ذلك ، فقالت ابنة السائس : من اعتاد معالي الامور لم تطب نفسه بأسافلها ، الآن استمذبت الموت فعمدت الى سم كان معها فقذفته في فيها فخرت ميتة ووفت الهندية لزوجها فأملحها . ومنهن شيرين امرأة ابرويز فان شيرويه بن ابرويز لما قتل أباه وتوطد له الملك بعث الى شيرين يدعوها الى نفسه فامتنعت عليه وابت ان تجيبه الى ذلك فغصبها ضياعها وعقارها وذخائرهما واموالها وقذفها بكل فاحشة ورمها بكل معضلة ، فلما بلغها ذلك هان عليها ما أخذه من اموالها مع ما رماها به فبعثت اليه وقالت : ايها الرجل ان لم يكن بما سألت بد فاقض لي ثلاث حوائج حتى أتابعك على ما تريد : فقال : وما هذه الحوائج ؟ قالت : أحدها أن ترد علي ضياعي واموالي ، والثانية أن تصعد منبرك بمحضر مرزبتك وأساورتك وعظماي اهل مملكتك وتبرأ بما قذفتني به ، والثالثة ان اباك اودعني ودبعة فتأمر ان يفتح لي باب الناوس

لها ومعها خاتم وفيه سم ساعة فنثرته في فيها وعانقت قبر زوجها فمات .

(ضده)

قيل : كان لكسرى أبرويز خال يقال له : بسطام ، فيخالف على كسرى وجمع جمعا كثيرا وواقع أبرويز ، فلما اعيت ابرويز الحيلة فيه دعا بكردي أخي بهرام جور ويقال : ان كردياً كان غلاما له رباه وبلغ منه مبلغ الرجال وكان من خاصته والناصحين له فقال له : قد ترى ما نزل بنا من هذا العدو بسطام ، وقد رأيت رأيا ان طابقتني عليه رجوت الظفر ، قال كردي : وما ذاك أيها الملك أخبرني فما شيء يزيدك الله به عزاً ويزيد أعدائك به ذلا الا بادرت اليه بنصح وصدق لمظيم حثك ووجوب طاعتك . قال له كسرى قد عرفت حال كردية أختك امرأة بسطام وجراءة قلبها وبسطام باوي اليها كل ليلة اذا انصرف عن الحرب وأنا جاعل لها عهد الله وميثاقه وذمة أنبيائه ان هي أراحتني من بسطام واحتال لي في قتله ان أتزوجها وأجعلها سيدة نسائي وأبلغ في اكرامها والسو بها أفضل ما بلغ ملك بامراته ، قال كردي : يا أيها الملك ما أسك في قدرتها عليه فاكتب اليها بخطك بما رأيت لأوجهه في الكتاب اليها مع امرأتي أرجية فان لها عقلا ورفقا وبصيرة فكتب كسرى بخطه « بسم الله الرحمن الرحيم » هذا كتاب لكردية بنت بهرام جستاسب كتبها لكسرى أبرويز بن هرمز ان لك عندي عهد الله وذمته وذمة أنبيائه ورسله ان انت قتلت بسطام وأراحتني منه ان أتزوج بك وأجعلك سيدة نسائي وأبلغ من كرامتك ما لا يبلغ ملك من الملوك لاحد ، وأشهد الله على ذلك ، وكفى بالله شهيداً وكتب كسرى بخطه وختمه بخاتمه يوم كذا من شهر كذا ، فسارت أرجية حتى دخلت عسكر بسطام كهيمة الزائرة لكردية بالظر اليها وكان بينهما قرابة ، فلما جلست وسكنت دفعت اليها كتاب كسرى وقالت لها : يا بننة عم اجيبي الملك الى ما سألك واغمني بذلك الرجوع الى وطنك فرغبت لشدة شوقها الى أهلها

فأجابتها الى ذلك وانصرفت أرجية الى عسكر كسرى وعرفت زوجها ما كان
بينها وبين كردية فمضى كردي الى كسرى فأعلمه ، ثم ان بسطام دخل
على كردية فأتته بعشاء فتناول منه ثم أتته بشراب فسقته وجعلت تحذثه
وتظهر له المحبة حتى مضى ثلث الليل ، فنام بسطام ، فلما استنفل نوما
قامت اليه كردية بسيفها فوضعتة على ثنودونه ثم انكأت فاخرجته
من ظهره فمات ، وعمدت من ساعتها الى دوابها فعملت حشها وأتقلمها
على البغال وخرجت نحو عسكر كسرى وقد كانت وجهت مع أرجية الى
اخيها ان يجلس لها على الطريق ، فلما وافته سار معها حتى أدخلها على كسرى
ففرح بذلك فرحا شديداً فلما أصبح أصعب بسطام ورأوه قتيلا ولوا هارين على
وجوههم فانصرف كسرى الى المدائن فاتخذ لكردية تاجا مكالا بالدر وحنوف
الجوهر وأعد لها وليمة عظيمة دعا فيها جنوده فطعموا وشربوا ، ثم دعا
كرديا أخاها فزوجه اياها ومهرها وأعطاهما خاتما فسه من الكبريت الأحمر
يضيء في الليلة الظلماء كما يضيء السراج ، فلما دخل بها كسرى ونظر الى
جمالها وعقلها سر بها وأعطاه الاموال وأقطعها الضياع واكرم اخاها كرديا
وولاه أرض فارس وبلغ بها من رفعة اياها وتشريفه لها ما لم تبلغه امرأة
قبلها ولا بعدها ، ثم ان كردية قالت لكسرى : يا سيدي اخرج بنا الى
الميدان لألعب بين يديك بالكرة والصولجان فخرج معها الى الميدان وخرجت
امرأته شيرين وخواص نسائه ودعا بنجيل فأسرجت وركبت وركب هو
وجعلت تلعبه بالصوالج وتناولت السيف وركضت في الميدان ولعبت
بالسيف لعبا معجبا ثم اخذت الرمح فلعبت به فقالت : شيرين : أيها الملك
ما يؤمنك من هذه الشيطانة ، قال : هيات انها أعرف ببقنا وأشد حبا لنا
من أن نخافها على أنفسنا ، فلما نزلت قال كسرى : لنا في كل ربع من أرباع
مملكتنا قائد في اثني عشر الف رجل وفي قصري اثني عشر ألف امرأة ،
وقد جعلتك قائدة عليهن ، قالت : يا سيدي ما للنساء والفروسية وانما
علينا ان نترين لك ونتطيب ونسرك بأنفسنا واردت بما كان منسي

سرورك وتسليية همومك ، فأمر كسرى بجمل طعامه وشرايه الى منزلها وبقي عندها أسبوعاً لم يخرج الى الناس ولم يأذن لاحد بالدخول عليه ثم خرج من عندها الى منزل شيرين ، فأناه صياد بسكة عظيمة فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم . فقالت له شيرين : أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فان أمرت بها لرجل من الوجوه قال : انما أمر لي بمثل ما أمر للصياد ، فقال : كيف أصنع وقد أمرت له ؟ قالت : اذا أتاك فقل له اخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى ؟ فان قال أنثى فقل : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالذكر ، وان قال ذكر فقل : مثل ذلك ، فلما غدا الصياد على الملك قال له : اخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى ؟ قال : بل أنثى . قال : فأنتي بذكرها . فقال عمرالله الملك انها كانت بكرأ لم تتزوج بعد ، قال الملك : زه زه وأمر له بأربعة آلاف درهم وأمر أن يكتب في ديوان الحكمة : ان العذر ومطاوعة النساء يورثان الغرم . قال : وكان الموبدان اذا دخل على كسرى قال : عشت أيها الملك بسعادة الجد ، ورزقت على أعداك الظفر وأعطيت الخير وجنبت طاعة النساء ، فغاظ ذلك شيرين وكانت أجمل نساء عصرها وأتمهن عقلاً فقالت لكسرى : أيها الملك ان هذا الموبدان قد طمن في السن ولست مستغنياً عن رأيه ومشورته وقد رأيت لحاجتك اليه ان أهب له مسكدانة جاريتي وقد عرفت عقلها وجمالها فان رأيت أن تسأله قبولها فافعل ، فكلم كسرى الموبدان في ذلك ، فهش للجارية لعرفته بجمالها وفضلها فقال : قد قبلتها أيها الملك لا يثارها إبادي بأفضل جواريا ، فقالت شيرين لمسكدانة : اني اريد ان تأتي هذا الشيخ فتبدي له محاسنك وتجيدي خدمته ، فاذا هش لمضاجعتك فامتنعي عليه حتى تو كفيه وتوكييه وتعلميني الوقت الذي يتها لك ذلك حتى لا يعود أن يريد في نجبة الملك — ووقيت طاعة النساء — فقالت مسكدانة : افعل يا سيدتي ، ثم انطلقت الى الشيخ فصارت عنده في داره التي يجلسها من قصر الملك فجعلت تخدمه وتبره وتظهر له

الكرامة وهي مع ذلك تبرز له محاسنها وتكشف له عن صدرها ونحرها وتبدي له ساقها وفخذها فارتاح الموبدان اليها وشرح صدره لِمُضاجعتها فجمعت تمنع عليه فيزداد في ذلك حرصا فلما ألح عليها قالت له : ايها القاضي ما أنا بمجيبتك الى ما سألت حتى أوكفك وأركبك فان اجبتني الى ذلك صرت طوع يدك فيما تريد وتدعو اليه من مسرتك فامتنع عليها اياما وبقيت تتزين له بزيتها وتكشف له عن محاسنها حتى عيل صبره فقال لها : اعلمي ما أحببت ، فهيات له برذعة صغيرة وإكافا صغيراً وحزاما وثقرا وأقامته عربانا على أربع ووضعت على ظهره البرذعة والاكاف وجمعت الثغر تحت خصيته وهي قائمة وركبته وهي تقول : خرخر وأرسلت الى سيدتها شيرين تعلمها بذلك فقالت شيرين للملك : اصعد بنا الى ظهر بيت الموبدان لننظر من الروزنة ما يكون بينه وبين الجارية فصعدا ونظرا فاذا هي قد ركبته فوق الاكاف ، فناداه كسرى : ويحك أي شيء هذا ؟ فرفع الموبدان ، رأسه ونظر الى الروزنة ورأى الملك فقال : هو ما كنت أقول لك في اجتناب طاعة النساء ، فضحك كسرى وقال : قبحك الله من شيخ وقبح مستشيرك بعد هذا .

حديث الزباء

ومنهن الزباء واسمها هند وملك الشام بعد عمها الصنور ، وكان جذية الأبرش قتل عمها فبعث اليها جذية يخطبها فظهرت البشر والسرور لرسوله وكتبت اليه بالقدوم عليها لتزوجه نفسها ، فاستشار نصيحاءه فقالوا : ايها الملك ان تزوجت بهاجمت ملك الشام وملك الجزيرة الى ملكك ، فاستخلف ابن اخيه عمرو بن عدي وسار في ألف فارس من خاصته فلما انتهى الى مكان يسمى بقة وهو حد مملكته ومملكته نزل في ذلك المكان واستشار أصحابه أيضاً في المصير اليها بالانصراف ، فزينوا له الامام

بها وقالوا : انك ان انصرفت من ههنا أنزله الناس منك على جبن ووهن ،
فدنا منه مولي له يقال له قصير بن سعد فقال له : أيها الملك لا تقبل
مجنونة هؤلاء وانصرف إلى مملكتك حتى يتبين لك أمرها فانها امرأة
موتورة ومن شأن النساء الغدر ، فلم يحفل بقوله ومضى حتى اقتحم
مملكتها فقال قصير - بقة صرم الامر - ثم أرسلها مثلاً ، ولما بلغ المرأة
قدومه عليها امرت جنودها فاستقبلوا الملك فقال قصير : أيها الملك اني
رأيت جنودها لم يترجلوا لك كما يترجل للملوك ولست آمن عليك فاركب
العصا وانج بنفسك والعصا كانت فرساً جذبية لا يشق غبارها - فلم يعبا
جذبية بقوله وسار حتى دخل المدينة ، وامرت هند الزباء باصحابه ان ينزلوا
فأنزلوا ، وأخذت منهم أسلحتهم ودوابهم وأذنت لجذبية فدخل عليها وهي
قصر لها ولم يكن معها في قصرها الا الجواري فأولأت اليهن بان يأخذنه
واجتمعن عليه ليكتفنه فامتنع عليهن فلم يزان يضربنه بالأعمدة حتى أئخذنه
وكتفنه ، ثم دعت بنطع وأجلسته فيه وكشفت عن عورتها فنظر جذبية
فاذا لها شعرة وافية فقالت : كيف ترى عروسك أشوار عروس أم ما
تري ؟ قال : أرى بطرا نائناً ونبتاً فاشياً ولا اعلم ما وراء ذلك ،
قالت : اما انه ليس من عدم المواسي ولا لثة الأواسي ولكنه شية من
اناسي ، ثم امرت به فقطعت عروقه فجعلت دماؤه تشخب في النطع فقالت
لا يجزئك ما ترى فانه دم هرافه أهله فاسلتها مثلاً ، واحنال قصير للعصا
حتى وصل اليها وركبها ثم دفمها فجعلت تموي به كأنها الريح وكان
المسكان الذي فصد فيه جذبية مشرفاً على الطريق ، فنظر جذبية اليه وقد دفع
الفرس فقال : لله حزم على رأس العصا فلم تزل دماؤه تشخب حتى مات ،
ثم امرت باصحابه فقتلوا باجمعهم وكان عمرو بن عدي يركب كل يوم من
الحيرة فيأتي طريق الشام يتجسس عن خبره وحاله فلم يبلغه احد خبره ،
فبينما هو ذات يوم في ذلك اذ نظر الى فرس مقبل على الطريق ، فلما دنا
منه عرف الفرس وقال : يا خير ما جاءت به العصا نذهبت مثلاً فلما دنا منه

قصير قال له : ما وراءك ؟ قال : قتل خالك وجنوده جميعاً فاطلب
بشارك ، قال : وكيف لي بها وهي امنع من عقاب الجو ؟ فذهبت
مشلا ، ثم ان قصيرا امر بانف نفسه فجدع ، ثم ركب وسار نحو الزباء
فاستأذن عليها فقيل لها : ان مولى الجذيمة وقهرمانه واكرم الناس عليه قد
أتاك مجدوعاً فاذنت له فدخل عليها قالت : من صنع بك هذا ؟ قال : ابنتها
الملكة هذا فعل عمرو بن عدي اتهمني ونجني علي الذنوب وزعم اني أشرت
علي خاله بالمصير اليك حتى فعل بي ما تريد ولم آمنه أن يقتلني فخرجت
هارباً اليك وقد أتيتك لا كون معك وفي خدمتك ولي جداء وعندي غناء ،
قالت : نعم أقم فعندي لك ما تحب وولته نفقتها فحرف لها ورأت منه
الرشاقة فيما اسندته اليه ، فاقام عندها حولا ثم قال لها : ابنتها الملكة ان
لي بالعراق مالا كثيراً فاذا أذنت لي في الخروج لعله فافعلي فدفعت اليه مالا
كثيراً وامرته ان يشتري لها ثياباً من الحز والوشي والآلى ، وبقوتاً ومسكاً
وعنبراً والنجوجا فانطلق حتى اتى عمراً فاخبره فاخذ منه ضعفي ماله وانصرف
نحوها فاسترخصت ما جاء به وردته الثانية والثالثة فكان ياخذ في كل مرة
مثل اضعاف ماله فيشتري لها جميع ما تريد فتسترخصه ووقع قصير بقلبهـا
فاستخلفته ثم بعثته في الدفعة الرابعة بمال عظيم وامرته ان يشتري اثاثاً ومتاعاً
وفرشاً وآنية فانطلق الى عمرو فقال قد قضيت ما علي وبقي ما عليك ، فقال
وما الذي تريد ؟ قال : اخرج معي في الفي فارس من خدمك وكونوا في
أجواف الجواليق على كل بعير رجلان فانتخب عمرو الفي فارس من اصحابه
فخرج وخرجوا معه في الجواليق كل رجل بسيف وكان يسير النهار فاذا
امسى الليل فتح الجواليق ليخرجوا ويطعموا ويشربوا ويقضوا حوائجهم حتى
اذا كان بينه وبين مدينتها مقدار ميل تقدم قصير حتى دخل عليها وقال :
أبنتها الملكة اصعدي على القصر لتنظري ما اتيتك به فصعدت فنظرت الى
نقل الاحمال على الجمال فقالت :

مَا لِلجِمَالِ مَشِيئًا وَثِيْدًا
أَجْنَدَلًا يَحْمِلُنَ أُمَّ حَدِيدًا

أَمْ صَرَفَانَا بَارِدًا شَدِيدًا

فأجابها قصير سرّاً وقال :

بَلِ الرَّجَالِ جُتْمًا مُعْوَدًا

فقال : لما عليها من المتاع الثقيل النفيس فأمرت بالأحمال فادخلت قصرها وكان وقت المساء فقالت إذا كان غداً نظرننا الى ما أتيتنا به ، فلما جن عليهم الليل فتحووا الجواليق وخرجوا فقتلوا جميع من في القصر ، وكان لها سرب قد أعدته للفرع والهرب ان حل بها روع تخرج الى الصحراء ، وقد كان قصير عرف ذلك المكان ووصفه لعمرو ، فبادر عمرو الى السراب فاستقبلته الزباء فولت هاربة نحو السرب ، فاستقبلها بالسيف فمصت فصها وكان مسموماً وقالت : بيدي لا بيدك يا عمرو ولا بيدي العبد ، فقال عمرو يده ويدي سواء ، وفي كليهما شفاء وضربها بسيفه حتى قتلها ، واقبل قصير حتى وقف عليها فجعل يدخل سيفه في فرجها ويقول :

وَلَوْ رَأَوْنِي وَسَيْفِي يَوْمَ أُدْخِلُهُ
فِي جَوْفِ زَبَاءَ مَا تَوَا كَلَّمُهُمْ فَرَحًا

وغنم عمرو واصحابه من مدينتها اموالا جليلة وانصرفوا الى الحيرة ، فكان الملك بعد خاله جذبية ، وعمرو هذا هو جد النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي . ومنهن صاحبة الجمدة بن الحسين أبي صخر بن الجهم ، وكان جهم قد طمن في السن ، وكان يكنى أب الصوت ، وكانت له وليدة سوداء فقالت يا أبا الصوت زعم بنوك ان يقتلوني اذا انت مت قال : ولم ذاك ؟ قالت : مالي اليهم ذنب غير حبك فاعتقني ، فأعتقها فبقيت يسيراً ثم قالت : يا أبا الصوت هذا عرابة من أهل عدن يخطفني ، قال : ما كان هذا ظني بك ، قالت : انها أريد ماله لك ، فقال : اتيني به فيجاءت به فزوجها منه فولدت منه وقربته من مال جهم ، وكانت تأتي الجهم ، فتخضب

رأسه ثم قطعته فقال الجعد :

أَبْلَغُ لَدَيْكَ بَنِي عَمْرٍ مُغْلَغَلَةً عَوْفًا وَعَمْرًا فَمَا قَوْلِي بِرُدُودِ
بَأَنَّ بَيْتِي أَمْسَى فَوْقَ دَاهِيَةِ سَوْدَاءَ قَدْ وَعَدْتَنِي شَرًّا مَوْعُودِ
تُعْطِي عُرَابَةَ بِالْكَفِينِ مُخْتَضِبًا مِنْ الْخَلُوقِ وَتُعْطِينِي عَلَى الْعُودِ
أَمْسَى عُرَابَةٌ ذَا مَالٍ وَذَا وَاوَلِدٍ مِنْ مَالٍ جَعْدٍ وَجَعْدٌ غَيْرُ مُحَمَّدِ

ومنهن امرأة مروان بن الحكم ، وكانت ام خالد بن يزيد بن معاوية وهي ابنة هشام بن عتبة فأراد مروان الخروج الى مصر فقال لخالد : أعزني سلاحك فأعاره ، فلما رجع قال له خالد : رد علي سلاحي ، فابى عليه وكان مروان فحاشاً فقال له : يا بن الربوخ الرطبة ، فجاء خالد الى امه فقال : هذا ما صنعت بي سبني على رؤوس الملائق قال لي كيت وكيت قاتت : اسكت فاني اكفيك امره ، فجاء مروان فرقد عندها فامرت جواربها فطرحن عليه الشوادكين - يعني الملاحف - ثم غططنه حتى قتلنه وخرجن يصحن : وا أمير المؤمنين ، فدعا عبد الله بامرأة أبيه ليقتلها فقالت : ان الذي يبقى عليك من العار أعظم من قتل ابيك ، قال : وما ذاك ؟ قالت : يقول الناس ان أباك قتلته امرأة ، فامسك عنها :

٣٨ - محاسن مكر النساء

ذكروا ان الحجاج بن يوسف أرق ذات ليلة فبعث الى ابن القرية فقال : فقال : أرق فحدثني حديثاً يقصر على طول ليلي ولكن من مكر النساء وفعالهن ، فقال أصلح الله الأمير ذكروا أن رجلاً يقال له عمرو بن عامر من أهل البصرة كان معروفاً بالنسك والسخاء ، وكانت له زوجة يقال لها جميلة ، وله صديق من النسك فاستودعه عمرو ألف دينار وقال : ان حدثت

بي حادثة ورأيت أهلي محتاجين فاعطهم هذا المال فعاش ما عاش ثم دعى فأجاب ، فمكثت جميلة بعده حيناً ثم ساءت حالها وأمرت خادمتها يوماً ببيع خاتمها لغداء يوم أو عشاء ليلة فبينا الخادمة تعرض الخاتم على البيع إذ لقيها الناسك صديق عمرو فقال : فلانة ؟ قالت : نعم ، قال : حاجتك ؟ فأخبرته بسوء الحال وما اضطرت اليه مولانها من بيع خاتمها ، فهات عيناه دموعاً ثم قال : ان لعمرو قبلي ألف دينار فاعلمي بذلك صاحبتك ، فاقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة وهي تقول : رزق حلال عاجل من كد مولاي الكريم الفاضل ؛ فلما سمعت مولانها ذلك سألتها عن القصة فأخبرتها فخرت ساجدة ، وحمدت ربها وبعثت بالجارية الى الناسك ، فأقبل الناسك ومعه المال ، فلما دخل الدار كره أن يدفع المال الى أحد سواها ، فخرجت فلما نظر الى جمالها وكلها أخذت بجامع قلبه وفارقه النهي وذهب عنه الحياء وأنشأ يقول :

قَدْ سَلَبْتِ الْجِسْمَ وَالْقَلْبَ مَعًا وَرَبَّتِ الْعَظْمَ مِمَّا تَلَحَّظِينَ
فَارْدُدِي قَلْبَ عَمِيدٍ وَاقْبَلِي صِلَةَ الضَّعْفَيْنِ مِمَّا تَرْتَجِّينَ

فأطرفت جميلة لقوله طويلاً ثم قالت : ويحك ألسنت المعروف بالنسك المنسوب الى الورع ؟ قال : بلى ولكن نور وجهك سل جسدي فتداركيني بكلمة تقيمين بها أودي فهذا مقام اللائذ بك ! قالت : أيها المرأئي الخادع أخرج عني مذموماً مدحوراً فخرج عنها وقد هام قلبه ، وأضحت جميلة تعمل الحيلة في استخراج حقها ، فانت الملك ترفع اليه ظلامتها فلم تصل اليه ، فانت الحاجب فشكت اليه فاعجب بها اعجاباً شديداً وقال : ان لوجهك صورة أرفعها عن هذا ولا يجمل بمثلك الخصومة فهل لك في ضعفي مالك في ستر ورفق ؟ فقالت : سوءة لامرأة حرة تميل الى ربيبة ، فانصرفت الى صاحب الشرطة فانتهت ظلامتها اليه فاعجب بها وقال : ان حجبتك على الناسك

لا تقبل الا بشاهدين عدلين : وانا مشتر خصومتك ان انت نزلت عند مسرتي ، فانصرفت عنه الى القاضي فشكت اليه فاخذت بقلبه وكاد القاضي يحن إعجاباً بها وقال : يا قرة العين انه لا يزهد في أمثالك فهل لك في في مواصلي وغناء الدهر ؟ فانصرفت وباتت تحتال في استخراج حقها ، فبعثت الجارية الى نجار فعمل لها تابوتا بثلاثة أبواب : كل منها مفرد ، ثم بعثت الجارية الى الحاجب أن يأتيها اذا أصبح ، والى صاحب الشرطة أن يأتيها ضحوة ، والى القاضي أن يأتيها اذا تعالى النهار ، والى الناسك ان يأتيها اذا انتصف النهار ، فأتاها الحاجب فأقبلت عليه نحدته فيما فرغت من حديثها حتى قالت لها الجارية : صاحب الشرطة بالبواب فقالت للحاجب ليس في البيت ملجأ الا هذا التابوت فادخل أي بيت شئت منه فدخل الحاجب بيتاً من التابوت فأقفلت عليه : ودخل صاحب الشرطة ، فأقبلت جميلة عليه تضاحكه وتلاطفه فما كان بأسرع من ان قالت الجارية القاضي بالبواب ، فقال صاحب الشرطة : اين أخبىء ؟ فقالت لا ملجأ الا هذا التابوت وفيه بيتان فادخل أيها شئت ، فدخل فأقفلت عليه ، فلما دخل القاضي قالت : مرحبا واهلا واقبلت عليه بالترحيب والتلطيف فيينا هي كذلك اذ قالت الجارية : الناسك بالبواب ، فقال القاضي : ماذا تريد في رده ؟ فقالت : مالي الى رده سبيل قال : فكيف الحيلة ؟ قالت : اني مدخلتك هذا التابوت ومخاضته فاشهد لي بما تسمع واحكم بيني وبينه بالحق قال : نعم فدخل البيت الثالث فأقفلت عليه ، ودخل الناسك فقالت له مرحبا بالزائر الجاني كيف بدالك في زيارتنا ؟ قال : شوقا الى رؤيتك وحنينا الى قربك قالت : فالمال ما تقول فيه ؟ اشهد الله على نفسك برده اتبع رأيك قال : اللهم إني أشهدك أن جميلة عندي ألف دينار وديعة زوجها ، فلما سمعت ذلك هتفت بجارتها وخرجت مبادرة نحو باب الملك فانبت ظلامتها اليه ، فارسل الملك الى الحاجب وصاحب الشرطة والقاضي فلم يقدر على واحد منهم ، ففعد لها وسألها البينة فقالت : يشهد لي تابوت

عندي فضحك الملك وقال : يحتمل ذلك لجمالك ، فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها وحمل الى بين يدي الملك ، فقامت وضربت بيدها الى التابوت وقالت : أعطي الله عهداً لتنطقن بالحق ، وتشهدن بما سمعت ، أو لأضرمك نارا ، فاذا ثلاثة أصوات من جوف التابوت تشهد على اقوار الناسك لجمية بالف دينار : فكبر ذلك على الملك ، فقالت جمية : لم أجد في المملكة قوما أو في ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فأشهدتهم على غريمي ، ثم فتحت التابوت وأخرجت ثلاثة النفر وسألها الملك عن قصتها فاخبرته وأخذت حقها من الناسك ، فقال الحجاج : لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها . قال : وكان يعقوب بن يحيى المدائني ويحيى السكاتب كاتب سهل بن رستم يتحدثان الى مهديّة جارية سليمان بن الساحر فقال يعقوب يوما ليحيى أنا أشتهي ان أرى بطن مهديّة ، فقال يحيى : ما تجعل لي ان أنا احتلت لك بجمية حتى تراه ؟ قال : ما شئت قال : برذونك هذا قال : نعم ، قال : فتوثق منه ، وأتى مهديّة فقال لها : كان لي برذون موائق فاره فنفق وانت لو شئت لملتني على برذون فاره ، قالت : انا افعل واشتريه لك بما بلغ الثمن ، قال : انت فادرة عليه بغير الثمن ، قالت : كيف ذلك ؟ فاخبرها بالقصة فقالت : قد حملك الله على البرذون واربحك النظر الى بطن حسن ، فاذا كان غداً فتعال انت ويعقوب فاجلسا ، فان سليمان يبعث بوصيفته فلانة كثيرا ، فاذا فعل ذلك وجئت انا فقل : انت يا مهديّة لو علمت ما صنع فلان لقلته ، قال : نعم ، فلما جاءت مهديّة ، قال لها : ان امر سليمان مع وصيفته اشنع بما تقدرينه ، فوثبت مستشيطة غضباً وقالت : مثلك يابن الساحر يفعل هذا مرة بعد اخرى ، وشقت جيبها الى ان جاوزت اسفل البطن وهي قائمة ، فنظر الى بطنها فتأملناها ساعة وهي نشتم ابن الساحر ، فقام اليها يترضاها ويسكنها ويعقوب يقول

وابرذونه فاخذه منه يحيى . وعن المنصور قال : كان عندنا بالاهواز رجل متأهل وكانت له ارض بالبصرة وكان في السنة يأتيها مرة او مرتين فتزوج بها امرأة ليس لها الا عم في الدار ، وكان يكثر الانحدر بعد ذلك الى البصرة فانكرت الأهوازية حاله فدمت من يعرف خبره ، ثم احتالت وبعثت من اورد خطأ لعم المرأة البصرية وسألت من كتبت كتابا من عم البصرية الى زوجها على خطه بان ابنة أخيها توفيت ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت ودست الكتاب مع انسان شبيه بالملاح ، فلما أتى بالكتاب خرج اليه فدفع الكتاب ولم يشك ان امرأته البصرية ماتت فقال لامرأته اجعلي لي سفرة ، قالت : ولم ؟ قال : اريد الخروج الى البصرة ، قالت وكم هذه البصرة ؟ قد رايتي امرك : وما اشك ان هنالك لك امرأة : فأنكر ذلك ، فقالت : ان كنت صادقاً فأحلف بطلاق كل امرأة لك غيري ، فقال في نفسه : تلك قد ماتت ، وليس علي أن احلف بطلاقها فأرضى هذه ، فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الأهوازية ، فقالت الاهوازية : يا جارية هات السفرة فقد أغناه الله عن الخروج ، قال ، وما ذلك ؟ قالت : قد طلقت الفاسقة ، وقصت عليه القصة ، فعرف مكرها وأقام .

٣٩ - مساوي مكر النساء

وذكروا أن لقمان بن عد صاحب ليد خرج بجول في قبائل العرب فنزل بجي من الهمايق ، فبينما هو كذلك اذ ظعن القمر فظعن معهم فسمع بأمرأة تقول لزوجها : فلان لو حملت سفطي هذا حتى تجاوز به الثاية فان فيه من متاع النساء ما لا يد له من منه ، وامن البعير يقع فيتكسر وذلك من لقمان بنظار ومسمع يقال : اعمل ، فاحتمله على عاتقه فلما انحدر وجد بللا في صدره فشمه فاذا هو ربح بول قد جاء من السقط الذي على رأسه ففتح

السطف فاذا هو بعلام قد خرج منه يعدو، فلما نظر لقمان قال : يا إحدى بنات طبق - وبنات الطبق أن تأتي الحية السليفة فتلتوي عليها فتبيض بيضة واحدة فتخرج منها حية شبراً أو نحوه لا تضرب شيئاً الا أهلكته - فتبعه لقمان حتى لحقه ، فجاء به بحمله واجتمع الناس اليه وقالوا : يا لقمان احكم فيما ترى فقال : ردوا الغلام في السطف يكون من سنوى حتى يرى ويعلم أن العقاب فيما أتى وتحمله المرأة بفعلها حملها ما حملت زوجها ثم شدوا عليها فان ذلك جزاء مثلها فعمدوا الى الغلام فشدوه في السطف ثم شدوه في عنق المرأة ثم تركوها حتى ماتا ثم فارقههم لقمان ، فأتى قبيلة أخرى فنزل بهم ، فبينما هو كذلك اذ بصر بامرأة قد قامت عن بنات لها فسألت احداهن أين تذهين ؟ قالت : الى الخلاء ثم خرجت الى بيوت الحي فعارضها رجل فمضيا جميعاً ولقمان ينظر ، فوقع الرجل عليها وقضى حاجته منها ، قالت المرأة : هل لك أن تماوت على أهلي فانما هو ثلاثة أيام أكون في رجمي ثم تجيء ، فتستخرجني فتمتتع فقال الرجل : انعلي ، وكان اسمه الخلي وزوج المرأة اسمه الشجي فقال لقمان - ويل للشجي من الخلي - فذهبت مثلاً فلم تلبث المرأة الا ايام حتى تماوتت على أهلها وكان الميت منهم اذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن اذ ذاك قبور ، فلما كان اليوم الثالث جاءها خليلها فأخرجها وانطلق بها الى منزله ونحوه الحي من ذلك المسكان وخافت المرأة أن تعرف فجزت شعرها وتركت لنفسها حمة ، فبينما كذلك اذ خرج بنات المرأة فاذا هن بامرأة جالسة ذات حمة ، فقالت الصغرى : أمي والله قالت الوسطى : صدقت والله قالت المرأة كذبتا ما أنا لكما بأم ، قالت الكبرى ، صدقت والله لقد دفنا أمنا غير ذات حمة ما كان لأمنا الامة ، قالت الصغرى ، هبك أنكزمت اعلاها أما تعرفين أخراها فتعلقت به فقالت : صفراهن مرهن فذهبت مثلاً ، واجتمع الناس وجاء زوج المرأة فارتفعوا الى لقمان فقالوا احكم بيننا ، فقال لقمان : * عند جهينة الخبر اليقين * فذهبت مثلاً وكان يلقب بجهينة فقال لقمان للمرأة : أحبك أم تخبريني؟

قالت بل قل ، قال : انك قلت لهذا اني متماوتة على أهلي فاذا دفنوني في رجمي جئت فاستخرجتني وأنكر لهم فلا يعرفوني فنتنعم ما بقينا ، فاعترفت المرأة فقيل للقيمان : احكم بيننا ، قال ارجوها كما رجمت نفسها ، فحفر لها حفرة وألقوها فيها ورجمها ، وكانت أول مرجوءة في العرب ، ثم ان زوجها تعلق بالخلي فقال : يا قيمان هذا فراق بيني وبين أهلي فقال لقيمان : لكل ذكر أنثى ولكل اول آخر فرق بينك وبين أشاك ، ونفرك بين ذكره وبين أنثيه فقطع ذكره فمات

٤٠ - محاسن الغيرة

روى انه إذا أغبر الرجل في أهله او في بعض مناسكجه او بملوكته فلم يفر بعث الله جل اسمه اليه طيراً يقال له : القرقنة حتى يسقط على عارضة بابه ، ثم ينهله أربعين صباحاً يهتف به : إن الله غيور يجب كل غيور ، فان هو تغير وأنكر ذلك والا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه ، فينزع الله منه روح الايمان ، وتسميه الملائكة الديوث . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء فان كانت المعايبة واللقاء كان الداء الذي لا دواء له) وروى ان امرأة ذات عقل ورأي حملت من فاجر فقيل لها في ذلك فقالت : قرب الوساد وطول السهاد - تريد قرب مضجعه منها وطول مسارته اياها - وقال صلى الله عليه وسلم (النساء حبائل الشيطان) ، وقال سعيد بن مسلم : لأن يرى حرمتي ألف رجل على حال تكشف وهي لا تراهم أحب إلي من أن ترى حرمتي رجلاً مواجهة وقيل لعقيل بن علفة ألا تزوج بناتك ؟ فقال : أجميعن فلا يآشرن واعرين فلا يظهرن ، فوافق احدى كلمتيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الصوم وجاء السيئة) ، والأخرى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : استعينوا عليهن بالعري . وغاية اموال الرجال وكسبهم وهمهم وما يملكون إنما

هو مصروف الى النساء ، فلو لم يكن الا ما يعد لهن من الطيب والحلى والكساء والفرش والآنية كان في ذلك ما كفى ، ولو لم يكن الا الاهتمام بالحفظ والحراسة وخوف العار من خيانتهم والجنابة عليهم لكان في ذلك المثونة العظيمة والمشقة الشديدة غير أن أولي الاشياء بالرجال حفظهم وحراستهم ، فليس شيء لهن أصلح من مباعدهن عن الرجال وقمعهم بالعري والجوع ، ومن حق الملوك أن لا يرفع أحد من خاصتها وبطنها رأسه الى حرمة لها صغرت أم كبرت ، فكم من قيل وطىء هامة عظيم وبطنه حتى بدت أمعاؤه ؟ وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقته السباع ونهشته ؟ وكم من جارية كريمة على قومها عزيزة في أهلها وقد أكلها حيتان البحر وطير الماء ؟ وكم من جمجمة كانت تصان وتعل بالملك والبان قد أقيت بالعراء وغابت جثتها في الثرى بسبب الحرم والخدم والغلمان ، ولم يأت الشيطان أحداً قط من باب حتى يراه بحيث من يهوى مستقيم اللحم والأعضاء هو أبلغ من مكيدته وأخرى ان يرى فيه أمانة من هذا الباب اذ كان من أطف مكابده وأدق وساوسه وأجل تزايبه . وقيل لابنة الحس لم زنت بعبدك ولم تزن بجر ؟ قالت : طول السهاد وقرب الوساد . وقيل : لو أن أفبح الناس وجها ، وأنتهم رائحة ، وأظهرهم فقراً وأسقطهم نفساً ، وأوضعهم حسباً قال لامرأة تمكن من كلامها ومكنته من سمها : والله يا ولاتي لقد أسهرت ليلى ، وأرقت عيني ، وشغلتنى عن مهم أوري ، فما اعقل أهلاً ولا ولداً ولو كانت اربع الناس جبالاً ، وأكلهم كمالاً ، وألمحهم ملاحاً ، وان كانت عينه تدمع بذلك ، ثم كانت تكون مثل أم الدرداء ، أو معاذة العدوية ، أو رابعة القيسية لما ت اليه وأحبته . ومنها قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اضربوهن بالعري ، فان النساء يخرجن الى الأعراس ، ويقمن في المناحات ، ويظهرن في الاعياد ، ومتى كثر خروجهن لم يعد بد أن يرين من هو شكلمهن ولو كان يعلمن أتم حسناً وأحسن وجها والذي رأته أنقص حسناً ، ولكن ما لا تملكه أظرف عندها بما تملكه ، ولكن

ما لم تملكه أو تستكثر منه أشد لها اشتغالا واجتذابا قال الشاعر :

وَلِلْعَيْنِ مَلْهُىً بِالنِّسَاءِ وَلَمْ يُقْدُ

هُوَى النَّفْسِ شَيْءٌ كَأَقْتِيَادِ الطَّرَائِفِ

وكانت الأكلسة إذا امتعنت الخاصة من أصحابها وخف الواحد عنهم على قلب الملك ، وكان الرجل عالماً بالحكمة موضعاً للامانة في الدماء والفروج والأموال على ظاهره ، فيأمره أن يتحول إلى منزله ، وان تفرغ اليه حجرة ، وان لا يتحول اليه بامرأة ولا جارية ولا حرمة ويقول له : أريد بك الانس في ليلى ونهاري ، وكان معك بعض حرمك قطعك عني ، اجعل منصرفك إلى منزلك في كل خمس ليال ، فاذا تحول الرجل أنس به وخلا معه وكان آخر من ينصرف من عنده فيتركه على هذه الحالة أشهراً . امتحن ابرويز رجلاً من خاصته بهذه المحنة ثم دس اليه جارية من بعض جواربه ووجه معها اليه بالطاف وهدايا ، وامرها ان لا تقعد عنده في اول مرة فأنته بالطاف الملك وقامت بين يديه ، ولم تلبث أن انصرفت حتى إذا كانت المرة الثانية أمرها ان تقعد هنيئة وان تبدي عن محاسنها حتى يتأملها ففعلت ، ولاحظها الرجل وتأملها ، وجعل الرجل يجد النظر اليها ويسر بمحادثتها ، ومن شأن النفس أن تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطايبه ، فلما أبدى ما عنده قالت : اخاف ان يعثر علينا ولكن دعني حتى أدبر في هذا ما يتم به الأمر بيننا ، ثم انصرفت فأخبرت الملك بذلك وبكل شيء جرى بينها ، فلما كانت المرة الثالثة أمرها ان تطيل القعود عنده وان تحدثه وان أرادها على الزيادة في المحادثة أجابته اليه ففعلت ، ووجه اليه أخرى من خواص جواربه وثقاتهن بالطافه وهداياها فلما جاءت قال لها : ما فعلت فلانة ؟ قالت : اعنتك فاربد لون الرجل ، ثم لم تطل القعود عنده كما فعلت الاولى ، ثم عاودته فقعدت

أكثر من المقدار الاول وأبدت بعض محاسنها حتى تأملها ، وعاودته في المرة الثالثة وأطالت القعود والمضاحكة والمهازلة فدعاها الى ما في تركيب النفس من الشهوة فقالت : انا من الملك على خطأ بسيرة ومعه في دار واحدة ، ولكن الملك يمضي بعد ثلاث الى بستانه الذي بموضع كذا فيقيم هناك ، فان أراذك على الذهاب معه فأظهر أنك عليل وتمارض ، فان خيرك بين الأنصراف الى نسائك أو المقام هنا فاختر المقام وأخبره أنك لا تقدر على الحركة ، فان أجابك الى ذلك جئت من أول الليل فأكون معك الى آخره ، فسكن الرقيع الى قولها ، وانصرفت الجارية فأخبرت الملك بكل ما دار بينهما ، فلما كان الوقت الذي وعدته أن يخرج الملك فيه دعاه الملك فقال للرسول : أخبره أنني عليل ، فلما جاءه الرسول وأخبره تيسم وقال هذا أول الشر ، فوجه اليه محفة يحمل فيها فأتاه وهو معصب ، فلما بصر به قال : والمحفة الشر الثاني فبين العصابة فقال : والعصابة الشر الثالث ، فلما دنا من الملك سجد فقال له : متى حدثت بك هذه العلة ؟ قال هذه اللبنة قال : فأبي الامرين أحب اليك الانصراف الى نسائك لتريضك أم المقام هنا لوقت رجوعي ؟ قال المقام هنا أيا الملك أوفق لقلة الحركة ، فتيسم أبرويز وقال حركتك هنا ان تركت اكثر من حركتك في منزلك ، ثم أمر له بعضا الزناة التي كانت يوسم بها من زني فأيقن الرجل بالشر وأمر أن يكتب مما كان من أمره حرفاً حرفاً فيقرأ على الناس إذا حضروا ، وان ينفي الى اقصى ملكته ، وتجعل العصا في رأس رمح يكون معه حيث كان ليحذر من يعرفه منه ، فلما خرج الرجل من المدائن متوجهاً به نحو فارس أخذ مديّة كانت مع بعض الموكلين به فجببها ذكره وقال : من اطاع عضواً صغيراً من اعضائه أفسد عليه جميع اعضائه فبات من ساعته . وفيما يذكر عن أنوشروان انه اتهم رجلاً من خاصته في بعض حرمه فلم يدر كيف يقتله ؟ لا هو وجد أمراً ظاهراً يحكم بثله الحاكم فيسفك به دمه ، ولا قدر على

كشفت ذنبه لما في ذلك من الهوان على الملك والمملكة ، ولا وجد عذراً لنفسه في قتله غيلة اذ لم يكن في شرائع دينهم ووراثه سلفهم فدعا الرجل بعد جنايته بسنة في خلوة فقال : قد حزبني أمر من أسرار ملك الروم وبني حاجة الى علمها . وما أجدني اسكن الى أحد سكوني اليك اذ حلت من قلبي المحل الذي انت به ، وقد رأيت ان تحمل لي مالا الى هناك للتجارة وتدخل بلاد الروم فتقيم بها ، فاذا بهت ما معك حملت بما في بلادهم من تجاراتهم واقبات الي وفي خلال ذلك تصغي الى اخبارهم وتطلع الي ما بنا الحاجة الى معرفته من امورهم واسرارهم نقل : اقبل ايها الملك وارجو ان ابلغ في ذلك محبة الملك ورضاه فأمر له بال وتجهز الرجل وخرج بتجارته ، فأقام في بلاد الروم حتى باع واشترى ، وفهم من كلامهم ولغاتهم ما عرف به مخاطباتهم وبهض اسرار ملكهم ، وانصرف الى أنوشروان بذلك فأراه الايثار به وزاد في بوه وردة الى بلادهم وامره بالتمام والتربص بتجارته ، ففعل حتى عرف واستفاض ذكره فلم تزل تلك حاله ست سنين ، حتى اذا كانت السنة السابعة امر الملك ان تصور صورة الرجل في جام من جاماته التي يشرب فيها ، وتجعل صورته بازاء صورة انوشروان ، ويجعل مخاطباً لأنوشروان ومشيراً عليه واليه ، ويدني رأسه من رأس الملك في تلك الصورة كأنه يساره ثم وهب ذلك الجام لبعض خدمه وقال : ان الماوك يرغبون في مثل هذا الجام ، فاذا اردت بيعه فادفعه الى فلان اذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته وقل له : يبيعه من الملك نفسه فانه ينفعك ، فان لم يمكنه بيعه من الملك باعه من وزيره او بعض خاصته فجاء غلام الملك بالجام وقد وضع الرجل رجله في الركاب فسأله ان يبيع جامه من الملك وان يتخذ عنده بذلك يدا وكان الملك يمز ذلك الغلام ، وكان من خاصة غلمانه وصاحب شرايه فأجابه الى ذلك ، وامر بدفع الجام الى صاحب خزانته وقال : احفظه ، فاذا صرت الى باب الملك فليكن بما اعرضه عليه ، فلما صار الى باب الملك دفع صاحب الخزانة اليه

الجام فعرضه على الملك فيما عرض عليه ، فلما وقع الجام في يد الملك نظر اليه ونظر الى صورة أنوشروان فيه والى صورة الرجل وتركيبه عضواً عضواً وجارحة جارحة فقال للرجل : أخبرني هل يصور مع صورة الملك رجل خسيس ؟ قال : لا قال : فهل تصور في آنية الملك صورة لا أصل لها ولا علة؟ قال : لا قال : فهل في دار الملك اثنان يتشابهان في صورة واحدة حتى يكون هذا كأنه ذلك في الصورة وكلاهما نديبا الملك ؟ قال : لا أعرفه قال له : قم قائماً فقام فوجد صورته في الجام فقال له أدبر فأدبر ، فتأمل صورته في الجام فوجدهما بجكابة واحدة ، فضحك ولم يجسر الرجل أن يسأله عن سبب ضحكته اجلالاً له واعظاماً فقال ملك الروم : الشاة أعقل من الانسان اذ كانت تخفي مديتها وتدفنها وإنما أهديت الينا مديتك بيدك فقال للرجل تغديت ؟ قال لا : قال قربوا له طعاماً قال : أيها الملك أنا عبد والعبد لا يأكل بحضرة الملك قال الملك : أنت عبد ما دمت عند ملك الروم مطلعاً على أموره متتبعاً لأسراره ملك اذا قدمت بلاد فارس ونديم ملكها أطعموه وأطعم وسقى الخمر حتى اذا نمل قال من سير ملوكنا ان لا نقتل الجاسوس الا في أعلى موضع نقدر عليه ولا نقتله جائعاً ولا عطشاناً فأمر به فأصعد الى سطح كان يشرف منه على كل من كان في المدينة اذا صعد فضربت عنقه هناك ، وأقيمت جثته من ذلك السطح ، ونصب رأسه للناس ، فلما بلغ ذلك كسرى أمر صاحب الجرس ان يضرب بأجراس الذهب ويمر على دور نساء الملك وجواريه ويقول : كل نفس ذائقة الموت كل أحد اذا وجب عليه القتل ففي الارض يقتل الامن تعرض لحرمة الملك فانه يقتل في السماء ، فلم يدر أحد من اهل المملكة ما أراد به حتى مات .

(ومثله من أخبار العرب) ذكروا أنه كان لطسم وجديس ملك يقال يقال له عمليق ظلوم غشوم ، وكانت لانزف جارحة الى زوجها إلا بدوه بها فافتزعها وردها الى بعابها ، ثم أن رجلاً من جديس تزوج غفيرة بنت غنار عظيم جديس ورئيسها ، فلما أرادوا أن يهدوها اليه بدوها بها عمليق

فادخلوها عليه معها و القيان يتفنين ويضربن بالدفوف ويقلن :

إِبْدِي بِعَمَلِيْقَ وَمَعَهُ فَارَكِي وَبَادِرِي الصُّبْحَ بِأَمْرِ مُعْجِبِ
فَسَوْفَ تَلْقَيْنَ الَّذِي لَمْ تَطْلُبِي وَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِهِ مِنْ مَذْهَبِ
فجعلت تقول وهي تزف :

مَا أَحَدٌ أَذَلُّ مِنْ جَدِيسِ أَهْكَذَا يُفْعَلُ بِالْعُرُوسِ
يَرْضَى بِهَذَا يَا لِقَوْمِي حُرُّ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْدَى وَسِيقَ الْمَهْرُ؟
لَأَنْ يُبْلَا فِي الْمَرْءِ مَوْتُ نَفْسِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ فِعْلِ ذَا بَعْرُسِهِ

فلما دخلت عليه افترعها ، ثم خلى سبيلها فخرجت ووقفت على أخيها
الاسود بن غفار وهو قاعد في نادي قومه وقد رفعت ثوبها عن عورتها
وأنشأت تقول :

أَيْصَلِحُ مَا يُؤْتِي إِلَى فِتْيَانِكُمْ وَأَنْتُمْ رِجَالٌ كَثْرَةٌ عَدَدَ الرَّمْلِ
وَتَرْضُونَ هَذَا يَا لِقَوْمِي لِأَخْتِكُمْ عَشِيَّةَ زُفْتٍ فِي النَّسَاءِ إِلَى الْبَعْلِ
فَإِنَّ أَنْتُمْ لَمْ تَنْضَبُوا بَعْدَ هَذِهِ فَكُونُوا نِسَاءً فِي الْمَنَازِلِ وَالْحُجُلِ
وَدُونِكُمْ طَيْبَ النَّسَاءِ وَإِنَّمَا خَلَقْتُمْ جَمِيعًا لِلتَّرْتِينِ وَالْكُحْلِ
فَلَوْ أَنَّنا كُنَّا رِجَالًا وَكُنْتُمْ نِسَاءً لَكُنَّا لَا نُقِيمُ عَلَى ذَحْلِ
فُقُبْحًا لِبَعْلِ لَيْسَ فِيهِ حَمِيَّةٌ وَيَخْتَالُ يَمْشِي بَيْنَنَا مِشِيَةَ الْفَحْلِ
فموتوا كراماً أو أصيبوا عدوكم

بِذَاهِيةٍ تُورِي ضَرَامًا مِنَ الْجَزْلِ

وإِلَّا فَخَلُّوا دَارَكُمْ وَرَحِّلُوا
 وَلَا تَخْرُجُوا لِلْحَرْبِ يَا قَوْمِ إِنَّهَا
 فِيهِلِكُمْ فِيهَا كُلُّ وَعْدٍ مُؤَاكِلٍ
 فَلَمَّا سَمِعَتْ جَدِيسٌ شَعْرَهَا أَنْفَتَتْ أَنْفًا شَدِيدًا وَأَخَذَتْهُمُ الْحَمِيَّةَ فَتَأَمَّرُوا بَيْنَهُمْ
 وَعَزَمُوا عَلَى اغْتِيَالِ الْمَلِكِ وَجُنُودِهِ فَقَالُوا : إِنْ نَحْنُ بَادَهُنَا بِالْحَرْبِ لَمْ نَقْرَ
 عَلَيْهِمْ لِكثْرَةِ جُنْدِهِمْ وَأَنْصَارِهِمْ فَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ إِنَّ الْأَسْوَدَ أَتَى الْمَلِكَ
 فَقَالَ : إِنِّي أَحِبُّ أَنْ تَجْعَلَ غَدَاكَ عِنْدِي أَنْتَ وَجُنُودُكَ ، فَقَالَ عَمَلِيْقُ : إِنْ
 عَدَدَ الْقَوْمِ كَثِيرٌ وَأَحْسَبُ أَنَّ الْبُيُوتَ لَا تَسْعَمُهُمْ فَقَالَ الْأَسْوَدُ : فَخَرَجَ لَهُمُ
 الطَّعَامَ إِلَى بَطْنِ الْوَادِيِّ فَقَالَ لِقَوْمِهِ : إِذَا اسْتَمْتَلَّ الْقَوْمُ بِالْأَكْلِ فَسَلِّمُوا
 سِوْفَكُمْ وَاعْمَلُوا عَلَى أَنْ نَحْمِلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَاقْتُلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ،
 وَهَيَّا الْأَسْوَدُ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ ، وَجَاءَ الْمَلِكُ فَلَمَّا أَكْبَدَ الْقَوْمَ عَلَى
 الْأَكْلِ بَادَرَتْ جَدِيسٌ إِلَى سِوْفِهِمْ ، ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَى الْمَلِكِ وَعَلَى جُنُودِهِ وَالْأَسْوَدَ
 يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ :

يَا صُبْحَةَ يَا صُبْحَةَ الْعَرُوسِ حَتَّى تَمَشْتِ بِدَمِ جَمِيسِ

يَا طَسْمُ مَا لَقَيْتِ مِنْ جَدِيسِ هَلَكْتَ يَا طَسْمُ فَهَيْسِي هَيْسِي

فَقَتَلُوهُ وَجُنُودَهُ جَمِيعًا . وَمِثْلُهُ الْفَطَيُونُ مَلِكُ تِهَامَةَ وَالْحِجَازِ ، فَانْهَسَتْهُ
 مَسَلِكُ عَمَلِيْقُ فِي مَلِكِ طَسْمِ وَجَدِيسِ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ ، فَأَمَرَ أَنْ لَا تَزْفَ مِنْ
 الْيَهُودِ فِي مَمْلَكَتِهِ امْرَأَةٌ إِلَّا بَدَّوهُ بِهَا فَلَبِثَتْ عَلَى ذَلِكَ عِدَّةَ أَحْوَالٍ حَتَّى زَوَّجَتْ
 امْرَأَةً مِنَ الْيَهُودِ مِنْ ابْنِ عَمِّهَا ، وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ رَائِعَةٍ ، وَكَانَتْ أُخْتُ
 مَالِكِ بْنِ عَجْلَانَ مِنَ الرِّضَاعَةِ ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَهْدُوَهَا إِلَى زَوْجِهَا خَرَجَتْ إِلَى
 نَادِي الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ رَافِعَةً ثَوْبَهَا إِلَى سَرْتِهَا ، فَقَامَ إِلَيْهَا مَالِكُ بْنُ الْعَجْلَانَ
 فَقَالَ : وَيْحَكَ وَمَا دَهَاكَ ؟ فَقَالَتْ : وَمَا يَكُونُ مِنَ الدَّاهِيَةِ اعْظَمَ مِنْ

ان ينطلق بي الى غير بعلي بعد ساعة ، فأنف من ذلك أنفاً شديداً فدعا
 بيزة امرأة فلبسها ، فلما انطلقوا بالمرأة الى الفطيون صار كواحدة من
 نساها اللواتي ينطلقن بها متشبهاً بامرأة ، وقد اعد سكينا في خفه ، فلما
 دخلت المرأة على الفطيون مال مالك الى خزانة في ذلك البيت فدخلها
 فلما خرج النساء ودخلت المرأة قام اليها ليفترعها فخرج اليه مالك بالسكين
 فوجاه فقتله ثم قال لليهود : دونكم جنوده فاقتلوهم فاجتمعت عليهم
 فقتلوهم عن آخرهم .

[ومنه أخبار وأمثال] ذكروا أن أول من قال (العجب كل
 العجب بين جمادي ورجب) عاصم بن المقشعر الضبي ، وذلك الخنيفة بن
 خشرم كان أغبر أهل زمانه وأشجعهم ، وكان لعاصم أخ يقال له عبيدة
 عزيز في قومه فهوي امرأة كانت تأتي الخنيفة فبلغ الخنيفة ذلك فتواعدته
 عبيدة وركب الخنيفة فرسه وأخذ ربحه وانطلق يتربص عبيدة حتى وقف
 على بمره فأقبل عبيدة وقد قضى من المرأة وطراً وهو يقول :

ألا ان الخنيفة فاعلموه كما سماه والده لعين
 بهيم اللون محقر ضليل لئيمات خلأته ضنين
 أبوعدني الخنيفة من بعيد وما يلقى ما أبضه الوين
 لهوت بجارتيه وحاد عني ويزعم أنه أنف شفون

فعارضه الخنيفة وهو يقول :

أيا بن المقشعر لقيت لينا له في جوف أيكته عرين
 تقول له صددت حذار حين وأنتك نشو أبطال مبین
 وأنتك قد لهوت بجارتينا فهالك عبيد لافاك القرين

سَتَعَلَّمُ أَئِنَّا أَحْمَى ذِمَاراً إِذَا قَصَّرْتَ شِهَالِكَ وَالْيَمِينُ
لَهَوْتَ بِهَا لَقَدْ أَبَدْتَ قَبْرًا وَبَاكِئَةً عَلَيْكَ لَهَا رَفِينُ

فقال عبيدة أذكرك الله وحرمة خشرم فقال والله لأقتلنك فقتله ، فلما بلغ أخاه عاصماً خرج اليه ولبس أطهاراً وركب فرسه وكان في آخر يوم من جمادى ، فأقبل يبادر دخول رجب لأنهم كانوا لا يقتلون في رجب أحداً ، فانطلق حتى وقف بباب خنيفس ليلاً وقال : أجب المرهوق قال : وما ذاك ؟ قال : العجب كل العجب بين جمادى ورجب ، واني رجل من ضبة غضب أخ لي امرأة فخرج يستنقذها فقتل وقد عجزت عن قتله ، فخرج الخنيفس مغضباً وأخذ رجه وركب معه ، فلما نحن به عن قومه دنا منه فقتعه بالسيف فأبان رأسه . ويقال ان أول من قال (سبق السيف العذل) ضحضم ابن عمرو اللخمي كان يهوى امرأة فطلبها بكل حيلة فأبت عليه وطلبها عزيز بن عبيد بن ضحضة فأتته وتأبت على ضحضم ، وكان ضحضم من أشد قومه بأساً فاغتاظ لذلك ليلة وهو متقلد سيفه حتى صار بمكان يراها اذا اجتمعا ولا يريانه ، فلما نام الناس وطال هدو ضحضم اذا العزيز قد أقبل على فرسه وهو يقول :

أمامَ تَوَلَّيْنِي وَتَأْبَى بِنَفْسِهَا عَلَى ضَحْضَمٍ تَعْسَا وَرَغْمًا لَضَحْضَمِ

وضحضم يسمع فنزل وربط فرسه ووشى الى ناحية خباياها فصاح صدوح الهام وكان آية ما بينهما ، فخرجت اليه فعانقها وضحضم ينظر ثم واقعا ، فلما رآها وشى اليها بالسيف وهو يقول :

سَتَعَلَّمُ أَنِي لَسْتُ أُعَشِّقُ مُبِغِضًا فَكَانَ بِنَاعِهَا وَعَنْكَ عَزَاءُ

وقته ، فعلم القوم بضمضم فأخذوه . فلما أصبح أبرز الى النادي

ليقتل ، فاجعلوا يلومونه على قتله ابن عمه فقال : سبق السيف العذل . ويقال ان اول من قال (خير قليل وفضحت نفسي) فائزة امرأة مرة الاسدي ، وكانت من أجل النساء في زمانها ، وكان زوجها غاب عنها أعواما فهويت عبدا له حبشيا يعمر ابلها فامرته ان يحضر مضجعا وكان زوجها منصرفا قد نزل تلك الليلة منها على مسيرة يوم ، فبينما هو يطعم ومعه أصحابه اذ نطق غراب فأخبره ان امرأته لم تعهر قط ولا تعهر الا تلك الليلة ، فركب فرسه ومر مسرعا وهو يرجو ان هو منعها تلك الليلة انها فيما بقي فاتمى اليها حين قام العبد عنها وزدمت وهي تقول : خير قليل وفضحت نفسي ، فسمعها زوجها وهو يرعد لما به من الغيظ فقالت له : ما يرعدك فقال يعلمها انه قد علم : خير قليل وفضحت نفسي ، فشقت شهقة خرت ميتة ، فقتل زوجها العبد وجعل يقول :

لَعَمْرُكَ مَا تَعْتَادُنِي مِنْكَ لَوْعَةً وَلَا أَنَا مِنْ وَجْدِ بَدِكِرَاكِ أُسْهَدُ

قيل : وكانت هند بنت عتبة تحت الفاكه بن المغيرة الخزومي ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا ذلك البيت يوما فضجع الفاكه ، وهند فيه ، فخرج الفاكه لبعض حوائجه وأقبل رجل من كان يغشى ذلك البيت فوجه ، فلما رأى المرأة ولى هاربا فرآه الفاكه وهو خارج من البيت فاقبل الى هند فضرها برجله وقال : من هذا الرجل الذي خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيت أحدا ولا انتهت حتى نيمتني فقال لها : الحقى بأهلك فتكلم الناس فيها فقال لها ابوها يا بنية ان الناس قد أكثروا فيك فاصدقيني ، فان كان الرجل في قوله صادقا سببت له من يقتله فتقطع عنك القالة ، وان كان كاذبا حاكمته الى بعض كهان اليمن فحلفت له بما يحلفون به في الجاهلية انه لكاذب فقال عتبة للفاكه : يا هذا انك قد زويت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني الى بعض كهان اليمن ، فخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف وخرج فاكه في جماعة من بني مخزوم ، وأخرجوا

معهم هنداً ونسوة معها ، فلما شارفوا البلاد قالوا : غدا نود على الكاهن فتغير لون هند فقال لها ابوها : اني ارى ما بك فهلا كان هذا قبل خروجنا قالت لا والله يا ابتاه ما ذلك لمكروه ، ولكن سنأتي بشراً بخطيء ويصيب فلا نأمن ان يسومني بما يكون فيه سبة على باقي عمري قال : اني سوف اختبره قبل ان ينظر في أمرك فأخذ حبة من حنطة فأدخلها في إحليل فرسه وأوكى عليها بسير ، فلما دخلوا على الكاهن قال له عتبه ما كان مني في طريقي قال : ثمرة في كمرة قال : أحتاج الى ابن من هذا قال : حبة بر في إحليل مهر قال : صدقت ، فما بال حال هؤلاء النسوة؟ فجعل يدنو من إحدها فيضرب بمنكبيها حتى أتى الى هند فضرب بمنكبيها وقال : انهضي غير رسحاء ولا فاحشة ولتدين ملكا يقال له معاوية ، فوثب اليها الفاكه فأخذ بيدها فتزعت يدها من يده وقالت : اليك عني ! والله لأجهدن ان يكون ذلك من غيرك : فتزوجها أبو سفيان بن حرب فجهات بمعاوية . قيل وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعس بنفسه فسمع امرأة تقول :

أَلَا سَبِيلٌ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ
إِلَى فَتَى مَاجِدِ الْأَخْلَاقِ ذِي كَرَمٍ سَهْلِ الْحَيَا كَرِيمٍ غَيْرِ مَلْجَاجٍ

فقال عمر : أما ما دام عمر إماماً فلا ، فلما أصبح قال : علي ينصر بن الحجاج فأتى به فاذا هو رجل جميل ، فقال : اخرج من المدينة ، قال : ولم وما ذنبي ؟ قال : اخرج فوالله ما تساكنتني ، فخرج حتى أتى البصرة وكتب إلى عمر رضي الله عنه :

لَعَمْرِي لَنْ سَيَّرْتَنِي وَحَرَمْتَنِي وَلَمْ آتِ إِثْمًا إِلَّا ذَا حَرَامٍ
وَمَالِي ذَنْبٌ غَيْرَ ظَنٍّ ظَنَنْتُهُ وَبَعْضُ تَصَادِيقِ الظُّنُونِ إِثَامٌ

وإِنْ غَنَّتِ الذَّلْفَاءُ يَوْمًا بِمُنِيَّةٍ فبِعَضِّ أُمَانِي النَّسَاءِ غَرَامُ
 فَظَنَّ بِي الظَّنَّ الَّذِي لَوْ أَتَيْتُهُ لَمَا كَانَ لِي فِي الصَّالِحِينَ مُقَامُ
 وَيَمْنَعُنِي مِمَّا تَمَنَّتْ حَفِيفُظِي وَأَبَاءُ صِدْقٍ سَالِفُونَ كِرَامُ
 وَيَمْنَعُنِي مِمَّا تَمَنَّتْ صَلَاتُهَا وَبَيْتٌ لَهَا فِي قَوْمِهَا وَصِيَامُ
 فِهَذَا نَحَالَانَا فَمَلَّ أَنْتَ مُرْجَمِي

فَقَدْ جُبَّ مِنِّي غَارِبٌ وَسَنَامُ

قال : فرده عمر بعد ذلك لما وصف من عفته . ويروى أيضاً أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة إذ سمع امرأة تهتف وتقول :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَأَسْوَدَ جَانِبُهُ وَأَرَّقَنِي إِذْ لَا خَلِيلَ إِلَّا عِبُهُ
 فَوَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ لَزُعِرَ عَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ
 وَلَكِنَّ رَبِّي وَالْحَيَاءُ يَكْفِي وَأَكْرِمُ بَعْلِي إِنْ تَوَطَّأَ مَرَاكِبُهُ

قال : فرجع عمر الى منزله فسأل عن المرأة فاذا زوجها غائب فسأل ابنته حفصة كم تصبر المرأة عن الرجل ؟ فسكتت واستجيت وأطرقت فقال : أربعة أشهر خمسة أشهر ستة أشهر ؟ فرفعت طرفها تعلم أنها لا تصبر أكثر من ستة أشهر ، فكتب الى صاحب الجيش أن يقفل من الغزو الرجال إذا أتت ستة أشهر إلى أهاليهم . وغزا رجل من الانصار وله جار يهودي فأتى امرأته واستلقى ذات ليلة على ظهره وأنشأ يقول :

وَأَشَعَّتْ غَرَّةُ الْإِسْلَامِ مِنِّي خَلَوْتُ بِعِرْسِهِ لَيْلَ التَّمَامِ

أَيْتُ عَلَى تَرَائِبِهَا وَيُبْضِحِي عَلَى جَرْدَاءٍ لِأَحِقَّةِ الْحِزَامِ

فسمع ذلك جار له فضربه بالسيف حتى قطعه ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : أنشد الله رجلا كان عنده من هذا علم الا قام . فقام الرجل فحدثه ، فقال : أحسنت أحسنت ، وقام الايات :

كَأَنَّ مَجَامِعَ الزَّبَلَاتِ مِنْهَا فَنَامَ قَدْ جُمِعْنَ إِلَى فَنَامِ

[ومنه اخبار العرب] قيل : لما خرج امرؤ القيس بن جحدر الى قيصر ملك الروم ليسأله النصره على بني اسد لقتلهم اباه جحدر بن الحارث راسل بنت قيصر ، وأراد أن يجتدعها عن نفسها وبلغ ذلك قيصر وأراد أن يقتله فتقدم من ذلك وأمر بقميص فعمس في السم وقال لامرئ القيس : البس هذا القميص فاني أحبيت ان اوترك به على نفسي لحسنه وبهائه فعمل السم فد جسه وكثرت فيه القروح فمات منها فسمي ذا القروح ، وقد كان قيل لقيصر قبل ذلك انه هجاه فمنداها يقول :

ظَلَمْتُ لَهُ نَفْسِي بِأَنْ جِئْتُ رَاغِبًا إِلَيْهِ وَقَدْ سِيرْتُ فِيهِ الْقَوَافِيَا
فَإِنَّ أُمَّكَ مَظْلُومًا فَقَدِمًا ظَلَمْتَهُ وَبِالصَّاعِ يُجْزَى مِثْلَ مَا قَدْ جَزَانِيَا

قيل : وكان النابغة يشبب بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر وكانت أكل أهل عصرها جمالا فبلغ ذلك النعمان فهم بقتل النابغة فهرب منه وسار حتى أتى الشام والملك بها جبلة بن الأيهم الغساني ، فنزل عليه وأقام عنده ، وكتب إلى النعمان :

حَلَفْتُ وَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

لئن كنت قد بلغت عني خيانهً لمبلغك الواشي أغش وأكذبُ

قيل . وكانت امرأة شداد أبي عنتره ذكرت له أن عنتره أرادها عن نفسها فآخذة أبوه فضربه ضرب الناف ، فقامت المرأة فألقت نفسها عليه لما رأت ما به من الجراحات وبكته وكان اسمها صميه فقال عنتره :

أمن سمية دمع العين مذرُوفُ لو كان ذا منك قبل اليوم معروفُ
 كأنها يوم صدت ما تكلمنا ظي بعسفان ساجي العين مطرُوفُ
 قامت تجلاني لما هوى قبلي كأنها صنم يعتاد معكوفُ
 المال مالكم والعبد عبدكم فهل عذابك عني اليوم مضرُوفُ

قيل . ولما أنشد عبد الحجاج عمر بن الخطاب رضي الله عنه قصيدته التي يقول فيها :

توسدني كفاً وتنضي بمصم عليّ وتحو رجلها من وراثيا
 فما زال بُردِي طيباً من ثيابها إلى الحول حتى أنهب البردُ باليا
 وهبت لنا ربحُ الشمالِ بقوة ولا بُردَ إلا درعها وردائيا
 أميلُ بها ميلَ الرديفِ وأتقي بها الریح والشفان من عن شماليا
 رأيت قتباً رثاً وأخلاقَ شملة وأسودَ مما يابسُ الناسُ عاريا
 تجمَعن شتى من ثلاثٍ وأربع وواحدةٍ حتى كملن ثنائيا
 سألني وسألني والربابُ وترُّبها وأزوي ورثاً وألمني وقطاميا
 وأقبلن من أقصى البلادِ بعدني إلا إثمنا بعضُ العوائدِ دائيا

قال عمر رضى الله عنه أنت مقتول فلما قال :

ولقد تحذّر من كريمة معشرٍ عرق على متن الفراش وطيبُ

وجوده شارباً ثلماً فعرضوا عليه نسوة حتى مرت به التي يطلبونها فأهوى إليها فقتلوه .

٤١ - مساوي شدة الغيرة والعقوبة عليها

حكى عن سليمان بن عبد الملك أنه كان في بعض أسفاره فسير معه قوم ، فلما تفرقوا عنه دعا بوضوه وجاءت به جارية ، فبينما هي تصب الماء على يده إذ استمدها وأشار إليها مرتين أو ثلاثاً فلم تصب عليه ، فأكر ذلك ورفع رأسه فإذا هي مصغية بسبعها مائة بجسدها إلى صوت غناء من ناحية العسكر ، فأمرها فتتحت فسمع الصوت فإذا رجل يعني فانصت له حتى فهم ما غنى ، فدعا بجارية غيرها فتوضأ ، ولما أصبح أذن للناس فأجرى ذكر الغناء فلم يزل يخوض فيه حتى ظن القوم أنه يشتهي ؛ فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء والتسهيل لمن سمعه وذكروا من كان يسمعه من سراوات الناس ، فقال : هل بقي احد يسمع منه ؟ فقال رجل من القوم : عندي رجلان من أهل الأبية محكمان قال : فإين منزلك من العسكر ؟ فأوماً الى ناحية الغناء فقال سليمان : ابعت اليهما فعمل فوجد الرسول أحدهما وأقبل به وكان اسمه سمير ، فسأله عن الغناء وكيف هو فيه قال : محكم قال : متى عهدك به ؟ قال : البارحة قال : وفي أي النواحي كنت ؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال : وما اسم صاحبك ؟ قال : سنان قال : فأقبل سليمان على القوم فقال : هدر الفحل فضبت الناقة ، ونب التيس وشكرت الشاة ، وهذل الخمام فزافت الجمأة ، وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصي وسأل عن الغناء أين أصله ؟ قالوا : بالمدينة وهم المختنون ، فكتب إلى

عامله أن اخص من قبلك من الخنثين . وحدث الأصمعي ان الشعر الذي
سمعه سليمان يتغنى به هو :

مَخْجُوبَةٌ سَمِعَتْ صَوْتِي فَأَرْقَاهَا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ لَمَّا بَلَّهَا السَّحَرُ
تَدْنِي عَلَى الْخَدِّ مِنْهَا مَنْ مَعْصَفَرَةٌ وَالْحَلِيُّ بَادٍ عَلَى لِبَاتِهَا خَصِرُ
فِي لَيْلَةِ الْبَدْرِ مَا يَدْرِي مُضَاجِعُهَا أَوْجُهَهَا عِنْدَهُ أَبْهَى أَمِ الْقَمَرُ
لَمْ يَمْنَعِ الصَّوْتُ أَبْوَابًا وَلَا حَرَسًا فَدَمَعُهَا لِطُرُوقِ اللَّحْنِ يَنْحَدِرُ
لَوْ تَسْتَطِيعُ مَشَتْ نَحْوِي عَلَى قَدَمٍ تَكَادُ مِنْ رِقَّةٍ لِلْمَشِيِّ تَنْفَطِرُ

ثم دخل سليمان مضرب الخدم فوجد جارية على هذه الصفة فاعده
تبكي ، فوجهه إلى سنان فاحضره ، ووجهت الجارية رسولا الى سنان
يخذره وجعلت للرسول عشرة آلاف درهم ان سبق رسول سليمان فلما
حضر انشأ يقول :

اسْتَبَقَنِي إِلَى الصَّبَاحِ أَعْتَذِرُ إِنَّ لِسَانِي بِالشَّرَابِ مُنْكَسِرُ
فَأَرْسِلِ الْمَعْرُوفَ فِي قَوْمٍ نَكْرُ

فأمر به فخصي وكان بعد ذلك يسمى الخصي . وعن علي بن يقطين
قال كنت عند موسى الهادي ذات ليلة مع جماعة من أصحابه اذا أتاه خادم
فساره بشيء فنهض سريعا فقال : لا تبرحوا ، فمضى فأبطأ ، ثم جاء
وهو يتنفس ساعة حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى بمنديل فقام
بين يده ، فأقبل يوعده وعجبنا من ذلك ثم جلس وقال للخادم ، ضع ما
معك فوضع الطبق وقال : ارفع المنديل فرفعه فاذا على الطبق رأسا جاريتين
لم ار والله أحسن من وجهيهما قط ولا من شعورهما فاذا على رأسيهما الجوهر

منظوم على الشعر واذا رائحة طيبة نفوح فأعظمتنا ذلك فقال : أتدرون ما شأنها ؟ قلنا : لا ، قال بلغني أنها تحابا فوكلت هذا الخادم بها لينهي الي أخبارها فجاءني وأخبرني أنها قد اجتمعتا فجمت فوجدتهما كذلك في لحاف فقتلتها ثم قال يا غلام : ارفع ورجع في حديثه كأنه لم يصنع شيئاً وحدثنا ابراهيم بن اسمعيل عن ابن القداح قال : كانت للربيع جارية يقال امة العزيز فأهداها المهدي فلما رأى حسنها وجمالها وهياؤها قال : هذه لموسى أصلح فوهبها له ، فكانت أحب الخلق اليه ، وولدت له بنيه الاكبر ثم ان بعض اعداء الربيع قال لموسى انه سمع الربيع يقول : ما وضعت بيني وبين الارض مثل أمة العزيز ، فقار موسى فدعا الربيع فتغدى معه وناوله كأساً فيه شراب ، فقال الربيع : فعلت أن نفسي فيها وإني أن رددتها من يدي ضرب عنقي ، فشربتها وانصرفت ، فجمع ولده وقال : اني ميت ، فقال الفضل ابنه : ولم تقول ذلك جعلت فداك قال : إن موسى سقاني شربة فانا أجد عملها في بدني ثم أوصى بماله ومات في يومه . قيل : وطرب الرشيد الى الغناء متنكراً ومعه خادمه مسرور حتى انتهى الى باب اسحق ابن ابراهيم الموصلي ، فقال يا مسرور : اقرع الباب ، فخرج اسحق ، فلما رأى الرشيد انكب على رجليه فقبلها ، ثم قال : إن رأى امير المؤمنين ان يدخل منزل عبده ، فنزل الرشيد . فدخل فرأى اثر الدعوة فقال : يا اسحق اني ارى موضع الشرب من كان عندك ؟ ما كان عندي يا امير المؤمنين سوى جاريتي كنت أطارحها ، قال : فيها حاضرتان ؟ قال : نعم قال : فاحضرها ، فدعا الجاريتين فخرحنا مع احداهما عود حتى جلسنا فأمر الرشيد صاحبة العود ان تغني فقنت :

بُنِيَ الْحُبُّ عَلَى الْجُودِ فَلَوْ أَنصَفَ الْمَعشُوقُ فِيهِ لَسَمِعَ جُ

لِيس يُسْتَحْسَنُ فِي وَصْفِ الْهَوَى

عاشقٌ يُكثِرُ تَأْلِيفَ الْحَجَجِ

فقليلُ الحبِّ صرفاً خالصاً هو خيرٌ من كثيرٍ قد مُزج

قال الرشيد : يا اسحق لمن الشعر والغناء فيه ؟ قال : لا علم لي به
يا أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ينكت في الأرض ثم رفع رأسه ، وأخذ
العود من حبر هذه فوضعه في حبر الأخرى ثم قال لها ، غني ، فغنت .

إِنْ يُمَسِّحَ حَبْلُكَ بَعْدَ طَوْلِ تَوَاصُلٍ خَلَقًا وَأَصْبَحَ بَيْتُكُمْ مَهْجُورًا
فَلَقَدْ أَرَانِي وَالْجَدِيدُ إِلَيَّ بِلَى زَمَنًا بَوَّصَلَكَ رَاضِيًا مَسْرُورًا
كُنْتَ الْهَوَى وَأَعَزُّ مَنْ وَطِيءَ الْحَصَى

عندي و كنتُ بذاك منك جديراً

فقال يا اسحق لمن الشعر والغناء فيه ؟ قال : لا علم لي يا سيدي ،
فرد المسألة على الجارية ، فقالت : استي ، قال : ومن ستك ؟ قالت :
عليه أخت أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ، ثم وثب وقال لمسرور
خادمه : امض بنا الى منزل علي ، فلما وقف بالباب ، قال : استأذن
يا مسرور فخرجت جارية ، فلما رأت الخليفة رجعت تبادر تعلم منها ،
فخرجت تستقبله وتقديه ، فقال : يا علي هل عندك ما نأكل ؟ قالت :
نعم يا سيدي ، قال : وما نشرب ؟ قالت : نعم ، فدخل وجلس ،
فقدمت اليه الطعام فأكل حاراً ، وبارداً ، ورطباً ، ويابساً . ثم رفع
الطعام ووضع الشراب والطيب وأنواع الرياحين ودعت جوارها وكان عندها
ثلاثون جارية يغبين ، فألبستهن انواع الثياب وصقتهن في الايوان وتناول
الرشيد الشراب ، فأمر الجوازي يغبين ، ثم سقى اخته حتى أخذ الشراب
منها واحمرت وجنتاها ، وفترت اجفانها وكانت من أجل النساء . فضرب
الرشيد الى حبر بعض الجوازي في اخذ العود وقال : يا علي مجياني غني :

نُبِيَّ الْحُبِّ عَلَى الْجَوْرِ فَلَوْ

فعلت انها داهية ، فبكت ، فصاح الرشيد ، فخرج الجواري وبقي هو وهي ، فدفعها وأخذ وسادة فجعلها على وجهها وجلس عليها فاضطربت اضطراباً شديداً ، ثم بردت فبحى الوسادة عنها وقد قضت نجبتها ، فخرج وقال للخادم : اذا كان غداً فادخل وعزني ، وركب متوجها الى قصره ، فلما كان الغد عزاه سرور فبكى ، فقال :

قَبْرٌ عَزِيزٌ عَلَيْنَا لَوْ أُنْزِلَ مِنْ فِيهِ يُفْدَى
أَسْكَنْتُ قُرَّةَ عَيْنِي وَمُهْجَةَ النَّفْسِ لِحَدَا
مَا إِنْ أَرَى لِي عَلَيْهَا مِنْ التَّوَجُّعِ بُدَا

ومنه ما حكى عن البهائم قال شيخ من بني قشير : كنا في نتاج فامتنع فرس من حجرة فشدته عينه فنزا عليها ، فلما فرغ فتحنا العصاة فرأى الحجره وكانت أمه فعمد الى ذكره بأسنانه فقطعه . ومنه في حفة الغيرة قال سليمان بن داود الهاشمي لابنه : لا تكثر الغيرة على اهلك فترمى بالشر من أجلك وان كانت بريئة ، ولا تكثر الضحك فيستخفك مؤاد الرجل الحليم ، وعليك بخشية الله فانها غلبت كل شيء . وقال عبدالله بن جعفر لابنته : اياك والغيرة فانها مفتاح الطلاق ، وإياك وكثرة العتب فانه يورث البغضاء ، وعليك بالكحل فانه أزين الزينة ، واطيب الطيب الماء . قيل : وكان كسرى ابرويز يتعشق امرأة رجل كان من مرازبهته يقال له البارجان ، وكانت تأتيه سرا فبلغ روجها ذلك فأمسك عن امرائه واجتنبها ودخل الى كسرى ذات يوم ، فقال كسرى : بلغني ان لك عين ماء عذبة ، وانك قد اجتنبتها فلا تقر بها ، ففطن ، فقال له : ايها الملك بلغني ان الأسد ينتاب تلك العين ، فاجتنبها خوفاً منه ، فأعجب كسرى بمقالته وامرات يتخذ له نتاج لا قيمة له ثم

دخل كسرى دار نسائه فقامهن نصف حلين فاجتمع من الجوهر ما لا يحصى فبعث به الى امرأة البارجان بالقادسية ، ووقع ذلك الجوهر الى السائب بن الاقرع وكان على المقسم فبائه وجعل المسلمين بكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال بعضهم : كنت أغار على امرأتي فاشرفت علي يوماً وأنا مع جاريتي لي ، فلقيت منها اذى حتى حلفت ان أبيع الجارية ، فخرجت أريد شراء حوائج لي وبعي الجارية ، أتيت دكان خلال شري الخلل فوجدته خالياً فقلت له : يا هذا تأذن لي في ملامسة جاريتي هذه في دكانك فاني أريد بيعها ، قال نعم : جعلت فداك ادخل حيث شئت فأصبت من الجارية ، فلما خرجت اذا الخلال قد كمن ناحية وهو في قميص قد أنعظ فقال : فرغت قلت : نعم ، قال : بسم الله أتأذن لي جعلت فداك ، قلت ويملك ما تريد ! قال : أفضي وطري منها ، قلت : يا بن الفاعلة حرمتي ، قال : لا يضرك شيئاً فاني اسرع . ثم وثب كأنه السبع ، فضاربتة حتى تخلصت الجارية بعد كل جهد . قال ودخل رجل من بني زهرة من أهل المدينة على قينة فسمع غناها عند مولاها ، فخرج مولاها في حاجة ثم رجع ، فاذا جاريتة على بطن الزهري فقامت مذعورة فتعدت تبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : لأنك لا تقبل لاجله عذراً ، قال : يا زانية لو رأيتك على ففأك قلت : صريع مغلوب ، ولو رأيتك على وجهك لقلت : وعاء مكبوب انما رأيتك فارساً مصلوباً . وحكي عن ثامة انه قال المهدي : ان النساء شقفن شقاً ، وان هشيمة نقتب نقباً ، وكانت هشيمة امرأة ثامة فسأله المهدي ان ينزل عنها ففعل ، وأقام المهدي حتى انقضت عدتها ثم تزوجها وبني بها ثم طلقها وخرج الى بيت المقدس فلما انقضت عدتها راجعها زوجها وقال ابو طاهر أنشدني بعض الشعراء يهجو بني القعقاع :

بني القعقاعِ أكرمكم لئيم^ه وأعظمُ مجدكم ركب حليق^ه
وأنتم في نسايتكم اتساع^ه وفي أخلاقكم نكد وضيق^ه

وعن عبد الله بن ياسين قال : كان في المهدي غزل وشدة حب للخلافة بالنساء فبلغه عن ابنة لابي عبيد الله كاتبه جمال فقال للخيزران : استزيرها ، فزارتها ، وجاءت اليها فقالت لها : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلت الحمام وافاها المهدي فبرزت له ولم تستتر عنه ، فقال لها المهدي : انا وليك فزوجيني نفسك ، فقالت : انا أمك ، فتزوجها ونال منها ، فلما انصرفت أخبرت إخوتها بما كان فقالوا : امسكي عنه ، فلما كان بعد مدة قالوا لها : استزيري الخيزران ، فاستزارتها ، فلما صارت اليها قالت : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلنا معاً ما شعرت الخيزران الا ببني أبي عبيد الله قد عمدوا عليها فاستتوت عنهم ، فقالوا لو أردنا ان نفعل كما فعلتم بجرمتنا لفعلنا ولكننا لا نسنجل ، فقالت لهم : والله لو رمت ذلك لأمرت الخدم بقتلكم ، فانصرفوا ، فلما رجعت الخيزران أخبرت المهدي بذلك فكان السبب في قتل المهدي محمد بن أبي عبيد الله على الزندقة ، وبلغه ايضاً عن عونة بنت أبي عون جمال وهيئة ، فقال للخيزران : استزيرها فاستزارتها فقالت لها الخيزران : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلنا ما شعرت الا بالمهدي قد وافاها فاستتوت بالخيزران وقالت : والله اثن دنوت في لأضربن بالكربوب وجهك ، فقال : ويلك إنما أردت ان أتزوجك ، قالت : لا سبيل الى ذلك ، فانصرف عنها ، فاخبرت أباه فقال أحسنت في فعلك .

٤٢ - محاسن القيادة

الحسن الجرجاني قال : حدثني مهم بن عبد الحميد الحنفي قال . خرجت من الكوفة أريد بغداد ، فلما نزلت بسط غلماننا وهيئوا غدائنا ، فاذا نحن برجل حسن الوجه والهيئة على برذون فاره فصحت بالغلمان فأخذوا دابة ، فدعوت بالغداه فبسط يده غير محتشم وما أكرمه بشيء الا قبله ، وكنا

كذلك إذ جاء غلمانه بتمل كثير وهيئة جميلة فتناسبنا فاذا هو طريح بن
اسماعيل الثقفي ، فارتحلنا في قافلة منا لا يدرك طرفاها ، فقال طريح :
ما حاجتنا الى هذا الزحام وليست بنا اليهم وحشة ولا علينا خوف ، فاذا
خلونا بالخانات والطرق كان أرواح لأبداننا ، قلت : ذلك اليك ، فنزلنا
من الغد الحان وتعدينا والى جانبنا نهر ظليل بالشجر ، فقال : هل لك ان
تستمتع فيه ؟ فمررنا ، اليه فلما نزع ثيابه اذا بين جنبه آثار ضرب كثير
فوقع في نفسي منه شر فنظر الي ففطن وتبسم ، وقال : قد رأينا ذعرك
بما ترى وحديث ذلك يجري اذا مرنا بالعشية ، فلما مرنا قلت له : الحديث
قال : نعم قدمت من عند الوليد بن يزيد بالغناء واليسار ، وكتب الي
يوسف بن عمر ، فلما أتته ملاً يدي خيراً ، فخرجت مبادراً الى الطائف ،
فلما امتد بي الطريق وليس يصحبي فيه أحد عن لي اعرابي على قعود له ،
فحدث أحسن الحديث ، وروى الشعر ، فاذا هو راوية فأنشد فاذا هو
شاعر ، فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : لا أدري ، قلت : وما القصة ؟
قال : أنا عاشق لامرأة قد أفسدت علي عيشي وقد حذرني أهلها وجفاني
لها أهلي وانما أستريح بأن أنحدر الى الطريق مع منحدر وأصعد مع
مصعد ، قلت : فأين هي ؟ قال : تنزل غداً بازائها ، فلما نزلنا أراني
طريقاً عن يسار الطريق ، فقال : ترى ذلك الطريق ؟ فقلت : أراه ،
قال فتوى الخيم التي هناك ؟ قلت : نعم ! قال : فانها في الخيمة الحمراء ،
فأدركتني أريجية الحدث ، فقلت : والله إني آتيا برسالتك فمضيت حتى
انتهيت الى الخيم فاذا امرأة ظريفة جميلة كأنها مهرة عربية فذكرته لها
فزفرت زفرة كادت تنتفض أضلاعها قالت : أوحى هو ! قلت : نعم
تركته في رحلي وراء هذا الطريق ! قالت بأبي أنت وامي ارى لك
وجهاً حسناً يدل على الخير فهل لك في امر ؟ قلت : فقير اليه ! قالت :
لبس ثيابي فأقم مكاني ودعني حتى آتية وذلك عند مغربان الشمس فانك
اذا أظلم الليل أتاك زوجي ، فقال لك يا فاجرة وباهنة ابنة الهنة فيوسعك

شما فأوسعه صمتاً ، ثم يقول في آخر كلامه اقمعي سقاءك يا عدوة الله
فضع القمع في هذا السقاء وإياك وهذا السقاء الآخر فانه واه ! قلت : نعم
فأجبتني الى ما سألت فجاء الزوج على ما وصفت وقال : اقمعي سقاءك
فحيرني الله ان تركت الصحيح وقمعت الواهي ، فما شعر الا بالبن يتسبب
بين رجله فعدا الي كسر الحيمة وحل متاعه وتناول رشاء من قد مدبوغ
ثم ثناه باننتين فجعل لا يتقي رأساً ولا وجهاً ولا رجلاً حتى خشيت أن
يبدو له وجهي فتكون الأخرى فألزمت وجهي الارض فعمل بظهوري ما
توى ، فلما تغيب عني جاءت المرأة باكية فرأت ما بي من الشر واعتذرت
وأخذت ثيابي وانصرفت ، قال وحدث بهذا الحديث محمد بن صالح بن
عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بسر من رأى
سنة أربعين ومائتين وكان حمل من البادية الى المتوكل فأطلقه وكان اعرابياً
فصيحاً فمجب منه وكان حسن الوجه نجيباً فلما ما رأيت في الفتيان مثله ، قال :
كان منافقاً يقال له الأستر بن عبد الله وكان سيد بني هلال وأحسنهم وجهاً
وأسخام كفاً وكان معجباً بجارية يقال لها جيداء بارعة الجمال ، فلما اشهر أمرها
وظهر خبرها وقع الشر بين أهل بينيها حتى قتل بينها القتلى فافترقوا فريقتين
فلما طال على الأستر البلاء جاءني يوماً وقال : يا غير هل فيك خير ؟ قلت :
عندي ما أحببت ، قال : نساعدني على زيارة جيداء ، قلت : بالحب
والكرامة فانقض اذا شئت ، قال : فركبنا وصرنا يوماً وليلة والغداة حتى المساء
فنظرنا الى أدني سرب لهم فأمنحنا رواحلنا في شعب وقعدنا هناك وقال يا غير :
اذهب وأنشد واذكر ان يلقاك انك طالب ضالة ولا تعرض بذكرى
بشفة ولا لسان الى ان تلقى جاريتها فلانة راعية الضأن فتقرئني مني السلام
وتسألها عن الخبر وتعلمها بكائي ، قال : فخرجت لا أتعدى ما أمرني به
حتى لقيت الجارية فأبلغتها الرسالة وأعلمتها بمكانه وسألها عن الخبر فقالت :
هي مشدد عليها محتفظ بها وعلى ذلك فوعدكم عند الشجرات اللواتي عند
أعقاب البيوت مع صلاة العشاء فانصرفت فأخبرته ثم قدنا رواحلنا حتى

أتينا الموعد في الوقت الذي وعدتنا فيه فلم نلبث الا قليلا حتى اذا جيداء
تمشي فدننت منا فوثب اليها الأستر فتصافحا وسلم عليها ووثبت موابيا عنها
فقالا : أقسمنا عليك الا رجعت ، فوالله ما بيننا من ريبة ولا قبيح نخلو
به دونك فانصرفت اليها وجلست معها ، فقال الاشر : ما فيك حيلة
يا جيداء فنتزود منك الليلة ؟ قالت : لا والله ما الى ذلك سبيل الا ان
أرجع الى الذي تعلم من البلاء والشر ! فقال : لا بد من ذلك ولو
وقعت السماء على الارض ، قالت : فهل بصاحبك خير ؟ قلت : بلى ،
وهل الخير الا عندي ؟ فأسألي ما بدالك فاني منته اليه ولو كان في ذلك
كله ذهاب نفسي فألبستني ثيابها وأخذت ثيابي ثم قالت : اذهب الى
خبائي فادخل في ستري فان زوجي يأتيك مع العتمة فيطلب منك القدح
ليحلب فيه فلا تعطه من يدك فكذلك كنت أفعل فيحلب ثم يأتيك بالقدح
ملآنا لبنا فيقول : هاك فلا تأخذه منه حتى يطيل عليك نكدك ثم خذه
أو ذره حتى يضعه ثم يستبد بردانه ولست تراه حتى يصبح فذهبت ففعلت
ما أمرتني به حتى جاء بالقدح فيه اللبن فأطلت نكدي عليه ثم أهويت
لأخذه فاخلفت بدي ويده وانكفأ القدح فاندفق منه اللبن فقال : ان هذا
الطماح مفرط وضرب يده الى جانب الحياء فاستخرج سوطا فضرني مقدار
ثلاثين سوطا حتى جاءت أمه وأخواته فانتزعوني منه ولا والله ما فعلوا
ذلك حتى زالمتني روحي وهممت أن أوجره بالسكين فلما خرجوا عني وهو
معهم فعدت كما كتب الله فما لبثت ان جاءت أم جيداء ، فحدثتني وهي
تحسبني ابنتها فألتمتها بالسكوت وتغطيت بثوبي دونها فقالت : يا بنية اتقي
الله ولا تتعرضي للمكروه من زوجك فذلك أولى بك ، ثم خرجت من
عندي فقالت : سأرسل اليك أختك تونسك وتبيت الليلة عندك فلم ألبث
أن جاءت الجارية تبكي وتدعو على من ضربني وانا لا أكلها ثم اضطجعت
الى جانبي فلما استمكنت منها شددت يدي على فخها وقلت : يا هذه تلك
أختك مع الاشر وقد قطع ظهري بسببها وأنت أولى من ستر عليها

فاختاري لنفسك ولها فوالله لئن تكلمت لتكونن فضيحة شاملة ثم رفعت يدي عن فيها فاهتزت مثل القصبه من الروع وباتت معي وولت منها الشهوة النامة ورافقتني اصلح رفيق رافقته ولم أذق شيئاً أذ بما ذقت منها قط فلم نزل نتحدث وتضحك مني وبما بليت به حتى برق النور وجاءت جيداء فلما رأتنا ارتاعت وقالت : من هذا عندك ؟ قلت : أخنك ، قالت : وما السبب ؟ قلت : هي تخبرك فانها عالمة به وأخذت ثيابي وأتيت صاحبي فأخبرته بما أصابني وكشفت له عن ظهري فاذا فيه ما الله به عليم ، فقال : لقد عظمت منك عندي ووجب شكرك وخاطرت بنفسك فلا حرمني الله مكافأتك وعن رجل من بني عامر أنه خرج وهو غلام ما بقل وجهه وكان ذا جمال وهيئة صاحب غزل فهمهم على قوم يتحملون وقد شدوا أثقالهم وبرزوا واذا امرأة جميلة قد تحلفت على جل لها لاصلاح شأنها قال : فوقفت عليها ، فاذا هي أحسن خلق الله وجهاً وأغزله وأملحه فتلاقينا كلاماً غير كثير ، فقالت : أسألك شيئاً فهل لك به علم ؟ قلت : سلي : ، فقالت : أيها أحسن جردة الرجل ام المرأة ، قلت : الرجل قالت : بل المرأة فان أحببت ان تعلم ذلك علمته ، قلت . وكيف أعلمه ؟ قالت : أتجرد لك من ثيابي وأرميها عني ثم أمشي حتى أبلغ الأكمة ثم أقبل حتى آتيك فتعطيني عهد الله وميثاقه لتفعلن كما فعلت ، فقالت : لك عهد الله إن فعلت لأفعلنه ، قال فألقت ثيابها عن أحسن ما نظرت اليه قط ، بياضاً ونظافة وحسناً ، فلما انتهت الي قالت : الوفاء ، قلت : الوفاء ونعمة عيني فخلعت ثيابي وأنا كأهبي الفتيان وأهياهم حتى مضيت بعد الغاية ، فلما انتصف لي المدى سمعت خرخرة جملي فاذا هي قد جالت على ظهره لابساً ثيابي متنكبة قوسي قد لزمت الحجة ، فناديتها فلم تعرج علي ، ولبست ثيابها وتخمرت بخمارها ، وركبت بعيرها وزجرته ، فأنبتت بي أثر الحبي وأخذت شق الوحشي حتى ما اراها وجعلت أكف عن الجمل اذ خشيت ان الحق الظعن حتى روأتي من بهيد وجعلوا ينادون ويحك اقبلي ! وأنا

صامت لا أنكلم ولا أتقدم ، لما طال عليهم أمري ، بعثوا بجارية لهم مولدة فأقبلت تعدو حتى أتتني ونشطت خطام الجمل من يدي وأنا متبرقع أحسن الناس وجهاً وعيناً . فنظرت الجارية في وجهي ساءة . ثم قالت لقد أميت حديدة الطرف وقادت الجمل حتى أنت الحي ، فقالت أم الجارية : يا بنية لقد استحييت من الناس بما دعوتك العشية ثم تأملت ونظرت وسائر النساء . وقالت إحداهن : والله انه لرجل فطن وأنزلتني العجوز وأدخلتني السرير ؛ وقالت : من أنت لا افلحت ؟ قلت : بل ابنتك لا افلحت ولا انجحت ، وقصصت عليها قصتها ، فقالت : نشدتك الله الا اعرتني نفسك هزيماً من الليل فانا كنا على ان نبي بابنتي صاحبة الجمل الليلة وما في الحي رجل غير زوجها ، وهو انسان فيه لوثة ولا بد من ان أدخلك عليه فانك غلام امرد فلا ينكرك ولا اراه أقوى منك ان اعتركتما فلك عندي يد بيضاء واقبلت وأخت لابنتها وخالتها فألبسني ثوب العررس وطيسني : ثم دفنني نحو الرجل بعيد العتمة وقالت أمها : أنا لك الفداء تجلد ساعة بالامتناع فانه منصرف عنك . وستأتيك الكافرة فأدخلتني على مثل الأسد الا ان به لوثة كما قالت فاعتركتنا حتى أعيا وكف عني وطال لي الليل حتى سمعت خرخرة جملي ، فلم ألبث الا هنيهة حتى جاءت أمها وخالتها وهي معها فجعلتها مكاني وفتشت عن سرها فاذا هي قد ظلت مع انسان كانت تهواه . وأتيت ثيابي فنهضت مبادرا لا ألوي على شيء حذراً بما لقيت . قال وملك النعمان بن المنذر أربعين سنة فلم تو منه سقطة غير هذه : وهو أنه ركب يوماً فبصر بجارية قد خرجت من الكنيسة فأعجبته لجمالها فدعا بعدي بن زيد وكان نديمه ووزيره ، فقال له : يا عدي لقد رأيت جارية لئن لم اظفر بها انه الموت ، ولا بد من أن أتلف أو تتلف لي حتى تجمع بيني وبينها ، قال : ومن هي ؟ قال : سألت عنها فقيل : هي امرأة حكيم بن عمرو رجل من أشرف الحيوة ، قال : فهل أعلمت أحداً قال : لا قال : فاكتمه فاذا أصبحت فجدد الحكم كرامة وبراً . فلما أذن

للناس بدأ به وأجلسه معه على سريره وكساه ، فاستعظم الناس ذلك ، فلما أصبح بدأ أيضاً بالأذن له وجهه فأذكر الناس ذلك . فقالوا : ما هذا إلا لأمر فصنع به ذلك أياماً . ثم قال له عدي : أيها الملك عندك عشر نسوة فطلق إحداهن ثم قل له فليتزوجها ففعل فلما دخل عليه قال : يا حكم ما كانت نفسي تسمح بهذا الولد فتزوج فلانة فقد طلقها فخرج حكم الى عدي فقال : يا ابا عويمر ، اصنع الملك بأحد ما صنع لي وما أدري بما أكاويه . قال له عدي : طلق امرأتك كما طلق لك امرأته ففعل وحظي بها عدي عنده وعلم حكم أنه قد مكر به في امرأته . وفيه يقول الشاعر :

ما في البرية من أنثى تعاد لها إلا الذي أخذ النعمان من حكم .

وحدث الفضل بن العباس عن الزبير بن بكار عن محمد بن بشير الخارجي قال : قدم علينا رجلان من اهل المدينة يصيدان ومعهم نسوة والفساطيط مضروبة . وكان سليمان بن عبدالله الاسلمي وابن أخ له مقبين بناحية الروحاء . فأرسل النسوة الى سليمان وابن أخيه أما لكما حاجة في الحديث؟ فرد الرسول ان يكن لنا فيه حاجة فكيف لنا بذلك مع ارواجكن؟ فقلن انما خرج أزواجنا لصيد وقد المفا ان لكم صاحباً يعرف من طلب الصيد ما لا يعرفه غيره فلو طرح لهم شيئاً من ذكره لاسرعوا إليه وتحلفتم وتحدثتم ما سئتم يعنيين به محمد بن بشير ، فبضى اليه سليمان وابن أخيه فقال يا أبا محمد : أرسل الينا النسوة بكدا وكذا وسألوني أت أخرجك الى الصيد ، فقلت : لا والله لا أفعل ولا أتعب ولا أنصب وأنتم تتلهون وتحدثون انما لذا أشد حبا وأكثر صباية وشوقاً فارسلنا الى النسوة بقالتي ، فارسلن إلي رسول وعاهدني لئن أخرجتهم ليحتلن لي حتى أخلو معهن ليلة حتى أصبح فصرت اليهم وذكرت لهم الصيد فخرجوا معي فلما زلت أهدتهم بالصدق حتى أخذت في الكذب بما يضارع الصدق حتى أفنته فأقت معهم ثلاثة أيام

وليالها ، ثم انصرفوا من أن غير أن اصطدنا شيئاً ، فقلت في ذلك .

إِنِّي انْطَلَقْتُ مَعِي قَوْمٌ ذَوُو حَسَبٍ مَا فِي خَلَائِقِهِمْ زَهُوٌّ وَلَا حَمَقٌ
 إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْهُمْ كَيْفَ أَخَذَعَهُمْ أَمْ كَيْفَ آفَكَ قَوْمًا مَا بِهِمْ رَهَقٌ
 أَظَلُّ فِي الْأَرْضِ الْهَيْبِمْ وَأَخْبِرُهُمْ أَخْبَارَ قَوْمٍ وَمَا كَانُوا وَلَا يُخَلِّقُوا
 وَلَوْ صَدَقْتُ لَقُلْتُ الْقَوْمُ قَدْ دَخَلُوا حِينَ انْطَلَقْنَا وَإِنِّي سَاعَةَ انْطَلَقُوا
 فَلَوْ أَجَاهِدُ مَا جَاهَدْتُ دُونَكُمْ

فِي الْمُشْرِكِينَ لِأَدْرَكَتُ الْأُولَى سَبَقُوا
 إِنْ كُنْتُ أَبْدَأُ جَارِي مِنْ حَلَائِلِكُمْ وَالْدَّهْرُ ذُو عَنَفٍ أَيَّامُهُ طُرُقُ
 فَإِنَّ كُلَّ جَدِيدٍ عَائِدٌ خَلْقًا فَلَنْ يَعُودَ جَدِيدًا ذَلِكَ الْخَلْقُ

قال فظفر أصحابي بالحديث والمغازلة وأنا بالجهد والخيبة مع أتم القيادة والتعب وكذب المحادثة . وحدثنا وهب بن سليمان عن عمه الحسن بن وهب قال : خرج محمد بن عبد الملك الزيات من عند الواثق ومزيد بن محمد بن أبي الفرج الهاروني وكيل عبدالله بن طاهر فاذا بجارية حسناء في منظره لها فلما بصرت به ورأت موكبه وكان جميلا ظريفا أومأت إليه السلام وأومأت بيدها الى صدرها فأعجب بها فلما صار الى منزله دخلت إليه فرأيتة بخلاف ما عهدت وكان لا يكتسني شيئاً فقلت : مالي أراك مدلها يا أبا الحسن : قال : رأيت شيئاً أنافيه مفكر ثم أنشأ يقول :

وَأَبَائِي مُخَضَّبٌ أَوْمَى إِلَيْنَا بِيَدِهِ
 أَوْمَى بِهَا يُجَبِّرُنِي رَاحَتُهُ فِي كَبِدِهِ

أَنَّ الضَّئِيَّ فِي جَسَدِي يُخْبِرُنِي عَنْ جَسَدِهِ
فَلَيْسَ لِلْحَاسِدِ إِلَّا خَصْلَةٌ مِنْ حَسَدِهِ

ثم شرح لي القصة ، ثم انصرفت من عنده ووافيت مولى الجارية فسألته أن يبيعه فقال اشتريتها للامير عبد الله بن طاهر وليس الى بيعها من سبيل فلم أزل به حتى اشتريتها بخمسين ألف درهم ووجهت بها اليه وكتبت اليه :

هَذَا مُحِبُّكَ مَطْوِيٌّ عَلَى كَعْبِهِ عَبْرَتِي مَدَامَعُهُ تَجْرِي عَلَى جَسَدِهِ
لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمَنَ رَاحَتَهَا مِمَّا بِهِ وَيَدُهُ أُخْرَى عَلَى كَعْبِهِ

فقبلها وحسن موقعها عنده فولاني خراج ديار ربيعة فأصبت فيها ألف ألف درهم قال السجستاني : أرق الرشيد ذات ليلة فوجهه الى عبد الملك الاصمعي والى الحسين الخليع فاحضرهما وشككا اليهما مدافعة نومه وشدة أرقه وقال لهما : عللاني بأحاديثكما وابدأ أنت يا حسين ، قال : نعم يا أمير المؤمنين خرجت في بعض السنين منحدراً الى البصرة وبتدحاً لآل سليمان فقصدت محمد بن سليمان بقصيديتي فقبلها وأمرني بالمقام ، فخرجت ذات يوم الى المربد وجعلت المهالبة طريقي فأصابني حر وعطش فدنوت من باب دار كبير لاستسقي فاذا أنا بجارية أحسن ما يكون كأنها قضيب ينثني وسماء العينين زجاء الحاجبين مهفهفة الخصر حاسرة الرأس مفتوحة الجريان عليها قميص لاذجلناري ورداء عدلي قد علت شدة بياض بدنها حمرة قميصها تتلألأ من تحت القميص بشديين كرمانيين وبطن كطي القباطي وعكبن مثل القراطيس لها حمة جمدة بالمسك محشوة ، وهي يا أمير المؤمنين متقلدة خرزاً من ذهب والجوهر يزهر بين ترائبها وعلى صحن جبينها طرة كالسبع وحاجبان مقرونان وعينان كحلوان وخدان أسيلان وأنف أفنى تحتة نغرة

كاللؤلؤ وأسنان كالدرد وقد غلب جربانها سواد المسك والغالية ودابر العود
الهندي على لبتها عبق الخلق وهي والهة حيرى وافقة في الدهليز وجائية
تخطر في مشيتها قد خالط صرير نعلها أصوات حلخالها كأنها تخطر على اكباد
حبيها فهي كما قال الأفوه الأودي :

ليسَ منها ما يُقالُ لها كَمَلتْ لو أنْ ذَا كَمَلَا
كلُّ جزءٍ منْ محاسِنِها كائنٌ منْ حُسنِها مَثَلَا
لو تَمَنَّتْ في برّاعتِها لمْ تَجِدْ في حُسنِها بَدَلَا

فهبتهما والله يا أمير المؤمنين ثم دنوت منها لاسلم عليها فاذا الدار ،
والدهليز ، والشارع قد عبت بالمسك فسلمت عليها فردت السلام بلسان
منكسر ، وقلب حزين محرق فقلت لها : يا سيدي اني شيخ غريب أصابني
عطش فأمرني لي بشربة من ماء تؤجري ، قالت : اليك عني يا شيخ فاني
مشغولة عن سقي الماء وادخار الاجر ! فقلت لها : يا سيدي لأية علة :
قالت لأنني عاشقة من لا ينصفي وأريد من لا يريدني ومع ذلك فاني بمتحنة
برقباء فوق رقباء قلت لها : يا سيدي هل على بسيط الارض من تريدينه
ولا يريدك قالت : انه لعمرى على ذلك الفضل الذي ركب الله فيه من
الجمال والدلال ، قلت لها : يا سيدي فما وقوفك في الدهليز ، قالت : هو
طريقه وهذا أوان اجتيازته . قلت لها : يا سيدي هل اجتمعتما في خلوة في
وقت من الاوقات أم حب مستحدث ؟ فتنفست الصعداء وأرخت دموعها
على خديها كطل على ورد ، وأنشأت تقول :

وكنا كغصني بانه وسط روضة نشمُّ جنالذاتٍ في عيشة رغدٍ
فأفردَ هذا النعمن من ذاك قاطع فيا من رأى فرداً يحين إلى فردٍ

قلت لها : يا هذه ما بلغ من عشقتك هذا الفتى ، قالت : أرى الشمس على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم وربما أراه بغتة فابهت وتهرّب الروح عن جسدي وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل ، قلت لها : عزيز علي وأنت على ما بك من الضنا وشغل القلب بالهوى وانحلال الجسم وضعف القوى ما أرى من صفاء اللون ورقّة البشر فكيف لو لم يكن بك من الهوى شيء أراك كنت مقتنة في أرض البصرة ، قالت : كنت والله يا شيخ قبل محبتي لهذا الغلام تحفة الدلال والجمال والكمال ولقد فتنت جميع ملوك البصرة وفتنتني هذا الغلام ، فقلت : يا هذه ما الذي فرق بينكما ؟ قالت : نواب الدهر ، وأوابد الحدثن ولحديشي وحديثه شأن من الشأن وأنيك أمري ! اني كنت افصدت في بعض أيام النيروز فأمرت فزين لي وله مجلس بأنواع الفرش وأواني الذهب ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار ، وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة فيهن من الجوارى جارية شهران وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم ، وكانت الجارية ولعت بي وكانت أول من أجابت الدعوة وجاءتني منهن ، فلما حصلت عندي رمت بنفسها علي تقطعتني عضا وقرصا ، ثم خلونا نتمرز القهوة الى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا فتارة هي فوقتي ، وتارة أنا فوقها ، فحملها السكر على ان ضربت يدها على تكتي فحلتها ونزعت هي سراويلها وصارت بين فخذي كصير الرجال من النساء ، فيينا نحن كذلك إذ دخل علي حبيبي وقد التزق قرطبي بجلجالي فلما نظر الينا اشمأز لذلك وصدف عي وعنها صدوف المهرة العربية اذا سمعت صلاصل اللجم وعض على أنامله وولى خارجا ، فانا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسل سخيمته واستعطفه فلا ينظر إلي بعين ولا يكتب إلي بحرف ولا يكلم لي رسولا ، قلت لها : يا هذه أفمن العرب هو أم من العجم ؟ قالت : هو من جلة ملوك البصرة ، قلت من أولاد نياها أو من أولاد تجارها ، قالت : من عظيم ملوكها ، قلت لها : أشيخ هو أم شاب ؟

فنظرت الي شزرا وقالت : انك لأحق أقول : هو مثل القمر ليله البدر
أمرد أجرد وطرة رقماء كخحك الغراب تعلوه شقرة في بياض عطر لباس
ضارب بالسيف طاعن بالرمح لاعب بالنرد والشطرنج ضارب بالعود والطنبور
يفني وينقر على أعدل وزن لا يعيبه شيء إلا انخرافه عني لا نقصا لي منه
بل حقدأ لما رأي عليه قلت : يا هذه وكيف صبرك عنه ؟ فأنشأت
تقول :

وَجُفُونُ عَيْنِي سَاجِفَاتٌ تَدْمَعُ	أَمَّا النَّهَارَ فَمُسْتَهَامٌ وَاللَّيْلَ
حَتَّى الصَّبَاحِ وَمُقَاتِي لَا تَجْعُ	وَاللَّيْلَ قَدَارَعِي النُّجُومَ مُفَكِّرًا
فِي لَحْظِ عَيْنِيهِ سِهَامٌ تَصْرَعُ	كَيْفَ اصْطَبَارِي عَنِ غَزَالِ شَادِنِ
وَكَأَنَّ جَبْهَتَهُ سِرَاجٌ يَلْمَعُ	وَجْهٌ يُضِيءُ وَحَاجِبَانِ تَقْوَسَا
فِي وَجْنَتَيْهِ كَأَنَّه مُسْتَجْمَعُ	وَبِيَاضُ وَجْهِ قَدَأَشِيْبَ بَحْمَرَةٍ
وَالغُصْنُ فِي قَنَوَائِهِ بِتَرَعْرَعُ	وَالْقَدُّ مِنْهُ كَالْقَضِيبِ إِذَا زَهَى
كَمَثَالِ بَدْرِ بَعْدَ عَشْرِ أَرْبَعُ	تَمَّتْ خَلَائِقُهُ وَأُكْمِلَ حُسْنُهُ

قلت لها : يا سيدي ما اسمه وأين يكون ؟ قالت : تصنع به ماذا ؟
قلت : أجهـد في لقائه وأتعرف الفضل بينكما في الحال . قالت : على
شريطة ، قلت وما هي ؟ قالت : تلقانا إذا لقيته ، وتحمل لنا اليه رقعة
قلت : لا أكره ذلك قالت : هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة
يكنى بابي شجاع وقصره في المربد الاعلى وهو أشهر من أن يخفي ثم
صاحت في الدار يا جوارى دواة وقرطاساً ! وشمرت عن ساعدين كأنها
طومارا فضة ثم حملت القلم وكتبت : بسم الله الرحمن الرحيم سيدي توكي
الدعاء في صدر رقتي بنبيء عن تقصيري ، ودعائي ان دعوت يكون

هجنة ، فلولا أن باوغ المجهود يخرج عن حد التقصير لما كانت لما تكلفته خادمك من كتب هذه الرقعة معنى مع إياسها منك وعلها بتركك الجواب ، سيدي فجد بنظرة وقت اجتيازك في الشارع الى الدهليز تحي بها أنفسا مينة أسرى ، واخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة فاجعلها عرضا من تلك الخملوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أناذاكرتها ، سيدي ألسنت لك محبة وبك مدقة ؟ فان رجعت مولاي الى الاشبه بك وأقذنتني من عوارض التلف كنت لك خادمة ولك شاكرة ، فلما فرغت من الكتاب يا أمير المؤمنين ناولك اياي فقلت لها : ياسيدي قد وجب حقك علي ولزمتك حرمتي لطول وقوفي عليك وكنت قد سألت شربة ماء ، قالت : أستغفر الله ما فهمنا عنك ، ثم صاحت في الدار أخرجنا الينا شرابا من ماء وغير ماء ، فما كنت الا أن أقبل ثلاثون وصيفة بأيدينا الطاسات والجلمات والأقداح والأقداح مملوءة ماء ونلجا وبقاعا وشرابا فشربت الماء ثم قلت : ياسيدي مع قدرتك على هذا من استواء الحال وكثرة الخدم والعبيد والجراي فلم لا تأمرين احدي الجراي أن تقف مراعية للغلام حتى اذا مر أعلمتك فتخرجين اليه ؟ قالت : لا تغلط يا شيخ فتمثلت :

عَبَّالَةٌ عُنُقِ اللَّيْلِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ إِذَا رَامَ امْرَأًا قَامَ فِيهِ بِنَفْسِهِ

ثم انصرفت عنها يا أمير المؤمنين ، فلما أصبحت غدوت على محمد بن سليمان فوجدت مجلسه محتفلا بالملوك وأبناء الملوك ورأيت غلاماً قد زان المجلس وفاق من فيه حسناً رجلاً قد رفعه الأمير فرفقه فسألت عنه فقيل : ضمرة بن المغيرة فقلت : في نفسي بالحقيقة حل بالمسكينة ما حل هو والله قائلها فيما أرى ، ثم قمت فتصدت المربد ووقفت على باب داره فاذا هو قد ورد في مركب جليل فوثبت اليه وبألت في الدعاء والثناء ثم دنوت منه وفاوضته في الذي بيني وبينها وناولته الرقعة فلما قرأها ضحك ثم قال : يا شيخ قد استبد لنا بها فهل لك في ان تنظر الى البديل ؟ قلت : نعم ، فصاح

في الدار يا جوارى اخرجن الينا لذيذا فما كان الا أن طلعت جارية وضيئة
الكمين ناهدة الثديين تمشي مشية مستوحل ترتج من دقة خصرها على كبر
عجزها ذات فخذين وعجيزتين تحتطفان الانفس اختطافا على رأسها بطيخة من
الكافور مكتوب على جبينها .

آه من الحب آه ما أقتل الحب وأضناه

ودون ذلك مكتوب :

عِيَارَةٌ مَيَّاسَةٌ فِي الْخُطَى رَخِيمَةٌ الدَّلُّ صَيُودٌ لِلرَّجَالِ

وقد كتبت بالغالية على عصابتها ثلاثة أسطر وهي :

إِذَا غَضِبْتُ رَأَيْتَ النَّاسَ قَتَلِي وَإِنْ رَضَيْتَ فَأَرْوَّاحٌ تَعُودُ
لَهَا فِي عَيْنِهَا لِحْظَاتُ سِحْرِ تُمِيتُ بِهَا وَتُحْيِي مَنْ تُرِيدُ
وَتَسْبِي الْعَالَمِينَ بِمُقَلَّتَيْهَا فَكُلُّ الْعَالَمِينَ لَهَا عَبِيدُ

فذاولها الرقعة وقال : اقرئي وأجيبى صاحبتيك ، فلما قرأت الرقعة اصفرت
وعرفت ومزقتها وضربت بها في وجه الغلام وغابت في الستر ، فقال لي :
أما أنت يا شيخ فاستغفر الله بما مشيت فيه ، قلت : بل انت استغفر الله من
هجرانك اياها وتركك ايمانها ، والله ما ارى لها في البشر نظيراً ، قال :
لا أفعل ولو أنها في حسن يوسف وكمال حواء ، فخرجت يا أمير المؤمنين وأنا
أجر ذيلي حتى وردت عليها فاستأذنت ودخلت فبدأت بي ، فقالت : ما
وراء الشيخ ! قلت البؤس واليأس قالت : لا عليك فأنت الله والقدر ، ثم
أمرت لي بخمسمائة دينار وعشرة أثواب وخرجت من عندها وأنا بتمدح
لآل سليمان فلم يكن لي والله إلا معرفة خبرها في العام الذي عدت فيه إلى
البصرة ، فوردت عليها فوجدت على بابها أمراً ، ونهياً ، وأسباباً لا تكون

الا على باب والخلفاء ، فاستأذنت فدخلت فاذا فوق رأسها ثلاثون رجلا من
 شيوخ وشبان وخدم وقوف بسيوفهم ، فلما نظرت الي عرفتي ووثبت
 الي وقبلت رأسي وقالت : يا شيخ الحمد لله الذي جعل العبيد بالصبر ملوكا ،
 وجعل الملوك بالتيه عبيداً ، إن الذين تراهم وقوفاً أصحاب ضمرة يسلون
 سخيمتي ، ويسألونني الرجوع له ، والله لا نظرت اليه في وجهه ولو أنه في
 حسن يوسف وكمال حواء فسجدت يا أمير المؤمنين شمانه بضمرة وتقربا الي
 الجارية فقال بعض حجاب ضمرة : مهلا يا شيخ فمن طاب محضه طاب
 مولده ثم انصرفوا ، فناولتني خريطة فيها أوراق فقالت : هذا أول ما
 ورد علينا منه ، فاذا ثوب خز أبيض يقق مكتوب فيه بآء الذهب : بسم
 الله الرحمن الرحيم لولا تغاضي عليك أدام الله حياتك لوصفت شطراً من
 غدرك ولبسطت سوط عتبي عليك وحكمت سيف ظلامي فيك ، إذ كنت
 الجانية على نفسك والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء المؤثرة علينا غيرنا فخالفت
 هراي وفرشت نفسك لما على حالي جد وهزل وصحو وسكر ، والمستعان
 الله على ما كان من سوء اختيارك . وقد ضمنت رقعتي هذه أبيات شعر
 أنت المتفضلة بالنظر اليها وهي :

قَطَعَ قَلْبِي فَرَأَيْتُكُمْ قِطْعًا وَكِدْتُ أَقْضِي لِبَيْتِكُمْ جَزَعًا
 مَا تُكْجَلُ الْعَيْنُ بِالرُّقَادِ وَلَا يَنَامُ جَنْبِي فِي اللَّيْلِ مُضْطَجِعًا
 لَا عَيْشَ لِي مُذْنَأَتْ وَلَا وَجَدْتُ عَيْنَايَ فِي الْأَرْضِ قَطُّ مُتَّسِمًا

قلت لها : أفلا تحدينني كيف مليت عنه وابتلي ؟ قالت : كيف لا
 أحدثك انتصدت تفاحة جارية محمد بن سليمان فدعينا الي خورنق لحمد ابن
 سليمان فلما طعمنا دعت لنا بالشراب ، فبينما نحن كذلك إذا بجراقة سلطانية
 قد وردت وفيها عدة من أبناء الملوك وفيهم هذا العيار ولا علم لي بمكانه ،
 وكنت حملت العود وغنيت :

أَبْلَى فُوَادِي وَشَفَنِي الْأَرْقُ وَالذَّمْعُ مِنْ مُقَلَّتِي بَسْتَبِقُ
 مِنْ حُبِّ ظِيِّي أَعْنُ ذِي دَعَجٍ وَقَلْبُهُ لِلشِّفَاءِ مُنْتَطَبِقُ

فلما وجبت العتمة انصرفنا وأبطأت الجارية ، وأنا في هؤلاء القوم من عنده
 يسلمون صخيمتي ، ويستعطفونني عليه ثم انصرفت عنها يا أمير المؤمنين ودخلت
 الحمام من ساعتى ، فما كان الا أن دخلت حتى أتاني غلامى فقال : جماعة
 من جلة الناس قد طرقتوا دارك يطلبونك ، فلبست ثيابى وخرجت مسرعاً
 فاذا بضمرة قد كبس داري في عمدة من الرؤساء فقال : والله لا برحنا حتى
 تنفق علينا الخمسة دينار التي أخذتها من الجارية سيدتي ، قلت : اي
 والله بالسمع والطاعة ، ثم جذبني الى نفسه فلم يزل يناظرني في أمرها
 حتى أقبل المساء ، ثم انصرف الى رحله ، فلما كان من الغد وردت له رقعة
 مع خادم وكبس فيه ألف دينار واستزارني فقبلت ذلك وصرت معه اليه ،
 فلما نظر الى تنحي عن مقعده وأقعديني ثم قال : هذا قد أعددت له لليروز
 لسيدتي هدية ، وأنت أولى من تجشم مع الخادم اليها ، قلت : السمع
 والطاعة ، ثم صاح في الدار هاتوا الهدية فاذا مائة تخت من ثياب وصندوق
 من ذهب مقفل عليه ، قال لي : في التخت والصندوق مبلغ ثلاثين ألف
 دينار وأنت أولى من تفضل بالايصال فصرنا اليها واستأذنا فلما مثلنا بين
 يديا أنكرتني ، وقالت : من الشيخ ؟ قلت : الخليل شاعر العراق ، ومعى
 هدية عبدك ضمرة ، فصاحت في الدار : فاك ، فاذا جارية كأنها الظبية
 المنفلتة من الشبكة ، قالت لها : خذي هذه الهدايا وفرقيها على جواري
 الدار ثم قالت : أبطمع الخنوص أن يجتمع معى بعد قبولى الهدية في ثلاثين
 سنة ؟ قلت : لها العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة ، قالت : ففي خمس
 عشرة سنة ، قلت : لها انقصها أولى بك ، قالت : ففي ثلاث سنين ، قلت :
 لها حطة أخرى وقد اجتمعنا ، قالت لا : والله لا آكل ولا أشرب حتى
 آتية وأمرت أن يسرج لها وبادرت الى باب ضمرة مبشراً فما وصلت أو

سمعت صلاح اللبعم فاذا هي قد سبقتني في جوارها وخدمها ؛ فدخلت فاذا هما يتعانقان ويتعانبان فقلت : يا سيدي ما أنتما إلى شيء أخرج منكما إلى خلوة ، قالوا : هو ذلك فانصرفت عنهما ، ثم بكرت عليها ؛ فاذا هي في المرقد الأول جالسة عليها جبة وشيء مطير ، وهي تعصر الماء عن ذوائبها ، وتصلح قرونها فاستحيتني ، وقالت : لا تفكرون في ريبة ، فوالله ما صلينا البارحة حتى بعثت إلى عبد الرحمن بن أبي إيلي القاضي فزوجت نفسي سيدي ، ولكن صر إليه فانه في المرقد الثاني ، فصعدت إليه ، فلما نظر إلي وثب إلي وقبل بين عيني ، وقال : يا شيخ قد جمع الله بيني وبين سيدي بك ، ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب إلى ابن نوح الصيرفي في ثلاثة آلاف دينار فرجعت إليها ، فقالت : بماذا برك سيدي ؟ فافقرتها الرقمة ، فقالت : نعجل اليك مثلها فدعت بال وطيبار ووزنت ثلاثة آلاف دينار ودعت بعشرة أبواب من ثياب مصر وقالت : هذه وظيفتك علينا كل عام ، فخرجت من عندها وأخذت مرفوعي من آل سليمان وانصرفت إلى العراق ، وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً وقال : أوه يا حسين ! لولا أن ضمرة سبقني إليها لكان لي ولها شأن من الشأن . (ومنه مع الشعراء) قال : استأذنت بنت عبد الملك بن مروان في الحج فأذن لها ، وكتب إلى الحجاج يأمره بالتقدم إلى عمر بن أبي ربيعة أن لا يذكرها في شعره ، فلما بلغ عمر مقدمها لم يكن له همه الا أن يتهاى بأجل ما يقدر عليه من الحلال والثياب ، وضربت لها قبة في المسجد الحرام فكانت تكون فيها نهارا فاذا أمت تحولت إلى منزلها لتنظر إليه وتجلس بازاء القبة ، وقد خبر عمر بشأنها فاذا أرادت الطواف أمرت جوارها فيسترنها بالمطاريف ، فكانت تتطلع إلى عمر كثيرا وكانت تسأل من دخل عليها عنه رجاء أن يكون قد قال شيئا فلم يفعل حتى قضت الحج ورحلت ونزلت من مكة على أميال ، فأقبل راكب من مكة فسألته من أين أقبلت ؟ فقال : من مكة قالت : عليك وعلى فرقة أنت

منها لعنة الله قال : ولم يا بنة عبد الملك ؟ قالت : قدمنا مكة فأقمنا
أشهرًا فما استطاع الفاسق عمر بن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتا كنا
نلهو بها في سفرنا هذا ، قال : فلعله قد فعل ، قالت : فاذهب اليه
واسأله ولك في كل بيت تأنيدي به منه عشرة دنانير . فاقبل الرجل وأتى
عمر بن أبي ربيعة فاخبره الخبر . فقال له : قد فعلت ولكن أحب أن
تكتم علي . قال : افعل ثم أنشده :

رَاعَ الْفَوَادَ تَفَرَّقُ الْأَحْبَابِ	يَوْمَ الرَّحِيلِ فَهَاجَ لِي أَطْرَابِي
فَظَلَمْتُ مُكْتَبًا أَكْفَكُ عِبْرَةَ	سَخًّا تَفِيضُ كَوَابِلِ الْأَسْرَابِ
لَمَّا تَنَادَا لِلرَّحِيلِ وَقَرَّبُوا	بُزْلَ الْجَمَالِ لِطَيْبَةِ وَذَهَابِ
كَادَ الْأَسَى يَقْضِي عَلَيْكَ صَبَابَةً	وَالْوَجْهَ مِنْكَ لَبِينِ الْإِفْكِ كَابِي
قَالَتْ سَعِيدَةٌ وَالْدُّمُوعُ ذَوَارِفٌ	مِنْهَا عَلَى الْخَدَيْنِ وَالْجَلْبَابِ
لَيْتَ الْمُغَيْرِي الَّذِي لَمْ تَجْزِهِ	فِيمَا أَطَالَ تَصِيدِي وَطِلَابِي
كَانَتْ تَرُدُّ لَنَا الْمُنَى أَيَّامَنَا	إِذْ لَا نَلَامُ عَلَى هَوَى وَتَصَابِي
أَيَّامَ نَكْتُمُ وَدَنَا وَنُودُهُ	سِرًّا مَخَافَةَ مَنْطِقِ الْمُغْتَابِ
أَخْبَرْتُ مَا قَالَتْ فَبِتُّ كَأَنَّمَا	مُرْمِي الْحِشَا بِنُؤَافِدِ النَّشَابِ
فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي وَقَلْتُ لَهَا اذْهَبِي	فَوَلِي لَهَا فِي خَفِيَّةٍ وَقَرَابِ
أَسْعِيدُ مَا مَاءُ الْفُرَاتِ وَطَيْبُهُ	مِنِّْي عَلَى ظَمَأٍ وَطَيْبِ شَرَابِ
بِالَّذِ مِنْكَ وَإِنْ نَأَيْتِ وَقَلَّمَا	تَرْضَى النِّسَاءُ أَمَانَةَ الْغِيَابِ
إِنْ تَبَدَّلِي لِي نَائِلًا أَشْفِي بِهِ	سَقَمَ الْفَوَادِ فَقَدْ أَطَلْتِ عَذَابِي

وَعَصَيْتُ فَيْكَ أَقَارِبِي فَتَقَطَّعْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ عُمَرَى الْأَسْبَابِ
فَبَقِيْتُ كَالْمُهْرِيْقِ فَضْلَةَ مَائِهِ فِي حَرِّهَا جِرَّةٌ لِلنَّعْمِ سَرَابِ

ثم أتى إليها بالابيات فأعجب بها وأمرت جوارها بحفظها ، ثم وفيت له
بما وعدت وسلمت إليه في كل بيت عشرة دنانير . وقال : أخبرنا محمد بن
خلف قال : أخبرني أبو بكر العامري قال : حدثني موسى بن عمر بن أفلح
مولى فاطمة بنت الوايد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .
قال : حدثني بلال مولى ابن أبي عتيق قال : قام الحارث بن عبد الله بن
عباس بن ابي ربيعة من الحج فأتاه ابن أبي عتيق . فقال : كيف تركت
أبا الخطاب ؟ فقال : هجرت الثريا عمر فقال :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثُّرَيَّا فَنِي ضَمْتُ ذَرْعًا بِهَجْرِهَا وَالكِتَابِ
سَلَبْتَنِي مَجَاجَةُ الْمِسْكِ عَقْلِي فَسَلَوْهَا بِمَا يَحْمِلُهُ اغْتِصَابِي
أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَابَةِ تَهَادِي بَيْنَ خَمْسِ كَوَاعِبِ أُرَابِ
وَهِيَ مَمْكُورَةٌ تَحْمِيرَ مِنْهَا فِي أَدِيمِ الْخَدَّيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ
وَتَكَنَّفْنَهَا كَوَاعِبُ بِيضُ وَاضْحَاتُ الْخُدُودِ وَالْأَقْرَابِ
فِي سِخَابِ مِنَ الْقَرْنِ نَفْلِ وَالذُّرِّ تَفَيْسِ وَاهَا لَهُ مِنْ سِحَابِ
قَلْتُ لِمَا ضَرَبَنَ بِالسَّجْفِ دُونِي لَيْسَ هَذَا لَوْدُنَا بِثَوَابِ
فَتَبَدَّتْ حَتَّى إِذَا جُنَّ قَلْبِي حَالَ دُونِي وَلَا تَدُّهُ بِالنِّيَابِ
حِينَ سَبَّ الْقَتُولَ وَالْعُنُقَ مِنْهَا حُسْنُ لَوْنِ يَدْفُ كَالزُّرْيَابِ
ذَكَرْتَنِي بِهَيْجَةِ الشَّمْسِ لِمَا طَامَتْ فِي دُجْنَةٍ وَسِحَابِ

دُمِيَّةٌ عِنْدَ رَاهِبٍ وَقَسِيْسٍ صَوَّرُوْهَا فِي مَذْبَحِ الْمِحْرَابِ
فَارْجَحَنْتَ فِي حُسْنِ خَلْقِ عَمِيْمٍ تَهَادَى فِي مَشِيْهَا كَالْحُبَابِ
ثُمَّ قَالُوا تُحِبُّهَا قَلْتُ بِهَرًّا عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَا وَالْحُرَابِ

وقال لعلامة : انطلق بكتابي هذا الى ابن ابي عتيق بالمدينة فادفعه اليه فأقبل الغلام بالكتاب حتى دفعه اليه ، فلما قرأه قال : والله انا رسوله اليها فسار حتى قدم مكة لا يعلم به أهله ، فأتى منزله فوجاه غائبا ، فانطلق غلام عمر الى عمر ، فقال : انت رجلا قدم وهو يطلبك من شأنه وهيئته كذا ، قال : ويحك ذلك ابن ابي عتيق اذهب اليه فقل له : ان مولاي ياتيك الآن ، وكان عمر على فرسخين بل على رأس ثلاثة أميال من مكة ، فأتاه الغلام فأخبره ، فقال : اسرج لي أنت برذون عمر فان دابتي قد تعبت وكنت فأسرجه له فركب وأتى الحمى ، ففصل البرذون وسمعت الثريا صهيله ، فقالت : لجواربها هذا هو برذون الحثيث عمر . ثم دعت ببغلة لها فوضعت عليها رحلها ، فخرجت فاذا هي بان ابي عتيق ، فقالت : مرحبا بعمي ما جاء بك يا عم ، قال : أنت والفاسق جئتما بي ، قالت : أما والله لو بغيرك تحمل علينا ما أجبناه ، ولكن ليس لك مدفع أمر ربنا نحوه ، فأقبل حتى انتهى الى عمر فخرج عمر اليه وقبل يده ثم قال : انزل جعلني الله فداك ، فقال : ماء مكة علي حرام حتى أخرج منها ، ثم دعا ببغلة فركبها وانصرف الى المدينة وخلا عمر بالثريا . وحدث الزبير بن بكار عن ابي محرم عن ابراهيم بن قدامة قال : قال عمر بن ابي ربيعة ألا أحدثك حديثاً حلوا قال : قلت نعم ، قال : بينا أنا جالس إذ جاءني خالد الخريت ، فقال : يا أبا الخطاب هل لك في هند وصواحبها فقد خرجن الى نزهة ، قلت : وكيف لي بذلك ؟ قال : تلبس لبسة أعرابي ، وتعمم عمامته ، وتركب مركبه كأنك ناشد ضالة ، قال : ففعلت وجئت حتى وقفت عليهن أنشد

ضالتي فقلن : انزل ، فنزلت وقعدت أحادثهن وأغازهن ، فلما رمت
 النهوض قالت لي هند : اجلس لاجلست أنت ألا ترى أنك وقفت علينا
 غريباً ونحن والله وقفنا على غربتك نحن بمثنا خالداً وخذعناه وأطمعناه في
 أنفسنا حتى جاء بك فقال خالد : صدقن والله خدعني وخذعك فجلست
 وتحدثنا فأنشدتهن ، فقالت هند : يا سيدي لقد رأيتني منذ أيام وقد
 أصبحت عند أهلي فأدخلت رأسي في جيبتي ونظرت الى هني ، فإذا هو
 ملء الكف ومنية المتمني ، فناديت يا عمراه يا عمراه ، قال عمر : فقلت
 يا لبيك يا لبيك يا لبيك ثلاثاً ، ومددت في الثالثة صوتي فضحكت ،
 وحادثتهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت فذلك قولي :

عَرَفْتُ مَصِيفَ الْحَيِّ وَالْمُتَرَبِّعَا بِيَطْنِ حُلَيَّاتِ دَوَارِسَ بَلَقَمَا
 إِلَى السَّفْحِ مِنْ وَادِي الْمُنَمِّسِ بُدِّلْتُ
 مَعَالُهُ وَبَلَاءَ وَنَكْبَاءَ زَعَزَعَا
 لِهِنْدٍ وَأُتْرَابِ لِهِنْدٍ إِذِ الْهَوَى جَمِيعٌ وَإِذَا لَمْ تُخَشَّ أَنْ يَتَّصِدَّعَا
 وَإِذْ نَحْنُ مِثْلُ الْمَاءِ كَانَ مِزَاجُهُ إِذَا صَفَّقَ السَّاقِي الرَّحِيقَ الْمُشْعَشَعَا
 وَإِذْ لَا تُطِيعُ الْكَاشِحِينَ وَلَا نَرَى
 لَوَاشٍ لَدَيْنَا يَطْلُبُ الصَّرْمَ مَطْمَعَا

وقال عمر : ما رأيت يوماً غابت عواذله ، وحضرت عواذره بأحسن
 من يومنا ، ولا صبوة كصبوتنا ، ولا قيادة كقيادة خالد ، ولا أملح ،
 ولقد وصفت ذلك في شعر ، فقلت في تمام ما تقدم :

أَتَانِي رَسُولٌ مِنْ ثَلَاثِ حَرَائِرِ وَرَابِعَةٍ يَزُكُو لَهَا الْحُسْنَ أَجْمَعَا

فقلت لِطُرَيْمٍ فِي الْحُسْنِ إِنَّمَا خَرَرْتُ فَهَلْ تَسْطِيعُ نَفْعًا فَتَنْفَعَا
لَئِنْ كَانَ مَا حَدَّثْتَ حَقًّا لَمَّا أَرَى

كَمِثْلِ الْأُولَى أَطْرَيْتَ فِي النَّاسِ أَرْبَعًا
وَهَيَّبْتَ قَلْبًا كَانَ قَدْ وَدَّعَ الصَّبَا
فَقَالَ تَعَالَ أَنْظِرْ فَقُلْتُ فُكَيْفَ لِي
أَخَافُ مَقَامًا أَنْ يَشِيعَ وَيَشْنَعَا
فَقَالَ اكْتَفِلْ ثُمَّ التَّمِّمْ وَأَتِ بَاغِيَا
فَإِنِّي سَأَخْفِي الْعَيْنَ عَنْكَ وَلَا تُرَى
فَأَقْبَلْتُ أَهْوَى مِثْلَ مَا قَالَ صَاحِبِي
فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلَّمْتُ أُشْرَقْتُ
تَبَاهُنَ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا عَرَفَنِي
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْأَحَادِيثَ قُلْنَ لِي
فَمَا جِئْتَنَا إِلَّا عَلَى وَفْقِ مَوْعِدِ
رَأَيْنَا خَلَاءَ مِنْ عَيُونٍ وَمَجْلِسًا
وَقُلْنَ كَرِيمٌ نَالَ وَصَلَ كَرَامِ
وَفِيهِمْ هِنْدٌ تُكْمِلُ الْوَهْمَ وَالْمُنَى

قال : ولما أنشد عمر بن أبي ربيعة ابن أبي عمير قصيدته التي فيها

يقول :

فَأَتَتْهَا طِبَّةٌ عَالِمَةٌ تَخْلُطُ الْجِدَّ مِرَاراً بِاللَّعِبِ
تَرْفَعُ الصَّوْتُ إِذَا لَأَنْتَ لَهَا وَتُرَاحِي عِنْدَ سَوَارَتِ الْفَضْبِ

قال ابن أبي عمير : امرأتي طالق ان لم يكن الناس في طلب مثل هذه منذ قتل عثمان يجعلونها خليفة فلم يقدروا عليها وأنت تريد قوادة ، قال : ولما هجا كثير بني ضمرة فقال :

وَيُحْشَرُ نُورُ الْمُسَامِينِ أَمَامَهُمْ وَيُحْشَرُ فِي أَسْتَاهِ ضَمْرَةٌ نُورُهَا

اشتدت بنو ضمرة عليه وعلى عزة ، وأرادوا قتله ، ووضعوا له العيون فمكث شهراً لا يصل إليها فالتقى جميل وكثير . فشكى أحدهما الى صاحبه ما يلقي ، فقال جميل : أنا رسولك الى عزة فأخبرني بما كان بينكما ، قال آخر ما لقيتها بالطلعة مع أتواب لها قال : فأنام جميل وهو ينشد ذردا له ففطنت عزة ، فقالت تحت الطلعة التمس ذوداً هناك ، فانصرف جميل فأخبر كثيراً ، فلما كان في بعض الليل أتيا الطلعة وأقبلت عزة وصاحبة لها فتحدثتا ملياً ، وجميل كثير يرى عزة تنظر الى جميل ، وكان جيلاً ، وكثير دميماً . فغضب كثير وغار عليها وقال لجميل : انطلق بنا قبل أن يصبح علينا الصبح . فانطلقا فعند ذلك يقول :

رَأَيْتُ ابْنَةَ الشُّبْلِيِّ عَزَّةً أَصْبَحَتْ كَمَا حَتَّطِبَ مَا يَلْقَى بِاللَّيْلِ يَحْتَبِ
وَكَانَتْ تُؤْمِنُنَا وَتَرَعَمُ أَنَا كَبَيْضِ الْأُنُوقِ فِي الصَّفَا الْمُتَغَيَّبِ

ثم قال كثير لجميل : متى عهدك ببشينة ؟ قال : في أول الصيف بوادي الدم ومعها جوارها يغسلن ثياباً . فخرج كثير حتى أتاهم وهو يقول :

وَقَلْتُ لَهَا يَا عَزُّ أَرْسَلِ صَاحِبِي عَلَيَّ بَعْدَ دَارِ وَالرَّسُولِ مُوَكَّلِ

بَانَ تَجْمَلِي بَيْنِي وَيَدْنِكَ مَوْعِدًا وَإِنْ تَأْمُرِينِي بِالَّذِي فِيهِ أَفْعَلُ
 أَمَا تَذَكِّرِينَ الْعَهْدَ يَوْمَ لَقَيْتِكُمْ
 بِأَسْفَلِ وَادِي الدَّوْمِ وَالتَّوْبِ يُنْسَلُ

فعلت بثينة ما أراد فصاحت اخساً اخساً فقال عنها : ما دهاك يا بثينة
 قالت : ان كلباً يأتينا من وراء هذا التل فيأكل ما يجد ثم يرجع ،
 فرجع كثير وقال جميل : قد وعدتك التل فدونك ، فخرج جميل وكثير
 حتى اتها الى الدومات ، وقد جاءت بثينة فلم تزل معه حتى برق
 الصبح ، وكان كثير يقول : ما رأيت مجلساً قط أحسن منه . عمر بن
 شبة عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : حدثني شيخ من خزاعة قال :
 ذكرنا ذا الرمة وعندنا عصمة ابن مالك الفزاري وهو يومئذ ابن عشرين
 ومائة سنة ، فقال اباي فاسألوا عنه كان من أطرف الناس خفيف العارضين
 آدم حلوا المضحك اذا أنشد اختصر ، وأتاني يوماً فقال : ان مية منقرية ،
 وان بني منقر أخبت حي وأعلمه بأثر ، فهل عندك من ناقة تزورها
 عليها ؟ قلت : أي والله عندي اثنتان قال : فسرنا فخرجنا حتى أشرفنا
 على الحي وهم خلوف ، فعرف النساء ذا الرمة فعدلن بنا الى بيت مي
 وأنحنا عندهن فقلن لذي الرمة : أنشدنا يا أبا الحارث ، فقال أنشدهن
 فأنشدتهن قوله :

نَظَرْتُ إِلَى أَظْمَانِ مَيِّ كَأَنَّهَا
 نَاشِعَتِ النَّيْرَانُ وَالصَّدْرُ كَأَنَّهَا
 ذُرَى النَّخْلِ أَوْ أَثْلُ قَمِيدِ ذَوَائِبِهِ
 بَغْرُ وَرَقٍ تَمَّتْ عَلَيْهِ سِوَا كِبِهِ
 جَوَائِلُهَا أَسْرَارُهُ وَمَعَاتِبُهُ
 بَكَى وَامِقُ جَاءَ الْفِرَاقُ وَلَمْ تَجُلْ

فقال ظريفة منهن إبكي اليوم ، فمررت فيها حتى انتهيت الى قوله :

إِذَا سَرَّحْتَ مِنْ حُبِّ مِيِّ سَوَارِحٍ عَلَى الْقَلْبِ آبَتُهُ جَمِيعًا عَوَازِبَهُ

فَقَالَتِ الظَّرِيفَةُ : قَتَلْتَهُ قَتْلَكَ اللهُ فَقَالَتْ : مَا أَصَحُّ وَهَذِينَ لَهُ قَتْنَفْسِ
ذُو الرِّمَّةِ تَنْفَسًا كَادَتْ حَرَارَتُهُ تَسَافِطُ لِحْمِي ، ثُمَّ مَرَرْتُ فِيهَا حَتَّى انْتَهَيْتُ
إِلَى قَوْلِهِ :

وَقَدْ حَاغَمْتُ بِاللَّهِ مَيَّةً مَا الَّذِي أَقُولُ لَهَا إِلَّا الَّذِي أَنَا كَاذِبُهُ
إِذَا فَرَمَانِي اللهُ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى وَلَا زَالَ فِي أَرْضِي عَدُوٌّ أَحَارِبُهُ

فَالْتَقَمْتُ مِيَّ إِلَى ذِي الرِّمَّةِ فَقَالَتْ : وَيْحَكَ خَفَّ عَوَاقِبُ اللهِ . ثُمَّ
أَنْشَدْتُ إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ إِلَى قَوْلِهِ :

إِذَا نَازَعَتَكَ الْقَوْلَ مَيَّةٌ أَوْ بَدَا لَكَ الْوَجْهَ مِنْهَا أَوْ نَضَا الدَّرْعَ سَالِبُهُ
فِيَا لَكَ مِنْ خَدِّ أَسِيلٍ وَمَنْطِقِ رَخِيمٍ وَمِنْ خَلْقٍ يُعْمَلُ جَاذِبُهُ

فَقَالَتْ تِلْكَ الظَّرِيفَةُ : أَمَّا الْقَوْلُ فَقَدْ نَازَعْتِكَ وَالْوَجْهَ فَقَدْ بَدَا لَكَ فَمِنْ لَنَا
بِأَنَّ يَنْضُو الدَّرْعَ سَالِبُهُ . فَقَالَتْ لَهَا مِي : قَاتِلْكَ اللهُ مَا أَنْكَرَ مَا تَجِيئِينَ
بِهِ الْيَوْمَ ، فَتَحَادَثْنَا سَاعَةً ثُمَّ قَالَتْ تِلْكَ الظَّرِيفَةُ : مَا أَحْوَجَ هَذِينَ إِلَى الْخَلْوَةِ
فَنَهَضْتُ وَسَائِرَ النِّسَاءِ فَصُرْتُ إِلَى بَيْتٍ قَرِيبٍ مِنْهَا حَيْثُ أَرَاهَا ، فَمَا ارْتَبْتُ
بِشَيْءٍ وَلَا رَأَيْتُ أَمْرًا كَرِهْتُهُ ، فَلَبِثْتُ سَاعَةً ثُمَّ أَتَانِي وَمَعَهُ قَارُورَةٌ وَثَلَاثُ
قَلَانِدٍ : فَقَالَ : هَذَا طَيِّبٌ زُودْتَنَاهُ مِي ، وَقَلَانِدٌ انْتَفَعْتُ بِهَا ابْنَةُ الْجُودِيِّ
فَكُنَّا نَخْتَلِفُ إِلَيْهَا حَتَّى انْقَضَى الْمَرْبَعُ وَدَعَانَا الصَّيْفُ فَرَحَلُوا قَبْلَنَا ، وَأَتَانِي
ذُو الرِّمَّةِ فَقَالَ : قَدْ ظَنَنْتُ مِي فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدِّيَارُ وَالنَّظَرُ إِلَى الْآثَارِ ، فَأَخْرَجَ
بِنَا إِلَى فَيْخَرَجْتٍ مَعَهُ حَتَّى إِذَا وَقَفْنَا عَلَيْهَا أَنْشَأَ يَقُولُ :

ألا فأسلمي يا دار مميّ على البلى ولا زال منهنّ لآبجر عائك القطر

حتى أتى على آخرها ، ثم انهملت عيناه بعبرة : فقلت له ما هذا ؟ فقال :
أني جليد وان كان مني ما ترى فما رأيت أحداً أحسن شوقاً وصبابة وعزاء
منه . وعن سليمان راوية أبي نواس قال : كنت مع أبي نواس أسير حتى
انتهينا الى درب القراطيس ، فخرج من الدرب شيخ نصراني وخلفه غلام
كانه غصن بان يذئني كاحسن ما رأيت قال : يا سليمان أما ترى الدرّة خلف
العبرة ثم قال : هل لك أن تأخذ مني رقعة فتوصلها اليه ؟ قلت : بلى ،
فكتبها ودفعها الي فاوصلتها اليه ، فاذا ألمح غلام وأخفه روحاً فقال : من
صاحب الرقعة ؟ قلت : أبو نواس : قال أين هو ؟ قلت على باب درب
القراطيس قال : فيلقف مكانه حتى أروح وكان في الرقعة :

تُمرُّ فاستخّيك أن أتكلّما ويتنّيك زهو الحسن عن أن تُسلّما
ويهتزُّ في ثوبك كلّ عشيّة قضيبٌ من الرّيحانِ أضحى مُنعمًا
فحسبُك أن الجسم قد شفّه الهوى وأنّ جفوني فيك قد ذرّفت دما
اليس عجيبا عند كلّ مؤحّدٍ غزالٌ مسيحي يعذبُ مُسلّما
فلو لا دخولُ النّار بعد تنصيرٍ عبّدتُ مكانَ الله عيسى بن مريمًا

وحدثنا الجمار قال : كنت يوماً على باب عندي عدي الدراع فمر بي
أبو نواس شبيهاً بالمجنون ، فاذا خلفه غلام كأنه مهر عربي فقلت له مالك ؟
فقال :

إنّ الرّزيّة لا رزيّة مثلها عوزُ المسكانِ وقدّتها المرّكبُ

فعدلت به وبالغلام ، فأقاما سائر يومها . قال : وكان عبيد الله بن

يحسى يتعشق غلاماً من دار المتوكل يقال له . رشيق ، فلا يصل اليه حتى طال ذلك عليه ، وكان أبو الاخطل يخلفه في المركب وينبسط اليه فقال له أبو عبيد الله يوماً : يا أبا الاخطل من لي برشيق فقال : الصغر الصغار والبيض الصحاح ، وجعل عبيد الله يلقي رشيقاً في الدار فيخلو به ويساره ويعطيه مائة دينار في كل لقيمة الى ان علم رشيق بما في نفس عبيد الله ، وكان يتعذر عابيتها الاجتماع لقضاء الوطر واللذة ، فركب أمير المؤمنين يوماً ومعه أبو الاخطل فطلب عبيد الله وتعمد أبو الاخطل رشيقاً فرده اليه ، فلما ظفر به في منزله خالياً قضى حاجته منه وركب يريد أمير المؤمنين مسرعاً ، فوصل الى الموكب وقد تصبب عرقاً فقال أبو الاخطل :

لا خيرَ عندي في الخليل ينامُ عن سهرِ الخليلِ
قولوا لأَكْفَرِ من رأيتُ لكلِّ معروفِ جليلِ
هلْ تشكرنَ لي الغداً ة تَلَطَّفِي الكَ في الرسولِ
إذْ نحنُ في صيدِ الجبا لِ وَأنتِ في صيدِ السُّهولِ

(ما قيل فيه من الشعر)

وتمشيت في الجميل فأسرعت وإن كنت تأتي جميلاً
إن من ممد للقيادة رجالاً أحريُّ بأن يكون نبيلاً

آخر :

أهواهُ لِأُتْلَافِ وَمَلَأَهُ لِأَخْتِلافِ
ليس يقرأ من كتاب السأه إلا لِإِيلافِ

وقال آخر :

إِنَّ الرَّقَاشِيَّ مِنْ تَكَرُّمِهِ بَلَغَهُ اللَّهُ مُنْتَهَى هِمِّهِ
يَبْلُغُ مِنْ بَرِّهِ وَرَأْفَتِهِ حَمَلَانَ أُضْيَافِهِ عَلَى حُرْمِهِ

(ومن محاسن ذلك) حدثنا علي بن الحسين بن علي بن عثمان بن علي ابن الحسن قال : كانت ضمير جارية مولدة لميمونة بنت الحسن بن علي بن زيد ، فأدبتها وعلمتها الغناء فبرعت فيه ، وكانت من أحسن الناس وجهاً وبدناً ، وأبرعهم غناءً وضرباً ، فأعطيت بها مولاتها عشرة آلاف دينار ، فلما أرادت أن تبيعها وأحضر المال بككت وقالت : يا سيدتي ربديني واتخذتيني ولداً ، ثم تربدين بيبي فاتغرب عنك ولا أرى وجهك قالت : أشهد الله ومن حضر أنك حرة لوجه الله ، فلما ماتت ميمونة خطبها آل أبي طالب وغيرهم فغلب عليها جعفر بن حسن بن حسين ، فتزوجها وأحبها حباً شديداً ، فقدم بها البصرة فقال علي بن الحسين وكان يجالسها ويسمع غنائها : فأردت الخروج الى الرضي بخراسان فودعت جعفرًا وخرجت فاقمت بالاهواز أياماً أنهياً للخروج على طريق فارس فورد علي كتاب جعفر أنه قد وقع بينه وبين ضمير شر ، وأنها قد أغلظت له حتى تناووها ضرباً ، وأنها على مفارقتها وسألني القدوم لاصلاح بينهما فقال علي بن الحسين وكانت لي حاجة بالرضي وكنت أرجو لذلك في وجهي منه ومن الأموات الغني ، فلما قرأت كتابه لم أعط صبراً حتى انصرفت راجعاً الى البصرة فجنث الى جعفر فأوقعت به شتاً وعدلاً ثم ارسلت اليها : أقسمت عليك بحقي الا رجعت فخرجت مرهءاء شعثة وسخة الثياب حتى جلست بينها ، فاقبل جعفر يوطئني من نفسه لها كل ما أريد وهي ساكنة ثم قلت : يا جارية هات العود فاخذته فأصلحت منه حتى تغنت وهي تبكي ودموعها تكف .

أُرْتَجِي خَالِقِي وَأَعْلَمُ حَقًّا أَنَّهُ مَا يَشَاءُ رَبِّي كَفَانِي
لَا تَأْمَنِي وَارْفُقْ خَلِيلِي بِشَانِي إِنَّهُ مَا عَنَّاكَ يَوْمًا عَنِّي

قال علي بن الحسين : فوالله ما رأيت أحسن منها ولا أرق من غنائها بهذا الصوت فما برحت حتى اصطليحا وأهتني والله عن الغنى . فأقمت بالبصرة . وعن الكلابي قال : بينا عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت في حال نسكه ، فإذا هو بشاب قد دنا من شابة ظاهرة الجمال ، فألقى إليها كلاما فقال له عمر : يا عدو الله في بلد الله الحرام وعند بيته تصنع هذا فقال : يا عماء انها ابنة عمي وأحب الناس الي ، واني عندها لكذلك ، وما كان بيني وبينها من سوء قط أكثر مما رأيت قال : ومن أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان قال أفلا تتزوجها ؟ قال : أبي علي أبوها قال : ولم ؟ قال : يقول : ليس لك مال فقال : اصرف والتني فلقية بعد ذلك فدعا ببعثته فركبها ، ثم أتى عم الفتى في منزله فخرج اليه فرحا بمجيئه ورحب وقرب فقال : ما حاجتك يا أبا الخطاب ؟ قال : لم أرك منذ أيام فاشتقت اليك قال : فانزل فانزله وألطفه فقال له عمر في بعض حديثه : إني رأيت ابن أخيك فأعجبني تحركه وما رأيت من جماله وشبابه قال له : أجل ! ما يغيب عنك أفضل مما رأيت قال : فهل لك من ولد ؟ قال : لا الا فلانة قال : فما يملك أن تزوجه إياها ؟ قال : أنه لا مال له قال : فان لم يكن له مال فلك مال قال : فاني أضن به عنه قال : لكني لا أضن به عنه ، فزوجه واحتكم قال : مائة دينار قال : نعم فدفعها عنه ، وتزوجها الفتى ، وانصرف عمر الى منزله فقامت اليه جارية من جواريه فأخذت رداءه وألقى نفسه على فراشها وجعل يتقلب ، فأنته بطعام فلم يتعرض له فقالت : أظنك والله قد وجدت بعض ما كان يعرض لك من حكم النساء فلا تكتنمها فقال هات الدواء فكتب :

تقولُ وليدتي لما رأني
 أراك اليومَ قد أحدثت شوقاً
 و كنت زعمت أنك ذو عزاء
 بعيشك هل أتاك لها رسول
 فقلت شكاً إليّ أخٌ محبوب
 وذو القلب المصاب ولو تعزى
 فقص عليّ ما يلقى بهند
 فكتم من خلةٍ أعرضت عنها
 أردت قراقها فصبرت عنها
 طربت و كنت قد أقصرت حيناً
 وهاج لك الهوى داءً دفيناً
 إذا ما شئت فارقت القرينا
 يسرك أم لقيت لها خدينا
 كبعض زماننا إذ تعلمينا
 مشوق حين يلقى العاشقيننا
 وأشبه ذلك ما كنا لقينا
 و كنت بودها دهرأ ضنيننا
 ولو جن الفؤاد بها جنوننا

قال : وقال عمر بن ابي ربيعة بينا انا خارج محرماً اذ أنتني جارية
 كأنها دمية في صفاء اللجين في ثوب قصب كفضيب علي كئيب فسلمت علي
 وقالت : أنت عمر بن أبي ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا والله
 ذاك قالت : فهل لك ان اريك احسن الناس وجهاً ؟ قلت : ومن لي
 بذلك قالت : أنا والله لك بذلك علي شريطة قلت : وما هي ؟ قالت :
 أعصبك وأربط عينيك وأفودك ليلا قلت : لك ذلك قال : فاستخرجت
 معجراً من قصب عجرتني به وقادتني حتى أتت مضرباً ، فلما توسطته فتحت
 العجارة عن عيني فاذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرد بجمرة مفروش بوشى
 كوفي وفي المضرب ستارة مضروبة من الدياتج الأحمر عليها قنايل ذهب
 ومن ورائها وجه لم أحب أن الشمس وقعت علي مثله حسناً وجمالاً ،
 فقامت كالجملة ، وقعدت قبالي ، وسلمت علي فخيّل لي أن الشمس تطلع

من جبينها وتغرب في شقائق خدها قالت : أنت عمر بن أبي ربيعة فتى
قريش وشاعرها ؟ قلت أنا ذلك بامتني الجمال قالت أنت القائل .

بَيْنَمَا يَتَمَتَّنِي أَبْصَرْتُنِي دُونَ قَيْدِ الْمِيلِ يَعْدُو بِي الْأَخْرُ
قَالَتِ الْكُبْرَى أَمَا تَعْرِفُنَ ذَا قَالَتِ الْوَسْطَى لِي هَذَا عُمَرُ
قَالَتِ الصُّغْرَى وَقَدْ تَيَّمَّتْهَا قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ

قلت : أنا والله قائلها يا سيدتي قالت : ومن هؤلاء قلت يا سيدتي والله
ما هو عن قصد مني ولا في جاربة بعينها ، ولكني رجل شاعر أحب
الغزل وأقول في النساء قالت : يا عدو الله يا فاضح الحرائر أنت قد فشا
شعرك بالحجاز ، وأنشده الخليفة والامراء ، ولم يكن في جاربة بعينها
يا جواردي أخرجته فخرجت الوصائف فاخرجتني ودفعتني الى الجارية
فعجرتني وقادتني الى مضربي فبت ليلة كانت أطول من سنة ، فلما
اصبحت بقيت هائلا لا أعقل ما أصنع ، فما زلت أرقب الوقت ، فلما كان
وقت المساء جاءني الجارية وسلمت علي وقالت : يا عمر هل رأيت ذلك الوجه
قلت : أي والله قالت : فتعجب أن أريكه ثانية ؟ قلت : اذا تكلمت
فتكونين أعظم الناس علي منة ، فقالت : عي الشريطة فاستخرجت المعجر
وعجرتني وقادتني فلما توسطت المضرب فتحت العصاية عن وجهي ، فاذا انا
بمضرب ديباج أحمر مدور بياض مفروش بفرش أرمني فقعدت على فرقة من
تلك النارق فاذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر تتمايل من
غير سكر فقعدت كالخجلة فسلمت علي ، وقالت : أنت عمر بن أبي ربيعة
فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك ، قالت أنت القائل :

وَنَاهِدَةُ اللَّتْدِيَيْنِ قَلْتُ لَهَا اتَكِي عَلَى الرَّمْلِ فِي دَيْمُومَةٍ لَمْ تَوَسِدِ
فَقَالَتْ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كَلَّفْتُ مَا لَمْ أَعُوذِ

فما زلتُ في ليلٍ طويلٍ مُلتمِّمًا لذيذِ رُضابِ المِسكِ كالمُتَشهِّدِ
 فلما دنا الإصباحُ قالتُ فضحتني فقمُ غيرَ مطرُودٍ وإنِ شئتُ فازدَدِ
 فما زددتُ منها واتشحتُ بِمِرطِها وقلتُ لعيني أسفحًا اللدمَ من غَدِ
 فقامتُ تُعفى بالرداءِ مكانها وتطلبُ شذراً من جمانٍ مُبددِ

قلت : أنا قائلها قالت : فمن الناهدة النديين ؟ قلت : يا سيدتي قد سبق في الليلة الاولى والله ما هو مني قصد ، ولا في جارية بعينها ، ولكني رجل شاعر أحب الغزل وأقول في النساء قالت : يا عدو الله انت قد فشا شركك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم أنه لم يكن في جارية بعينها يا جواربي ادفعنه فوثبت الجواربي فاخرجتني ودفعتني الى الجارية فعجزتني وقادتني الى مضربي فبت في ليلة كانت أطول من الليلة الاولى ، فلما اصبحت أمرت بخلق فضرب لي وبقيت ارقب الوقت هائماً ، فلما كان وقت المساء جاءني الجارية فسلمت علي وقالت : يا عمر هل رأيت ذلك الوجه ؟ قلت : أي والله قالت : أفنحب ان أريكه الثالثة قلت : اذا تكورين أعظم الناس علي منه قالت : على الشريطة ؟ قلت : نعم فاستخرجت المعجر وعجزتني به وقادتني حتى أنت بي المضرب ، فلما توسطته فتحت العصابة عن عيني فاذا أنا في مضرب ديباج أخضر مدنى بجمرة مقروش بجز أحمر واذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستور كحور الجنان فسلمت علي وقالت : انت عمر بن ابي ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك ، قالت : انت القائل :

نعب الغرابُ بين ذاتِ الدُمُج ليت الغرابُ بينَها لم يشحج
 ما زلتُ أتبعهم وأتبع عيسهم حتى دُفعتُ إلى ربيعة هودج

قالت وعيش أخِي وحُرْمَةِ والدِي لأنَّهِنَّ الحَيَّ إِنَّمَا تَخْرُجُ
فلنَمْتُ فإِذَا أَخَذْتُ بِقُرُونِهَا شَرِبَ التَّنْزِيفَ بِبَرْدِ مَاءِ الحَشْرَجِ
فتناوَأْتُ كَفِّي لِتَعْرِفَ مَسَهَا بِمُخَضَّبِ الأَطْرَافِ غَيْرِ مَشْنَجِ

قلت : أنا قائلها ، قالت : يا عدو الله انت الذي فضحتنا ونفسك وجهي من وجهك حرام ان عدت الي يا جواري أخرجه ! فوثب الي الوصائف وأخرجني ودفعتني الي الجارية فمجرنتني وقادتني ، وقد كنت عند خروجي من مضربي ضربت يدي بالخلوق وأسدت عليها ردائي ، فلما صرت الي باب مضربها أخرجت يدي ووضعتها على جانب المضرب وضعا بيننا ، فلما أصبحت صحت بفلاني وعبيدي ولي ألف عبد من أتاني بخبر المضرب الذي ضرب فيه بكذا وكذا فهو حر لوجه الله ، فلما كان في وقت المساء أتتني وليدة سوداء ، فقالت : قد عرفت المضرب ، وهو لومة أخت عبد الملك بن مروان فأعنتها وأمرت لها بمائتي دينار ، وأمرت بمضربي فقلع وضرب بجذاه مضربها وكتب بالخبر الي عبد الملك بن مروان ، فكتب اليها بالرجل ، فركبت هودجها وركبت فرسي ، فزاحمتا في بعض الطريق فأشرفت علي من هودجها ، فقالت : اليك عني أيها الرجل ! قلت : خانم أو قميص أذكرك به ، فقالت لبعض جواريها : ألقني اليه قميصا من قميصي فأخذته وأنا أقول :

فلا وأيكَ ماصوتُ العَوَانِي ولا شَرِبُ التي هي كالفصوصِ
أرَدْتُ بِرِحْلَتِي وأريدُ حَظًّا ولا أكلُ الدَّجَاجِ ولا الغبيصِ
قميصٌ ما يُفارِقُنِي حَيَاتِي أنيسٌ في المُقامِ وفي الشُّخُوصِ

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا من الشام على ثلاث

مراحل : فاستقبلها عبد الملك في خاصته فدخل اليها ، ثم قال : يا رملة ألم أنك ان تطوفي بالبيت الا ايلا يحفك الجوارى ، ويحف الجوارى الخدم ، ويحف الخدم الوكلاء ، لثلا يراك عمر بن ابي ربيعة ، قالت : والله وحياء امير المؤمنين ما رأني ساعة قط فخرج من عندها فبصر بضربي ، فقال : لمن المضرب قيل لعمر بن ابي ربيعة ، قال : علي به فأنته بلا رداء ولا حذاء فدخلت عليه وسلمت عليه فقال : يا عمر ما حملك على الخروج من الحجاز من غير إذني ، قلت : شوقا اليك يا امير المؤمنين وصيابة الى رؤيتك فأطرق ملياً بنكت في الارض بيده ، ثم رفع رأسه فقال : يا عمر هل لك في واحدة ؟ قلت : وما هي يا امير المؤمنين قال : رملة ازوجكها ، قلت : يا امير المؤمنين وان هذا لكائن ، قال : أي ورب السماء ، ثم قال قد زوجتك فادخل اليها من غير أن تعلم فدخلت عليها فقالت : من أنت هيلتك امك فقلت : يا سيدتي انا المعذب في الثلاث فانحلت وأنا عدلها فأنشأت أقول :

أَعْمَرِي لَقَدْ نَلْتُ الَّذِي كُنْتُ أُرْتَجِي
وَأَصْبَحْتُ لَا أَخْشَى الَّذِي كُنْتُ أَحْذَرُ
فَلَيْسَ كَمَثَلِي الْيَوْمَ كَسْرَى وَهَرْمُزُ
وَلَا الْمَلِكُ النَّعْمَانُ مَثَلِي وَفَيْصَرُ

فلم أزل معها بأحسن عيش وغبطة .

٤٣ - محاسن الديب

الاصمعي قال : اخبرني رجل من بني أمد أنه خرج في طلب أبل قد

ضلت فيينا هو يسير في بلاء وتعب ، وقد امسى في عشية باردة اذ رفعت له اعلام قال : فقصدت بيتاً منها فاذا انا بامرأة جميلة ذات جزالة فسلمت فردت علي السلام ثم قالت : أدخل فدخلت فبسطت لي ومهدت واذا في حجرها صبي أطيب ما يكون من الولدان . فيينا هي تقبله اذ اقبل رجل امام الابل دميم المنظر ضئيل الجسم كأنه بعرة دمامة واحتقارا ، فلما بصربه الصبي هس اليه وعدا في تلقائه فاحتمله وجعل يقبله ويفديه . فقلت : في نفسي أظنه عبداً لها ، فجاءني ووقف بباب الخيمة وسلم فرددت عليه السلام ، فقال : من ضيفكم هذا ؟ فاخبرته فجلس الى جانبها وجعل يداعبها فطفقت أنظر اليها تارة واليه أخرى أعجب من اختلافها كأنها الشمس حسناء ، وكأنه القرد قبيحاً ، ففطن لنظري ، وقال : يا أخا بني أسد أتري عجيباً ؟ قال تقول أحسن الناس وجها . وأقبح الناس وجها فليت شعري كيف جمع بينهما ؟ أخبرك كيف كان ذلك ، قلت : ما أحوجني إلى ذلك ، قال : كنت سابع إخوتي كلهم لو رأيتني معهم ظننتني عبداً لهم ، وكان أبي وإخوتي كلهم أصحاب إبل وخيل ، وكنت من بينهم مطروحاً لكل عمل دني للعبودية تارة ولرعي الابل أخرى ، فيينا أنا ذات يوم تعب مكتئب اذ ضل لنا بعير فتوجه إخوتي كلهم في بغائه فلم يقدروا عليه ، فأتوا أبي وقالوا : ابعث فلاناً ينشد لنا هذا البعير ، فدعاني أبي وقال : اخرج فانشد هذا البعير ، فقلت : والله ما أنصفتني ولا بنوك أما إذا الابل درت ألبانها وطاررت ركوبها فأنتم جماعة أهل البيت أربابها واذا ندت ضلالها فأنا باغيها ، فقال : قم يا لكع فاني أراه آخر يومك ففقدت قهوراً خلق الشياح حتي أتيت بلاداً لا أنيس بها فطفقت يومي ذلك أجول في القفر ، فلما أميت رفعت لي أبيات فقصدت أعظم بيت منها فاذا امرأة جميلة مخيلة للسودد والجزالة ، فبدأتني بالتحية وقالت : انزل عن الفرس وأرح نفسك فأنتني بعشاء فتمشيت ، وأقبلت هذه تسخر مني وتقول : ما رأيت كالعشبة أطيب ريحاً منك ولا أنظف ثوباً ولا

أجمل وجهاً ، فقلت : يا هذه دعيني وما أنا فيه فاني عنك في شغل شاغل ، فأبت علي ، وقالت : هل لك أن تلج على السجف اذا نام الناس فأغراني والله الشيطان ، فلما شبت من القرى وجاء أبوها واخوتها فضجعوا أمام الحيمة قت ووكزته برجلي ، قالت : ومن أنت ؟ قلت : الضيف ، قالت : لا حياك الله اخرج عليك لعنة الله ، فعلت أنني لست في شيء من أمرها فوليت راجعاً ، فواثبني كلب لهم كأنه السبع لا يطاق ، فأراد آكلي فأنشب أنيابيه في مدرعة صوف كانت علي وجعل يمزقني فردني القهقري وتعذر علي لخلاص ، فأهويت انسا والكلب من قبل عقبي في بئر أحسن الله الى انسه لا ماء فيها ، فلما سمعت المرأة الواغية أنت بجبل فأدلته وقالت : ارتق لعنك الله ، فوالله لولا انسه يقتص أثرى غدا لوددت أنها قبرك فأعتنقت الجبل ، فلما كدت ان اتناول يدها قضى ان تهور ما تحت قدميها ، فاذا انا ، وهي والكلب في قراره البئر بئر أيما بئر ؟ انما هي حفرة لا طي لها ولا مرقاة كأشد بلية بنا عضا ، الكلب ينبج من ناحية ، وهي تدعي بالويل والشبور من ناحية ، وأنا منقبع قد برد جلدي على القتل من ناحية ، فلما أصبحت انها فقدتها فلما لم ترها ات اباه فقالت : يا شيخ أعلم ان ابنتك ليس لها أثر بحس ؟ وكان أبوها عالماً بالآثار تابعاً لها ، فلما وقف على شفير البئر ولي راجعاً فقال لولده : يا بني أنعلون ان اختكم وضيغكم وكلبكم في البئر ؟ فبادروا كالسباع ، فمن بين آخذ حجراً وآخذ سيفاً أو عصا ، وهم يومئذ يريدون ان يجعلوا البئر قبري وقبرها ، فلما وقفوا على شفير البئر قال ابوهم : ان قتلتم هذا الرجل طولبتم بدمه وان تركتموه افتضحتم وقد رأيت ان ازوجها إياه ، فوالله ما يقدر لها في نسب ولا في حسب ، ثم قال لي : افيك خير ؟ فلما شممت روح الحياة وثاب الي تقلي قلت : وهل الخير كله الا في ، فهات اختكم ؟ فقال : مائة بكرة وبكرة ، وجارية وعبد ، فقلت لك ذلك وان سئت فازدد ، فأخرجت اولاً ، والكلب

ثانياً ، واخرجت ثالثاً فأثبت ابي ، فقال : لا أفلحت فأين البعير ؟ قلت : اربع عليك أيها الشيخ ! فانه كان من القصة كيت وكيت . قال : أفعل والله ولا أخذ لك ، فدعا بالابل فعد منها مائة بكرة وبكرة وسقناها مع جارية وعبد وأخذت منه هذه غرة نفسها قال : والله كذلك ، وجعلت تصدف عن حديث زوجها صدوف المهرة العربية سمعت لجامها ، وربما قالت لا أطاب الله خبرك .

(ضده مساوي الديب)

قال : وقيل لخراش الأعرابي حدثنا ببعض هنالك ، قال : خرجت في بغاء ذود لي فدفعت في عشية سائية الى أخبية كثيرة ، فضافوا وحيوا ورحبوا ، فلما أردت النوم أقاموا فتاة لهم من موضع مبيتها ، وجعلوني مكانها لكلا أتأذى بالغنم ، واني لمضطجع اذا أنا بيد انسان يجامشني ويبد في الظلمة مؤاتني ففعدت ، فاذا أنا برجل يد يده ومعه علبة فيها أرنب مشوية ، فأخذتها وجعلتها في شيء كان معي ، ثم مد يده ثانياً فناولته يدي فأقبضني على غرمول كمثل الوند ، فلم أنفر منه ولم أره وحشة وجردت ما عندي ، وتناوات يده فأقبضته على مثل ما أقبضني عليه ففطن ، ورمى بلحفة خز كانت عليه ووثب مذعوراً ، فنفرت الابل وهاجت الغنم ، وكادت أغشى لما بي من الضحك وأخفيت ما بي وكتمته ، فلما أصبحت ركبت راحلتي ، ومعي الملحفة ، والعلبة ، والأرنب . فلما امتد الضحى اذا أنا بابل فأخذت نحرها ، فاذا شاب حسن الهيئة فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : ان كان معك ما نأكل فصب من هذا الوطب فأخرجت العلبة ، فلما رآها عرفها وقال : انك هو ، قلت : وما هو قال : صاحب البارحة ، قلت : نعم ان كنت اياه ، قال ؟ الحمد لله الذي أتى بك لو لم تأت لظننت

اني أوسوس ، وذلك اني لصاحبة الستر عاشق ، وتعلم ما فعلت وفعلت
البارحة ، ولا تطيقت له حتى ابتلاني الله بك البارحة ، وجعلت أقول
حين أقبضتني عليه أتواها نحولت رجلا ، واني اني شك من امري حتى
أتاني الله بك ، فأكلت انا وهو الأرنب وشربنا من اللبن وصرنا اصدقاء
الأصمعي قال : أتى خالد بن عبد الله أعرابي فأضافه واحسن اليه وبذل له
صحن الدار ، فلما كان في بعض الليل اشرف عليه يتعاهد منه ما كان
يتعاهد من ضيفه ، فاذا هو قد دب على جارية وهو على بطنها فأعرض
عنه ، فما لبث الأعرابي ان فرغ وقام يمسح فيشلتته ، فضربته عقرب ،
فصاح واستغاث ، وأشرف خالد عليه وهو يقول :

وداري إذا نام سُكَّانُهَا تُقِيمُ الحُدُودَ بِهَا العُقْرَبُ
إذا غفلَ النَّاسُ عن دِينِهِمْ فإنَّ عَقَارِئَنَا تَغْضَبُ

قال : وكان اعرابي ضيفاً لقوم فنظر الى جارية جميلة فدب اليها ،
فاذا عجوز في صحن الدار تصلي فعاد الى فراشه ، ثم عاودها فنبح الكلب ،
ثم عاد اليها ، فاذا القمر قد طلع فأنشأ يقول :

لم يَخْلُقِ اللهُ خَلْقاً كُنْتَ أَكْرَهُهُ إِلَّا العَجُوزَ وَعَيْنَ الكَلْبِ والقَمَرَ
هَذَا يَصِيحُ وَهَذَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَهَذِهِ شَيْخَةٌ قَوَّامَةُ السَّحَرِ

وقال : وشرب سعيد بن حميد البصري عند راشد فدب على غلامه ،
فكتب اليه سعيد :

ما سَمِعْنَا مِنْ قَبْلِهَا بِأَدِيبٍ بَارِعِ الظَّرْفِ ماجِدِ قَمَقَامِ
ضَلَّ عَنْهُ وَهُوَ المُهَذَّبُ عِلْمًا فَتَكَاتُ الكُثُوسِ بِالأَحْلَامِ

أَيْنَ مَا جَاءَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ
 مَا عَلَى مُنْقَلٍ مِنَ النَّوْمِ وَالسُّكْرِ
 ثُمَّ أَيْنَ الَّذِي بِهِ حَكَمَ الْمَأْ
 أَيُّهَا مَا جَدِيدٍ أَرَادَ سُرُورًا
 فَعَلَيْهِ طَيُّ الْبَسَاطِ بِهَا قَدْرُ
 حُلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عَقْلِي بِأَرْطَا
 ثُمَّ وَكَلْتِ فِي الْعُسُوفِ رَشِيقًا
 ثُمَّ بَاكَرْتَنِي بِعَتَبِكَ وَاللَّوْ
 وَتَغَضَّبْتَ أُنِّي قَدْتِ عَمْرًا
 هَلْ رَأَيْتِ الْإِلَهَ يَا خُذْ مَجْنُوعًا
 لَنْ تَرَانِي مُعَاشِرًا لَكَ مَا هَشْتِ
 أَوْ تُرَى نَائِبًا وَتَسْتَغْفِرَ اللَّهُ

فاجابه راشد فقال :

يَا أَبَا جَنْفَرٍ سَلِيلَ الْعَالِي
 إِنْ يَكُنْ قَدْ أَنَاكَ عَنِّي مَرْحُ
 أَوْ أَكُنْ فِيهِ كَالَّذِي كَانَ يَنْدُو
 إِلَيْنِي عَالِمٌ بِأَنَّكَ لَمْ تَأْ
 وَنَجِيبَ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ
 لَمْ يَكُنْ عَنِ حَقِيقَةِ فِي الْكَلَامِ
 بِسَلَامٍ عَلَيْكَ فِي الثَّوَامِ
 تِ قَبِيحًا وَلَا أَرْتَكِبُ الْأَثَامِ

هُوَ ذَنْبُ الْمُدَامِ لَا ذَنْبُ خَلِيٍّ لَمْ يَزَلْ حَافِظًا لِعَوْدِ الذَّمَامِ
 ثُمَّ ذَنْبُ الْعُيُونِ يَا بْنَ حُمَيْدٍ فَلَهُ الذَّنْبُ بَعْدَ إِسْتِغْرَامِ
 قَعْدًا فِي طَرِيقِ أَيْرُكَ حَتَّى عَرَّضَاهُ لِلظَّنِّ وَالْإِتِّهَامِ
 فَتَنَّمَدَ أَخَاكَ بِالصَّفْحِ فَالصَّفْءِ ح دَلِيلٌ عَلَى سَجَايَا الْكِرَامِ
 إِنِّي تَائِبٌ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِمَا كَانَ مِنْ شَنِيعِ الْكَلَامِ

ما قيل في ذلك من الشعر :

فَمَا أَهَيْنُ عَشْرٌ عَلَى سَاقِ رَجَسٍ
 تَضَاحِكُ عَيْنَ الشَّمْسِ بِالْمَقْلِ الصُّفْرِ
 بِأَحْسَنَ مِمَّنْ زَارَنِي بَعْدَ هَجْعَةٍ
 يَمِيسُ هُوَيْنًا فِي الظَّلَامِ عَلَى دُعْرِ

قال : ودب رجل على قينة في مجلس فغنت :

مَاذَا يُشَوِّشُ طَرَّتِي يَا قَوْمُ فِي وَقْتِ السَّعَرِ
 مَاذَا يُعَالِجُ تَكَّتِي وَيَلَاهُ عَذَابِي السَّوَرِ

وقال علي بن حمزة :

مَتَوَرَّدُ الْخَدَّيْنِ مِنْ خَجَلٍ مُتَخَاذِلُ الْأَعْضَاءِ مِنْ كَسَلٍ
 خَاضَ الدُّجَا وَالشَّوْقُ يَجْمِدُهُ وَأَتَاكَ يَمْشِي غَيْرَ مُنْتَعِلٍ
 مَا رَاعَنِي إِلَّا تَدَافِعُهُ كَالنَّصْنِ بَيْنَ الصَّدْرِ وَالْكَفَلِ

وقال عمر بن ابي ربيعة المخزومي :

قالت وأبشثها سرِّي وُبجَّتْ بهِ قد كُنْتُ عِنْدِي تَحِبُّ الشَّرْفَ اسْتَمَرَّ
أَلَسْتُ تُبْصِرُ مَنْ حَوْلِي فَقُلْتُ لَهَا غَطِي هَوَاكَ وَمَا أَلْقَى عَلَيَّ بَصَرِي

٤٤ - محاسن الباه

حكى عن عالج جارية ، كشوح انها حدثت مولاتها انها كانت تغسل كل يوم فسألته عن ذلك ، فقالت : يا هذه انه يجب على المرأة ما يجب على الرجل بعد احتلامه ، قالت : أو تخدين ؟ قالت : إنه لا تأتي علي ليلة لا اجامع فيها الا واحتم ، قالت : فكيف يكون ذلك ؟ قالت : أرى كأن رجلا جامعي ، ولقد رأيت ليلة كأني مررت بدكان أبي مالك الطحان وبغل له واقف قد أدلى ورماني تحته واوجه فاحتمت ، ثم انتبهت وانا أجد معكة في مراق بطني ولذة في سويداء قلبي وكان هذا البغل اذا أدلى حك الارض برأس أيره وضرب به في بطنه فترى الغبار يتطاير عن يمينه وشماله . قال : وكانت مهدية بنت جبير التغلبية تقول : ما في بطن الرجل بضعة أحب الى المرأة من بضعة تناط بعقد الحالبين ومنفرج الرجلين حدثني جهم قال : قلت لأمرأة من كلب ما أحب الاشياء من الرجال الى النساء قالت : ما يكثر الاعداد ، ويزيد في الاولاد حربية في غلاف تناط بجقوي رجل جاف ، اذا غافس أوهى ، وذا جامع أنجى قال . وقال ابو ثامة لامرأة من زييد وهي تبكي عند قبر من الميت قالت : كان يجمع بين حاجبي والساق ويزني هز الصارم الاعناق ، ووالله لولا ما ذكرته لك . ما استهلت بالدموع عيناى وقد كذبتك امرأة تبكي على زوجها لغير ما أعلمتك . قال

وركب الرشيد حماراً مصرباً وطاف على جواربه ، فقالت له واحدة : يا مولاي ما أكثر ما تركب هذا الحمار ، قال : لانه يسب طيفور ، قالت : فمن يسب طيفور يركب ، قال : نعم قالت ففي حرام طيفور ، قال : فنزل ووقعها وأنشد في مثله :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا حِينَ مَرَّتْ كَأَنَّهَا عَلَى ظَهْرِ عَادِيٍّ فَتَاةٌ مِنَ الْجِنِّ
وَلِي نَظَرٌ لَوْ كَانَ يُجْبِلُ نَاطِرٌ بِنَظَرَتِهِ أَنْتَى لَقَدْ حَبَلْتُ مَنْسِي

ضده في مساوي العنين

قال بعضهم : تزوج العجاج امرأة يقال لها : الدهناء بنت مسجل فلم يقدر عليها ، فشكت ذلك الى أهلها فسأله فراقها فأبى وقال لايبها : تطلب لابنتك الباه ، قال : نعم عسى أن تزق ولداً ، فان مات كان فرطاً وان عاش كان قرة عين فقدموه الى السلطان فاجله شهراً ثم قال :

قَدْ ظَنَّتِ الدَّهْنَاءُ وَظَنَ مِسْجَلٌ أَنَّ الأَمِيرَ بِالقَضَاءِ يُعْجِلُ
عَنْ كَسَلَاتِي وَالْحِصَانُ يَكْسَلُ عَنِ السَّفَادِ وَهُوَ طَرَفٌ هَيْكَلُ

ثم أقبل على امرأته فضها الى صدره فقالت :

تَنَحَّ لَنْ تَمْلِكَنِي بَضْمٌ وَلَا بِتَقْبِيلٍ وَلَا بِشَمِّ
إِلَّا بَزْعَاعٍ يُسَلِّي هَمِّي يَسْقُطُ مِنْهُ فَتَخِي فِي كَمِّي

يَطِيرُ مِنْهُ حَزَنِي وَغَمِّي

ابن ابى الدنيا أن أعرابياً أخبره أن امرأة منهم زفت الى رجل فعجز

عنها فتذاكر الحي امر الضعفاء من الأزواج عن الباه وامرأة الاعرابي تسمع فتكلمت بكلام ليس في الارض أعف منه ، ولا أدل على عجز الرجل عن النساء فقالت متمثلة :

تَبَيْتُ الْمَطَايَا حَائِدَاتٍ عَنِ الْهُدَى

إِذَا مَا الْمَطَايَا لَمْ تُجِدْ مَنْ يُقِيمُهَا

الرقاشي قال : حدثني أبو عبيدة قال : سمعت ناساً من الحجاز يقولون : تزوج رجل منا امرأة فعجز عنها الا أنه اذا لامها ابتأر فيها فقضي ان حملت ، وما مكثت الا ان رأس ولدها ، فجلس في المجلس فقال له قائل : لقد جئت من بلل قليل ، قال : جئت من بلل لو أصاب مفيض أمك لكان كما قال الشاعر :

رَطَبُ الطَّبَاعِ إِذَا حَرَكْتَ جَوْهَرَهُ وَجَدْتَ أَعْضَاءَهُ غَرَقَى مِنَ الْبَلَلِ
وَلَمْ أَهْجِنُهُ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ قَلَّتْ سَلَامَتُهُ مِنْ جَانِبِ الْكَفَلِ

الملاي قال : رأيت وافر بن عصام يسأير المهدي ، فحدثه بحديث فضحك ، فقلت له : حدثني ما حدثت به المهدي قال سألتني ما عندك للنساء ؟ فقلت : ما لمن عندي الا حديث ابن حرم ، قال : وما حديثه ؟ قلت : عمر حتى بلغ الثمانين ، فتزوج ابنة عم له ، فلما أهديت اليه فقد بين شقيها ، فاكسل وأراق على بطنها ، فأقبل عليها كالمعتذر ، فقال : هذا خير من الزناه ، قالت : كل ذلك لا خير فيه . قال : وشكت امرأة زوجها ، وأخبرت عن عجزه انه اذا سقط عليها انطبق والنساء يكرهن وقوع الرجل على صدورهن فقالت : زوجي عيايا طباقاء وكل داء له داء وقيل في ذلك :

جَزَاكَ اللهُ شَرًّا مَنْ رَفِيقٍ إِذَا بُلِّغْتَ مِنْ رَكْبِ النَّسَاءِ
رَمَاكَ اللهُ مِنْ عِرْقٍ بِأَفْعَى وَلَا عَافَاكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ
أُجِبْنَا فِي الْكَرِيهَةِ حِينَ تَلْقَى وَنَعْظًا حِينَ تَغْبُرُ فِي الْخَلَاءِ

٤٥ - محاسن النيروز والمهرجان

قال الكسروي : كان اول من ابدع النيروز ، وأسس منازل الملوك ، وشيد معالم السلطان ، واستخرج الفضة والذهب والمعدن ، واتخذ من الحديد آلات ، وذال الخيل وسائر الدواب واستخرج الدر ، وجلب المسك والعنبر وسائر الطيب ، وبني القصور ، واتخذ المصانع ، واجرى الانهار كباخسرو ابن ابرويز جهان وتفسيره حافظ الدنيا بن ارضشيد بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان الاصل فيه انه في النيروز ملك الدنيا وعمر اقاليم ايران شهر ، وهي ارض بابل ، فيكون النيروز في اول ما اجتمع ملكه واستوت اسبابه فصارت سنة ، وكان في ملكه ألف سنة وخمسين سنة ، ثم قتله البيوراسف ، وملك بعده ألف سنة الى أفريدون بن أثقيان وفيه يقول حبيب :

وَكَأَنَّهُ الضَّحَّاكُ فِي فَتَكَاتِهِ بِالْعَالَمِينَ وَأَنْتَ أَفْرِيدُونُ

فطلب البيوراسف وملك بعده ألف سنة وخمسين سنة واصره بأرض المغرب وكبله وسجنه بجبل دنهاوند ، واستوفى عدة ما كتب الله له من عمره ، واتفق لأفريدون سجن البيوراسف يوم النصف من مهرماه ومهرروز فسمى ذلك اليوم المهرجان ، فالنيروز لجم والمهرجان لأفريدون ، والنيروز أقدم من المهرجان بألفي وخمسين سنة ، وقسم جم ايام الشهر ، وجعل الخمسة

الأيام الأولى للأشرف وبعدها خمسة أيام نيروز الملك يجب فيها ويصل ،
ثم بعدها خمسة أيام لخدم الملك ، وخمسة أيام لخوادم الملك ، وخمسة
لجنده ، وبعدها خمسة أيام للرعاع فذلك ثلاثون يوماً ، وابتدع المهرجان
افريدون لما أسر البيوراسف روزمهر ، وكان الملك اذا لبس زينته ولزم
مجلسه في هذين اليومين أتاه رجل رضي الاسم مختبر باليمن طلق الوجه
ذلق اللسان ، فيقوم قبالة الملك ، ويقول انذن لي بالدخول فيسأله من أنت
ومن اين جئت واين تريد ومن مار بك ومع من قدمت وما الذي معك ؟
فيقول : جئت من عند اليمين ، وأريد الاسعدين ، ومار بي كل منصور ،
واسمي خجسته اقبلت معي السنة الجديدة ، وأوردت الى الملك
بشارة وسلاماً ورسالة فيقول الملك : انذنوا له فيقول له الملك : ادخل
ويضع بين يديه كوباً من فضة قد جمع في نواحيه أرغفة قد خبزت من أنواع
الحبوب من البر والشعير والدخن والذرة والحمص والعدس والارز والسهم والباقي
واللوبيا ، وجمع من كل صنف من هذه الحبوب سبع حبات فجعل في جوانب الخوان
ووضع في وسطه سبعة من قضبان الشجر التي يتفاهل بها وباسمها ويتبرك بالنظر اليها
كالخلاف والزيتون والسفرجل والرمان ، منها ما يقطع على عقدة ، ومنها على عقدتين
ومنها على ثلاثة ، ويجعل كل قضيب باسم كورة من الكور ، ويكتب في مواضع
ابزود وازاند وبرزون وبروار وفراخي وفراهيه تاويله . زاد ويزيد وزيادة
ورزق وفرح وسعة - وبوضع سبع سكرجات بيض ودراهم بيض من ضرب سنته
ودينار جديد وضفت من أسبند ، ويتناول ذلك كله ، ويدعو له بالخلود
ودوام الملك والسعادة والعز ، ولا يؤامر يومه في شيء اشفاقاً ممن أن
يبدو منه ما يكره فجرى على سنته ، وكان اول ما يقدم اليه صينية ذهب أو
فضة عليها سكر أبيض وجوز هندي مقشر رطب وجامات فضة أو ذهب ،
ويبتدىء باللبن الحليب الطري منه قد أنقع فيه تمر طري ، فيتناول
بالتارجيل تمرات ويتحف من أحب منه ويدوق ما أحب من الحلوى ، وكان
يرفع في كل يوم من أيام النيروز باز أبيض ، وكان ممن يتيمن بابتدائه

في هذا اليوم لقمة من اللبن الصرف الطري والجن الطري ، وكان جميع ملوك فارس يتبركون بذلك وكان يسرق له في كل يوم نيروز ماء في جرة من حديد أو فضة ويقول : استرق هذا الاسعدين ويتحمل الايمنين ، وجعل في عنق الجرة قلادة من يواقيت خضر منظمة في ملك الذهب بمدود فيها خرز من زبرجد أخضر ، ولم يكن يسرق ذلك الماء الا الابكار من أسافل دارات الارحاء وصنائع الغنى ، فكان متى اجتمع النيروز في يوم السبت أمر الملك لرأس الجالوت بأربعة آلاف درهم ، ولم يعرف له سبب أكثر من ان السنة جرت منهم بذلك فصارت كالجزية ، فكان يبني قبل النيروز بخمسة وعشرين يوماً بي صحن دار الملك اثنتا عشرة اصطوانة من لبن ، تزرع اصطوانة منها برأ ، واصطوانة شعيراً ، وأخرى أرزاً ، وأخرى عدساً ، وأخرى باقلى ، وأخرى دخنا ، وأخرى ذرة ، وأخرى لوبيا ، وأخرى حمصاً ، وأخرى مسمماً ، وأخرى ماشاً ، ولم يكن يحصد ذلك الا بغناء وترنم وهو ، وكان يوم السادس من يوم النيروز ، واذا حصد بثر في المجلس ، ولم يكسر الى روز مهر من ماه فرور دين ، وانما كانوا يزرعون هذه الحبوب للتفاؤل بها ، ويقال : أجودها نباتاً وأشدّها استواء دليل على جودة نبات ما زرع منها في تلك السنة ، فكان الملك يتبرك بالنظر الى نبات الشعير خاصة وكان مؤدب الرماة يناول الملك يوم النيروز قوساً وخمس نشابات ، ويناول الملك قيمه على دار الملكة أترجه ، فكان فيما يعني بين يدي الملك ، غناء المحاطبة ، وأغاني الربيع ، وأغاني يذكر فيها انباء الجبابرة وتوصف الانواء ، وأغاني أفارين ، والخسرواني ، والمآذراستاني ، والفهلبد وكان أكثر ما يعني العجم الفهلبد مع أيام كسرى أبرويز ، وكان من أهل مرو ، وكان من أغانيه مديح الملك وذكر أيامه ومجالسه وفتوحه ، وذلك بمنزلة الشعر في كلام العرب يصوغ له الالحان ، ولا يمضي يوم الا وله فيه شعر جديد وضرب بديع ، وكان يذكر الاغاني التي يستعطف بها الملك ويستميجه لمرآزبه وقواده ويستشفع لمذنب . وان حدثت حادثة

أو ورد خبر كرهوا انهاء اليه قال فيه شعراً وصاغ له لحناً كما كان فعل حين نفق مر كوبه شبديز ولم يجسروا على انهاء ذلك فغنى بها وذكر أنه ممدود في آرتيه ماد قوائمه لا يعتلف ولا يتحرك فقال الملك : هذا قد نفق اذاً قال : أنت قلت ذلك أيها الملك وكان يضطر بأشعاره أن يتكلم بالذي يكره عما له أنت يستقبلوه به .

(العلة في صب الماء) ذكروا أن العلة في صب الماء : أنه كان أول من تكلم في المهد قبل المسيح زوين طهاسب ، وكان مات أبوه على قحط شديد قد شمل الاقاليم ، فتكلم ودعا الله تبارك وتعالى ، فسقي الناس الغيث ، وأخصبت أرضهم ، وعاشت مواشيهم ، فجعلوا صب الماء فيه سنة . وقد حكى أيضاً عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين صلوات الله عليه أنه قال في ذلك : ان نساء من بني اسرائيل أصابهم الطاعون فخرجوا من مدينتهم هارين الى أرض العراق ، فبلغ كسرى خبرهم فأمر أن يبني لهم حظيرة يجعلون فيها لترجع أنفسهم اليهم ، فلما صاروا في الحظيرة ماتوا وكانوا أربعة آلاف نفس ، ثم ان الله تبارك وتعالى أوحى الى نبي ذلك الزمان : ان رأيت محاربه بلاد كذا فجارهم ببني فلان فقال : يارب كيف احاربهم بهم وقد ماتوا : فأوحى الله اليه : اني احبيهم لاجرب بهم وتظفر بعدوك ، فأمر الله عز وجل ليلة صب الماء فأصبحوا أحياء فهم الذين قال الله تعالى فيهم «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» قال : هؤلاء قوم أصابهم حجة من الازال فحطوا زماناً فهزلوا وأجدب بلادهم فغيثوا في هذا اليوم برشة من مطر فعاثوا وأخصبت بلادهم فجعله الفرس سنة .

(صفة الايام) قال كسرى : يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للهو والشرب ، وقال غيره : يوم السبت يوم مكر وخديعة ، والاحد يوم غرس وبناء ، ويوم الاثنين يوم سفر وطاب رزق ، والثلاثاء يوم حجارة ، والاربعاء يوم ضحك ونحس ، والخميس يوم الحج ، والجمعة

يوم مسجد ونساء وكساء .

(في البرد) سئل بعض الحكماء عن البرد آية أشد . فقال : اذا أصبحت السماء نقية ، والارض ندية ، والريح شامية .

٤٦ - محاسن الهدايا

قال : وكتب الناس في الهدايا فأكثرُوا من الكلام المنشور والشعر الموزون وكل يكتب ويقول بمقدار عقله وعلمه حتى قالوا : انها قرابة وصلة كالرحم الماسة والقرابة القريبة وكلحمة النسب ، وأكثرُوا من الشفيع لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تمادوا وتحابوا) ، وقيل : الهدية تفتح الباب المصمت ، وتسمل سخيمة القلب . وروى عن عائشة أنها قالت : اللطفة عطفة وتزرع في القلوب المحبة . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها . وقال عليه الصلاة والسلام (لو أهدى إلى ذراع لقبلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت) . وقال عليه الصلاة والسلام (الهدية رزق من الله عز وجل فمن أهدى إليه شيء فليقبله) وقال صلى الله عليه وسلم (نعم الشيء الهدية أمام الحاجة ما أرضي الغضبان ولا أستعطف ولا أستميل الهاجر ولا توقي المحذور بمثل الهدية والبر) وقال الله عز وجل « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمَدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ » وروى أن عاملاً لعلي رضي الله عنه قدم من بعض الاطراف فأهدى إلى الحسن والحسين سلام الله عليها ولم يهد إلى ابن الحنفية فقال متمثلاً :

وَمَا شَرُّ النَّلَائِثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبِحِينَا

فأهدى العامل إليه كما أهدى إلى اخويه . وروى عن أمير المؤمنين علي

عليه السلام أن قوماً من الدهاقين أهدوا إليه جامات فضة فيها الاخصة فقال : ما هذا ؟ قالوا : يوم نيروز ، فقال : نيروزنا كل يوم فأكل الخبيص ، وأطعم جلساءه ، وقسم الجامات بين المسلمين ، وحسبها لهم في خراجهم . وقيل : إن جلساء المهدي إليه شركاؤه في الهدية ، والهدية تجلب المودة وتزورح المحبة ، وتنفي الضغينة ، وتركها يورث الوحشة ويدعو إلى القطيعة ، والهدية تصير البعيد قريباً ، والعدو صديقاً ؛ والبغيض ولياً . والثقل خفيفاً . والمبد حراً ، والحر عبداً ، وفيها قول الشاعر .

مَا مِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ أَبَدَى مَوَدَّتَهُ يَوْمًا بَأْ نَجَحَ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِ
إِذَا تَقَنَّعَ بِالْمُنْدِيلِ مُنْطَلِقًا لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوَّابٍ وَلَا فَلَاقِ
لَا تُكْثِرَنَّ فَإِنَّ النَّاسَ مُذْخِلِقُوا لِرَغْبَةِ كُلِّ مَا يُعْطُونَ أَوْ فَرَقِ

وقال آخر :

إِذَا أَرَدْتَ قَضَاءَ الْعَاجِ مِنْ أَحَدٍ قَدَّمَ لِنَجْوَاكَ مَا أُحْبِبْتَ مِنْ سَبَبِ
إِنَّ الْهَدَايَا لَهَا حَظٌّ إِذَا وَرَدَتْ

أَحْظَى مِنَ الْإِبْنِ عِنْدَ الْوَالِدِ الْحَدِيبِ

وقد قيل : كل يهدي على قدره . وذكروا أن سليمان بن داود عليها السلام بينما هو يسير بالريح إذ أتى على عش قنبرة . فيها فراخ لها فأمر الريح فهدات عن العش ، فلما نزل وافق يومه ذلك النيروز ، فجاءت تلك القنبرة حتى رفرفت على رأس سليمان وألقت في حجره جرادة فقيل له في ذلك فقال : كل يهدي على قدره : وكان بما تهديه ملوك الامم إلى ملوك فارس طرائف ما في بلادهم ، فمن الهند الفيلة والسيوف والمسك والجلود ، ومن تبت والصين المسك والحريو والسك والاولاني ، ومن السنك الطواويس

والبيغا ومن الروم الديباج والبسط ، وكان القواد والمرازبة والاساورة يهدون النشاب والاعمدة المصمتة من الذهب والفضة ، والوزراء والكتاب والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجواهر وجامات الفضة الملوحة بالذهب ، والعظماء والاشراف البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود والسروج وآلاتها ، وربما أهدي الرجل الشريف سوطاً فقبله ، وكانت الحكماء يهدون الحكمة ، والشعراء الشعر ، واصحاب الجوهر الجواهر ، واصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهري النادر والحمار المصري والبغال المهاليج ، والظرفاء قرب الحرير الصيني مملوءة ماورد ، والمقاتلة القسي والرماح والنشاب ، والصياقلة والزرادون نصول السيوف والدروع والجواشن والبيض والاسنة ، وكانت نسوة الملك تمدي إحداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائقة والاخري الدرّة النفيسة والجوهرة المشتمة وفص خاتم وما لطف وخف ، واصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والوشي والديباج وغير ذلك ، والصيافة نقر الذهب والفضة وجامات الفضة مملوءة دنانير ، وأوساط الناس دنانير ودرهم من ضرب سنتهم مودعة أترجة أو سفرجلة أو قفاحة ، والكتاب واقف يكتب كل مهد وجائزة كل من يجيزه الملك على هديته ليودع ذلك ديوان النيروز .

ومن الهدايا التي لم يسمع السامعون بمثها هدية ابرويز إلى ملك الروم بعقب محاربة بهرام جوبين وقد شارف الروم ، فأنفذ رسولا يستنجده وبعث اليه مائة غلام من ابناء الأتراك مختارين في صورهم ونفوسهم في آذانهم أقراطة الذهب معلق فيها حب الدر على مراكب بسروج الذهب منظمة باليواقيت والزمرد ، وبعث معه بمائة من عنبر فتحها ثلاثة أذرع مكالة المستدار بالدر لها ثلاث قوائم من ذهب : احداها ساعد أسد مع كفه ، والاخري ساق وعل مع ظلفه ، والثالثة كف عقاب في كف الاسد ياقوتة خضراء ، وبين ظلفي الوعل ياقوتة حمراء ، وفي كف العقاب قبيجة من اللازورد عيناها ياقوتتان حمراوان تتوقدان حمرة ، وفي وسط

المائدة جام من جزع ياني فاخر فتحه شبر في شبر ، ملوء يواقيت حمرا وسفط ذهب فيه مائة درة كل درة مثقال ومائة لؤلؤة كل لؤلؤة مثقال ومائة خاتم من ذهب مرصع بالجواهر مشبك الاعلى حشوه مسك وعنبر ، ووصل رسل أبرويز الى ملك الروم بهذه الهدية فأجده وأرسل اليه عشرين ألف فارس بالسلاح الشاك ، وبعث اليه بألفي ألف دينار لارزاق جنده وألف ثوب منسوج وعشرين جارية من بنات ماوك الصقلة بأقيمية الديباج المطير في آذانهم أقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت وعلى رؤسهن أكلمة الجواهر ، وأنفذ اليه عشرين مركباً على كل مركب صليب تحت كل صليب ألف فارس وألف برذون وألف شهري وألف بغلة وألف نجيب بسروج مذهبة وأكف مذهبة ولجم من ذهب مصبوب وبرادع مذهبة وجلال وبرافع ديباج منسوج بالذهب واللؤلؤ وأوقر البغال من السندس والاستبرق والذهب واللؤلؤ ، وبعث اليه مساحة جريب أرض من ذهب فيه نخيل من ذهب سعفة الزمرد وطلعه اللؤلؤ وشماريخه الياقوت الاحمر وكربه الجزع ، وبعث اليه ألف ألف لؤلؤة كل لؤلؤة ألف دينار ، وبعث اليه ألف ألف درهم مثاقيله ألف ألف دينار خسرواني وأنى به وأعتذر اليه من التقصير ، فقابله ملك الروم عامه المتبل يوم النيروز بفارس من ذهب على شهر من فضة عينا الشهري جزع أبيض محقق بسواد وذصيته وعرفه وذنبه شعر اسود بيد الفارس صولجان من ذهب والى جانبه ميدان من فضة في وسط الميدان كرة عقيق احمر يحمل الميدان ثوران من فضة والشهري يبول الماء فاذا بال انخط الصولجان على الكرة فمر بها الى أقصى الميدان فتحرك بجركاتها الثوران والميدان ويركض الفارس على عجل تحت حوافر الشهري . فاما أهل الاسلام فلم يسمع بثل هدية حسان النبطي الى هشام بن عبد الملك ، فانه أهدي اليه وإلى أمهات أولاده هدايا كثيرة من الكساء والطر والجواهر وغيرها فاستكثرها هشام وقال : بيت المال أحق بهذا ، ثم أمر فنودي عليها فبلغت مائة ألف دينار ، فبعث حسان اثنانها وقال :

يا أمير المؤمنين قد طابت الآن هذه مائة ألف دينار تحمل الى بيت المال،
فأقبل هديتي فقبها ونادى على مناديه حسان سيد موالي أمير المؤمنين قد
طابت الآن هذه واستلم المأمون من أبي سلمة ذكر هدية لطيفة قال :
أهدي الى أمير المؤمنين خواناً من جزع ميلاً في ميل فقال المأمون :
أو قبضت الهدية ؟ قيل : نعم قال : أفهي في داري أم داري فيها ؟ قال :
بل هي في مندبل فدعي بهديته فاذا خوان من جزع عليه ميل من ذهب
قد صنع من مائة مثقال بطول الخوان وعرضه فاستلمه وقبله . واهدت
اسماء بنت داود الى اسماء بنت المنصور مائة مرقن من فضة فيها انواع
اللخايع والريحان الطيب ، ومائة جفنة مطيبة ، وانواع من الأطعمة
والاشربة ، وعشراً من الوصائف في قد واحد فقومت هديتها فبلغت خمسين
ألف دينار . وبعث الحسن بن وهب الى المتوكل بجام من ذهب فيه ألف
مثقال من العنبر وكتب اليه :

يَا إِمَامَ الْهُدَى سَعِدْتَ مِنَ الدَّهْرِ بِرُكْنٍ مِنَ الْإِلَهِ عَزِيزٍ
وَبِظِلِّ مِنَ النِّعَمِ مَدِيدٍ وَبِحِرْزٍ مِنَ اللَّيَالِي حَرِيذٍ
لَا تَزُلُ أَلْفَ حِجَّةٍ مِهْرَجَانٍ أَنْتَ نُفُضِي بِهِ إِلَى النَّيْرُوزِ
وَنِعِيمَ الَّذِي مِنْ نَظَرِ الْمَعشُوقِ مِنْ بَعْدِ نَبْوَةٍ وَنُشُوزِ

قال خالد المهلبى : أهديت الى المتوكل في يوم نيروز ثوب وشي منسرج
بالذهب ومشممة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب ودرعا مضاعفة
وخشبة نخور نحو القامة وثوباً بغدادياً يقطع ثوباً فأعجبه حسنه ثم دعا به
فلبسه ، وقال : يا مهلبى انما لبسته لأسرك به فقلت : يا أمير المؤمنين لو
كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوة منك فكيف وأنت سيد الناس ،
وأحسن من جميع ما تقدم ذكره قول عبدالله العباسي والى الحرمين فانه
قال : هذا يوم يهدى فيه الى السادة والعظماء ، والواجب أن أهدي إلى

سيدي الأكبر ، ثم دعا بعشرة آلاف دينار فقسمها على أهل الحرمين ، فكانت فكرته في هذا أحسن من فعله .

(اللطيف في الهدايا) كتب سعيد بن حميد إلى بعضهم : النفس لك والمال منك غير أنني كرهت أن أخلي هذا اليوم من سنة فأكون ممن المقهرين ، أو أدعي أن في ملكي ما يعني بحقك فأكون ممن الكاذبين . وقد وجهت إليك بالسفرجل جلالته ، والسكر لحلاوته ، والدرهم لتفاقه ، والدينار لعزاه ، فلا زلت جليلاً في العيون ، هيباً في القلوب ، حلواً لآخوانك كحلاوة السكر ، عزيزاً عند الملوك ، لا تحسن أفئنتهم إلا بك ، ولا زلت نافقاً كنفاق الدرهم . وأهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي وكتب إليه : الامراء أعزك الله تسهل سبيل الملاطفة في البر ، فأهديت هدية من لا يحتشم إلى من لا يفتن مالا ، فلا أكثره تبهجاً ولا أقله ترفعاً .

(هدايا النيروز) قال : كتب الحسن بن وهب إلى المتوكل في يوم نيروز بهذه الرقعة : أسعدك الله يا أمير المؤمنين بكر الدهور ، ونكامل السرور ، وبارك لك في أقبال الزمان ، وبسط بين خلافتك الآمال ، وخصك بالمزيد ، وأبهجك ، بكل عيد ، وشد بك أزر التوحيد ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الحريف المغدق ، وقرب لك التمتع بالمهرجان والنيروز ، نداوم بهجة ايلول ونموز ، وبمواقع تمكن لا يجاوزه الأمل ، وغبطة اليها نهاية ضارب المثل ، وعمر ببلاتك الاملاء . وفسح لك في القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسربلك العافية ، ورداك السلامة ، ودرعك العز والكرامة ، وجعل الشهور لك بالاقبال متصدية . والأزمة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقاً وتدنفد نحوك طرباً وشوقاً ، وكتب في آخره :

فدَاكَ الزَّمانُ وأهلُ الزَّمانِ إِمَامَ الهُدَى بك مُستبشِرِينَا

قَدْ أَقْوَا إِلَيْكَ مَقَالِدَهُمْ
 وَلَا زِلْتَ زِينًا لِأَعْيَادِنَا
 يَعِزُّ بِدَوْلَتِكَ الصَّالِحُونَ
 فَيَا رَبِّ مُشْكِلَةٍ أُبْرَقَتْ
 بِصِدْقِ عَزِيمَةٍ مُسْتَبْصِرٍ
 وَسُمَّتِ النَّصَارَى بِشَيْطَانِهَا
 وَكَمْ فِعْمَاءَ لَكَ فِي الْمُشْرِكِينَ
 وَكُتِبَ آخِرُ :

الْمِهْرَجَانُ لَنَا يَوْمٌ نُسَرُّ بِهِ
 وَأَنْتَ فِيهِ لَنَا بَدْرٌ يُضِي كَمَا
 وَكُتِبَ آخِرُ :

عِيدٌ جَدِيدٌ وَأَنْتَ جَدُّهُ
 لَا زَالَ طَوْلُ الزَّمَانِ يَرْجِعُهُ
 يَا مَنْ بِهِ لِلزَّمَانِ تَجْدِيدُ
 وَظِلُّ مُلْكٍ عَلَيْكَ مَمْدُودُ

وقيل للمازني : أي هؤلاء أظرف في شعره الذي يقول :

بُعِلْتُ فِدَاكَ لِلنَّيْرُوزِ حَقٌّ
 وَلَوْ أَهْدَيْتُ فِيهِ جَمِيعَ مَالِكِي
 فَأَهْدَيْتُ الثَّنَاءَ بِنَظْمِ شِعْرِي
 فَأَنْتَ عَلِيٌّ أَعْظَمُ مِنْهُ حَقًّا
 لَكَانَ جَلِيلُهُ لَكَ مُسْتَدَقًّا
 وَكُنْتَ لِذَلِكَ مِنِّي مُسْتَحَقًّا

أم الذي يقول :

دَخَلْتُ السُّوقَ أَتْبَاعُ وَأَسْتَطْرِفُ مَا أَهْدِي
فَمَا اسْتَطَرَفْتُ لِلْأَهْدَا إِلَّا طُرْفَ الْحَمْدِ
إِذَا نَحْنُ مَدَخْنَاكَ رَعَيْنَا حُرْمَةَ الْمَجْدِ

أم الذي يقول :

وَكَمْ مِنْ مُرْسِلٍ لَكَ قَدْ أَتَانِي بِمَا يُهْدِي الْخَلِيلَ إِلَى الْخَلِيلِ
فَأُظْهِرْتُ السُّرُورَ وَقُلْتُ أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْهَدِيَّةِ وَالرَّسُولِ

فقال : أشعرهم جميعهم ، وأظرفهم الذي يقول :

فَوَاللَّهِ لَا أَنْفَكَ أَهْدِي شِوَارِدًا إِلَيْكَ يُجَمِّلُنَ الثَّنَاءَ الْمُبْجَلَا
أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى وَأَطْيَبَ نَفْحَةً مِنْ الْمِسْكِ مَفْتُونًا وَأَيْسَرَ مَحْمَلَا

وبعث سعيد بن حميد الى أحمد بن أبي طاهر قارورة ما ورد وكتب اليه

وَزَائِرَةٌ حُورِيَّةٌ فَارِسِيَّةٌ كَنَشْرٍ حَبِيبٍ حَادٍ يَوْمًا عَنِ الصَّدِّ
تَرُدُّ رَيْبًا فِي مَصِيفٍ بِنَفْحَةٍ إِذَا فَقَدَتْ وَرَدًا تَنُوبُ عَنِ الْوَرْدِ
حَكَى نُشْرَهَا مِنْهُ خَلَائِقَ نُشْرِهِ

كَنَشْرٍ نَسِيمِ الرُّوضِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
وَشَبَّهَتْهَا فِي صَفْوِهَا بِصَفَائِهِ

لِإِخْوَانِهِ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ وَفِي الْبُعْدِ

وَأَهْدَتْ لَنَا مِنْهُ النَّسِيمَ نَسِيمَةً

وَإِنْ كَانَ إِذَا حَالَتْ يَدُومُ عَلَى عَهْدِ

وعن اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : دار كلام بين الامين وبين ابراهيم بن المهدي قال : فوجد عليه الامين هجره ، فوجه اليه ابراهيم بوصيفة مغنية مع عبد هندي ، فأبى الامين أن يقبلها فكتب اليه :

هَتَكَتِ الضَّمِيرَ بَرْدُ اللَّطْفِ وَكَشَفْتَ هَجْرَكَ لِي فَأَنْكَشَفُ

فَإِنْ كُنْتُ تَحْقِدُ شَيْئًا مَضَى فَهَبْ لِلْخِلَافَةِ مَا قَدْ سَلَفُ

وَجُدْ لِي بِعَفْوِكَ عَنْ زَاتِي فَبِالْفَضْلِ تَأْخُذُ أَهْلَ الشَّرَفِ

فرضى عنه ودعاه للنادمة .

(هدايا الفصد) قال ابن حمدون النديم : افتصد المأمون ، فأهدى اليه ابراهيم بن المهدي جارية معها عود ورقعة فيها :

عَفْوَتَ وَكَانَ الْعَفْوُ مِنْكَ سَجِيَّةً

كَمَا كَانَ مَعْقُوداً بِمَفْرَقِكَ الْمُلْكُ

فَإِنَّ أَنْتَ أَتَمَّتَ الرَّضَى فَهُوَ الْمُنَى

وَإِنْ أَنْتَ جَاذِبَتِ الْمُسِيءَ فَذَا الْهَلْكُ

فقال المأمون : خرف الشيخ يوم مثل هذا يذكر الثواب والآخرة فلم يقبل الوصيفة واغتم ابراهيم وكتب اليه مع الوصيفة :

لَا وَالَّذِي تَسْجُدُ الْجِبَاهُ لَهُ مَا لِي بِمَادُونَ تَوْبِهَا خَبْرُ

وَلَا فِيهَا وَلَا هَمَّتْ بِهَا مَا كَانَ إِلَّا الْحَدِيثُ وَالنَّظْرُ

فقال المأمون : نعم الآن أقبلها فقبلها . قال أبو القاسم بن أبي داود : كنت عند أحمد بن محمد العلوي وقد اقتصد ، فخرج بعض الخدم ومعه طبق من فضة عليه تفاح طيب مكتوب حواليه بالذهب :

سُرَّ الْغَدَاةَ بِوَجْهِكَ اللَّذْبُ وَجَرَى يَمْنَنٍ فَصَادِكَ الطَّرْبُ

وَتَنَاوَلَتْ رَاحَتَهَا الشُّخْبُ وَتَدَاعَتْ الْعِيدَانُ فِي زَجَلٍ

فَاشْرَبَ بِهَذَا الْجَامِ يَا مَلِكِي شُرْبًا حَتِينًا إِنَّهُ عَجَبُ

وَأَجْمَلٌ لَمَنْ قَدْ خَفَّ فِي لَطْفٍ مِنْ زَوْزَةٍ يُخْشَى وَيُدَّ تَقَبُ

فقال للخادم : اخرجها إلى الستارة ، فخرجت وخلا ليلته بها . وقيل : اقتصد المعتم ومهدت إليه شمائل صينية عقيق عليها قدح أسبل عليها مندبل مطيب مكتوب عليه بالعنبر في كل ربع منه بيت شعر :

خَضَبَ الْخَلِيفَةُ كَفَّهُ مِنْ فَصْدِهِ بَدَمٌ يُعَاكِ عَبْرَةَ الْمُشْتَاكِ

تَاهَ الْفِصَادُ فَمَا يُقَامُ لَتَيْهِهِ إِذْ صَارَ مُفْتَصِدًا أَبُو إِسْحَاقِ

وَتَوَافَتِ الْعِيدَانُ عِنْدَ حُضُورِهِ قَبَّ الْبُطُونُ ذَوَابِلُ الْأَعْنَاقِ

مَلِكٌ إِذَا خَطَرَ الشَّرَابُ بِيَالِهِ لَبَسَ الشَّرُورُ غَلَائِلَ الْإِشْرَاقِ

فلما قرأه أمر بإحضار اسحاق بن ابراهيم الموصلية ، وأمره أن يجعل له لحنا ، وأمر مسروراً بإخراجها من وراء الستارة ، ثم لم يزل اسحاق يردد هذه الأبيات حتى أحكمتها شمائل وغنت ، فكان سفظ الدر يتناثر من فيها ، وأمر لاسحاق بمال ، وللبجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار . المبرد قال : أهدى اليزيدي إلى الرشيد يوم فصد جام بلور

وشمامات غالية ، وكتب اليه : يا أمير المؤمنين تفاعلت في الشرب في
الجام بجمام النفس ، ودوام الانس ، والغالية للفلو في السرور ، ولازدياد
من الخير والحبور وقلت :

ذمُّ الفَصْدِ مِنْ يَدِكَ الْعَالِيَةِ	يُدَاعِي لِحْسَمِكَ بِالْعَافِيَةِ
كَسَا الدَّهْرُ ثَوْبًا مِنَ الْأَرْجُوَانِ	بَدِيعِ الطَّرَازِينِ وَالْحَاشِيَةِ
وَعَصْفَرِ صَفْحَةٍ وَجْهَ الرَّيِّعِ	بَصَّبَعٍ مِنْ أَسْرَارِهِ الْجَارِيَةِ
فَمِنْ رَوْضَةٍ نَشَرَتْ وَشِيهَا	وَزَهْرَةَ رَوْضٍ غَدَّتْ زَاهِيَةِ
إِمَامٌ أَسَالَ دَمَ الْمُكْرَمَاتِ	فَشَجَّجَ أَقْتَالَهَا الْحَامِيَةِ
فَلَا زَالَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ	وَدَامَتْ لَهُ النُّعْمَةُ الْكَافِيَةِ

قال اليزيدي : اقتصد المأمون فأهدت اليه رباح أترجة عنبر عليه
مكتوب بماء الذهب :

تَعَالَجَ مِنْ هَوَيْتَ بِفَصْدِ عِرْقٍ	فَأَضْحَى السُّقْمُ فِي خَلَعِ الْخُضُوعِ
وَجَاءَتْ تُخَفُّهُ الْأَحْبَابُ تَسْعَى	بَوْرْدٍ فَائِضٍ فَيُضِ الدُّمُوعِ

فقال المأمون لليزيدي : وبجك ما تقول فيمن كتب هذين البيتين ؟
قال : يكافأ بالدنيا وما استدق منها ، فأمر لها بمال كثير ووصلني ببعضه.
قال : واقتصد عبدالله بن طاهر فأهدى له أبو دلف جميع ما أصاب في
السوق من الورد وكتب اليه :

تَضَاحَكَ الْوَرْدُ فِي وَجْهِهِ فَقُلْتُ لَهُ	لِمَ ذَا فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُفْتَصِّدُ
فَقُمْتُ أَطْلُبُ مَا أَهْدِيهِ مِنْ طُرْفٍ	لِلْفَصْدِ فِي السُّوقِ حَتَّى خَانِي الْجَلْدُ

يَوْمُ الْفِصَادِ لَهُ أُزْرٌ مُطَيَّبَةٌ مَحْجُوبَةٌ لَا يَرَاهَا الْجَرْدُ وَالزَّرْدُ
فَأَشْرَبَ عَلَى الْوَرْدِ مَسْرُورًا بَطَلَعَتِهِ يَابْنَ الْكِرَامِ فَأَنْتَ السَّيِّدُ النَّجْدُ

قال عمرو بن بانه : اعتل المنعم ، فأشار عليه بختيشوع بالفصد وأنا عنده ، فأخرجت إليه هدايا الفصد ، وكان فيها أخرج طبق صندل مكتوب عليه بجزع كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر فأمر بقراءة ما عليه فإذا هو :

فُصِدَ الْإِمَامُ إِعْلَةً فِي جِسْمِهِ فَشَفَى الْإِلَهَ الشَّقَمَ بِالْفُصْدِ
وَجَرَى إِلَى الطَّشْتِ الشَّقَامُ مُبَادِرًا وَجَرَى الشِّفَاءُ إِلَيْهِ بِالسَّعْدِ
يَا مَالِكًا مَلِكَ الْعِبَادِ بِجُودِهِ إِسْلَمَ سَلِمْتَ بِعَيْشَةٍ رَغْدِ

فقال يا عمرو : من يلومني على حب هذه الجارية ، والله ما أراها الا تزايدت في عيني ، وخلقيت أن تتجب فان لها همة ، فولدت له غلاماً وكانت آثر جواربه عنده واحظاهن لديه . وأخبرنا ابراهيم القاريء قال : كنت عند المأمون فاحتاج إلى الفصد فقال له الاطباء : البلد بارد فقال : لا بد لي منه ، فصدوه فلما كان وقت الظهر حضروا فراموا فجر العرق ، فإذا هو قد التحم ، فشدوا الرباط وفيهم متحا يدق فيما ظهر الدم ، فقال لهم المأمون عقرتموني نجاوا الرباط وعلى رأسه بختيشوع وابن ماساويه فقال : ما تقولون ؟ قالوا : ما تدري ما نقول ؟ قال : فأشاروا هناك أن جلالة الخليفة ربما أدهشت الحاذق بالصناعة والمنقذ في الرياضة ، فاعتزلوا ناحية وابطئوا عليه فقال لاسود كان على رأسه : أدن فص الجرح ، ففعل ، فنار الدم فقال : أدع هؤلاء الخاكة ، فجاءوا وشهدوا خروج الدم ، قال : أين كنتم ؟ قال ابن ماسويه : لو فعل جالينوس ما زاد عليه . قال : واقتصد أحمد بن عيسى بالري وهو أميرها فكذب اليه جعفر الشيباني :

فَصَدَّتْ بِأَرْضِ الرَّيِّ طَابَ لَكَ الْفَضْدُ

وَفَارَقَ نَجْمَ النَّخْسِ طَالِعَكَ السَّعْدُ

فَأَعْقَبَكَ الْحُسْنَى الَّتِي لَا مَدَى لَهَا وَلَا زَالَ بُرْدِكَ الْجَلَالَةُ وَالْحَمْدُ

تَوَرَّدَتْ الدُّنْيَا بِفَضْدِكَ مِثْلَ مَا

بِفَضْدِكَ يَا بْنَ الْمُصْطَفَى ضَحِكَ الْوَرْدُ

فَلَا أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مَا عِشْتَ شَانِيًا وَمِنْ كُلِّ مَا تَهْوَاهُ لَا خَانَكَ الْعَهْدُ

وفي مثله :

يَا فَاِصْدَأْ مِنْ يَدِي جَلَّتْ أَيَادِيهَا وَنَالَ مِنْهُ الَّذِي يَزْجُوهُ رَاجِيهَا

يَدُ النَّدَى هِيَ فَارٌ فَوْقَ لَا تُرِقُ دَمَهَا فَإِنَّ آمَالَ طُلَّابِ النَّدَى فِيهَا

قال : وكتب الحمدوني الى الفضل بن جعفر وقد اقتصد :

أَلَا يَا طَبِيبَ الْفَضْدِ هَلْ أَنْتَ عَالِمٌ

بِمَا صَنَعْتَ كِفَاكَ فِي كَفِّ ذِي الْمَجْدِ

أَسَلْتَ دَمًا مِنْ سَاعِدِي يَنْتَنِي بِهَا

حَيَاةَ نَدَى فَاقْصِدْ بِذَرْعِكَ فِي الْفَضْدِ

فَدَوَّيْتَ كَفًّا تَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهَا دَوَاءٌ مِنَ الْأَنْحَالِ فِي الزَّمَنِ النَّكَدِ

وَلَمَّا أَنَا الْخَبِيرُونَ بِفَضْدِهِ أَرَدْتُ بِأَنْ أَهْدِي عَلَى قَدْرِ مَا عِنْدِي

وَشَاوَرْتُ فَاسْتَصَعِبْتُ آلِي وَجِيرَاتِي فَلَمْ أَرَ أَمْرِي مِنْ تَنَاءٍ وَمِنْ حَمْدِ

وقال آخر :

تُوْنُتُقْ مِنْ تَنَائِكَ فِي الْهَدَايَا غَدَاةَ أَرَدْتَ فَصَدَّ الْبَاسِلِيْقِ
فَلَمْ أَرَ كَالدُّهَاءِ أَنْتُمْ نَفْعًا وَأَجْمَلَ فِي مَكَاْفَاءِ الصَّدِيْقِ
وَأَكْتَرْتُ الدُّهَاءِ وَقَلْتُ رَبِّي بِقِيْكَ شُرُورَ آفَاتِ الْعُرُوْقِ

وقال آخر :

عَلَى طَيْبِ أَيَّامِ التَّمَتُّعِ بِالْوَرْدِ
فَصَدَّتْ فَأَصْحَبْتَ السَّلَامَةَ فِي الْفَصْدِ
وَلَا زِلْتَ لَا زَالَتْ مِنْ اللَّهِ أَنْعَمُ عَلَيْكَ قَرِيْدَ الْعَيْنِ مُفْتَبِطَ الْحَسْدِ
أَقْدَرْتُ مِنْ جُهْدِي طُرْفَةً وَهَدِيَّةً إِلَيْكَ فَكَانَ الشُّكْرُ أَكْثَرَ مَا عِنْدِي

وقال آخر :

أَيُّهَا الْفَاصِدُ الْعَلِيلُ الصَّحِيْحُ بَأْبِي ذَلِكَ الْجِرَاحُ الْجَرِيْحُ
إِنَّ مَنْ عَلَقَ الدَّرَاعَ مِنَ النَّعْثِ بِدِإِلَى الْجَيْدِ ذَاكَ شَيْءٌ مَلِيْحُ
أَيُّهَا الْفَاصِدُ أَلْمَنَّا لَهُ الْوَرْدُ وَفِي وَجْنَتَيْهِ وَرْدٌ بِلَوْحُ

وقال آخر :

أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي فَصَدَّ الْعَرِقُ وَأَرْخَى دُونِي ذُبُولَ الشُّرُورِ
كَمْ تَعْنَيْتُ أَنْ أَكُونَ طَبِيْبًا وَمُنَى الصَّبِّ رُهَاةُ الْعُرُورِ

وقال آخر :

أَجْمِلُ جُعَمَاتُ فِدَاكَ بِالْجَانِدِ وَامْنُنْ عَلَيَّ بِأَجْمَلِ الرَّدِّ
لَوْ عَايَنْتُ عَيْنَاكَ مُضْطَرِّي وَتَفَرَّدِي بِالْمَدِّ وَالشَّدِّ
وَتَحْشِي عِنْدَ الطَّيِّبِ كَأَنَّهُ مَوْلَى يُرِيدُ عُقُوبَةَ الْعَبْدِ
كَالنَّارِ مَبْضَعُهُ يُقَلِّبُهُ وَيُدِيرُ مَقَلَّةَ حَازِمِ الْجَلْدِ
حَتَّى أَعْتَزَمْتُ عَلَى مُحَاجَزَةِ وَصَدَدْتُ عَنْهُ أَيَّامًا صَدِّ
مَا كَانَ مِنْ أَلْمٍ شَعَرْتُ بِهِ إِلَّا كَمَا وَقَعَ شَرْطَةُ الْجِلْدِ
إِذْ سَالَ مُنْبَعِنًا سَوَابِقُهُ كَالنَّارِ خَارِجَةً مِنَ الزُّنْدِ
فَسَلَّمْتُ وَالرَّحْمَنُ سَلَّمَني ذُو الْمَنِّ وَالْآلَاءِ وَالْحَمْدِ
مَا بَعْدَ طَبَاخِي لِمِفْتَخِرِ فَخَرُّ لِمَنْ قَبْلِي وَمَنْ بَعْدِي
نَصَبَ الْقُدُورَ بِنَفْسِهِ كَرَمًا لِنُصِيبِ شَهَوَاتِنَا عَلَى عَمْدِ
فَأَجَادَ صَنَعَتَهَا وَعَجَّلَهَا مِنْ غَيْرِ مَا تَعَبٍ وَلَا جَهْدِ
وَنَبَيْدُنَا صَافٍ وَمَجْلِسُنَا فِي الطَّيِّبِ يَحْكِي جَنَّةَ الْخُلْدِ
فَهَلُمَّ وَاحْضِرْ غَيْرَ مُحْتَشِمِ وَاجْعَلْ غَدَاءَكَ سَيِّدِي عِنْدِي
لَا تَجْمَعَنَّ عَلَيَّ مُحْتَسِبًا ضَعْفَ الْعَالِيلِ وَوَحْشَةَ الْفَرْدِ

٤٧ - محاسن الوصائف المغنيات

قال الأصمعي : بعث الي هرون الرشيد وهو بالرقعة فحملت اليه ؛ فأنزلتني

الفضل بن الربيع ، ثم أدخلني عليه وقت الغروب ، فاستدنانني وقال : يا عبد الملك وجهت اليك بسبب جاريتين اهديتنا الي وقد اخذنا طرفا من الادب احببت ان تبرز ما عندهما وتسير على الصواب فيهما ، ثم امر باحضارهما فحضرت جاريتان ما رأيت مثلها قط فقلت لاحداهما : ما عندك من العلم ؟ قالت : ما أمر الله في كتابه ثم ما ينظر فيه الناس من الأشعار والابخار ، فسألتهما عن حروف القرآن ، فأجابتنني كأنها تقرأ في كتاب الله ثم سألتها عن الاشعار والابخار والنحو والعروض ، فبها قصرت عن جوابي في كل فن أخذت فيه فقلت لها : فانشدينا شيئا فأنشدت :

يَا غِيَاكَ الْبِلَادِ فِي كُلِّ مَحَلٍّ مَا يُرِيدُ الْعِبَادُ إِلَّا رِضَاكَ
لَا وَمَنْ شَرَّفَ الْإِمَامَ وَأَعْلَى مَا أَطَاعَ الْإِلَهَ عَبْدٌ عَصَاكَ

فقلت : يا امير المؤمنين ما رأيت امرأة في نيك رجل مثلها ، وخبرت الأخرى فوجدتها دونها ، فأمر ان تصنع تلك الجارية لتحمل اليه في تلك الليلة ثم قال لي : يا عبد الملك انا ضجر وأحب أن تسمعني حديثا ما سمعت من أعاجيب الزمان ففرج به فقلت : يا امير المؤمنين كان لي صاحب في بدو بني فلان ، وكنت أغشاه وأتحدث معه وقد أتت عليه ست وتسعون سنة وهو أصح الناس ذهنا وأفواهم بدنا ، فغبت عنه ثم أتيت فوجدته ناحل البدن كاسف البال ، فسألته عن سبب تغيره فقال : قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها وفي عنقها طبل تنشد عليه :

مَحَاسِنُهَا سِيَاهٌ لِلْمَنَايَا مَرَّيْشَةٌ بِأَنْوَاعِ الْخُطُوبِ
تَرَى رَيْبَ الْمَنُونِ بَيْنَ سَهْمَا تُصِيبُ بِنَصَاهِ مُمْسَخِ الْقَاوِبِ

فقلت :

قَفِي شَفَتِي مِنْ مَوْضِعِ الطُّبْلِ تَرْتَمِي
 كَمَا قَدْ أُنْجَتِ الطُّبْلُ فِي جِيدِكَ الْحَسَنِ
 فَهَبِّي عَوْدًا جَوْفَهُ نَحْتَ مَتْنِهِ يَمْتَعْنِي مَا بَيْنَ مَحْرِكِ وَالذَّقَنِ

فلما سمعت شعري رمت بالطبل في وجهي ودخلت الحيمة ، فوقفتم حتى
 حبت الشمس على ، فرقي ولم تخرج ، فانصرفت قريح القلب ، فهذا التغير
 من عشقي لها ، فضحك الرشيد حتى استلقى وقال : ويلك يا عبد الملك
 ابن ست وتعين بعشق ! فقلت : قد كان هذا ، فقال : يا عباس اعط
 عبد الملك مائة ألف درهم ورده الى مدينة السلام ، فانصرفت ثم أتاني خادم
 فقال : أنا رسول ابنتك - يعني الجارية - تقول لك : ان امير المؤمنين
 قد امر لها بئال وهذا نصيبك ، فدفعت الي ألف دينار ولم تزل تواصلني
 بلبر الواصل حتى كانت فتنة محمد وانقطع خبرها وأمر الفضل لي بعشرة
 آلاف درهم . علي بن الجهم لما أفضت الخلافة الى المتوكل أهدى اليه
 الناس على أقدارهم ، فأهدى اليه ابن طاهر جارية أديبة تسمى قبيجة تقول
 الشعر وتلعبه ، ونحسب من كل علم أحسنه ، فحلت من قلب المتوكل محلا
 جليلا ، فدخلت يوماً للنادمة ، وخرج المتوكل وهو يضحك وقال : يا علي
 دخلت فرأيت قبيجة كتبت على خدها بالمسك جعفر فما رأيت أحسن منه
 فقل فيه شيئا ، فسبقتني محبوبة وأخذت عودها ففقت :

وَكَاثِبَةٌ بِالْمِسْكِ فِي أَخْدٍ جَعْفَرًا بِنَفْسِي خَطُّ الْمِسْكِ مِنْ حَيْثُ أُثْرَا

لَئِنْ أُوذِعْتَ سَطْرًا مِنَ الْمِسْكِ حَدَّهَا

لَقَدْ أُوذِعْتُ قَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ أُسْطْرًا

فيا مَنْ لَمَمْلوكٍ يَظَلُّ مَليكَهُ مُطِيعاً له فيما أُسرَّ وأَجْهَرا
ويا مَنْ لِعَيني مَنْ رَأى مِثْلَ جَعْفَرٍ سَقى اللهُ صُوبَ المُسْكِراتِ جِلْعَفَرا

قال : فنقلت خواطري حتى كآني ما أحسن حرفا من الشعر وقلت للمتوكل : أقل فقد والله غرب عني ذهني ، فلم يزل يعيرني به ، ثم دخلت عليه للمنادمة بعد ذلك فقال : يا علي أعلمت أني قد غاضبت محبوبه وأمرتها بلزوم مقصورتها ، ومنعت أهل القصر من كلامها ، فقلت : يا سيدي إن غاضبتها اليوم فصالحها غدا ، فدخلت عليه من الغد فقال : ويحك يا علي رأيت البارحة في النوم كآني صالحت محبوبه ، فقالت جاريتي ، شاطر يا سيدي لقد سمعت الآن في مقصورتها هينة فقال : ننظر ما هي ، فقام حافيا حتى وصلنا مقصورتها فإذا هي تغني :

أدورُ في القَصرِ كي أرى أحداً أشكو إليه فلا يُكَلِّمُني
فَمَنْ شَفِيعٌ لَنَا إلى مَلِكٍ قد زارني في اللَكرِا يُعائِني
حَتَّى إذا ما الصَّبَاحُ عادَ لَنَا عادَ إلى هَجْرِهِ ففارَقني

فصق المتوكل طربا ، فلما سمعته خرجت تقبل رجله وتمرغ خدها في التراب حتى أخذ بيدها راضيا عنها . حدث أبو علي بن الاسكري المصري واسكر هي القرية التي ولد فيها موسى عليه السلام . قال : كنت من جلاس تميم بن تميم ومن يخف عليه فأنى من بغداد بجمارية رائعة فائقة الغناء فدعا بجلساته وقدمت الستارة فغنت :

وَبَدَّ اللهُ مِنْ بَعْدِ ما اَنْدَمَلِ الهَوَى بَرِّقَ نَاقِ مَوْهِنًا لِمَعانِهِ
يَبْدُو كعَاشِيَةِ الرِّداءِ ودونَهُ صَعَبُ الزُّرَى مُتَمَنِّعٌ أَركانُهُ

وَبَدَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ لَاحَ وَلَمْ يَطِقْ نَظْرًا إِلَيْهِ وَهَدَّهُ هَيَجَانُهُ
فَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُؤُوعُهُ وَالْمَاءُ مَا سَحَّتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

قال : فأحسنت ما شاءت فطرب تميم ومن حضر ثم غنت :

سَيَسْأَلِيكَ مِمَّا دُونَ دَوْلَةِ مَفْضَلٍ أَوَائِلُهُ مَحْمُودَةٌ وَأَوَاخِرُهُ
تَنِي اللَّهُ عِطْفِيهِ وَأَلْفَ شَخْصَهُ عَلَى الْبَرِّ مُذْشَدَّتْ عَلَيْهِ مَآزِرُهُ

فطرب تميم ومن حضر ثم غنت :

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادٍ لِي قَمَرًا بِالكَرْخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ

فأفرط تميم في الطرب جدا وقال لها : تمني ما شئت فلك مناك ، قالت :
أتمني أيها الأمير عافيتيه وسلامته ، فقال : والله لا بد ان تتمني ، فقالت
على الوفاء أتمني ان أغني هذه النوبة ببغداد ، فتغير وجه تميم ، وتكدر
المجلس وقمنا فلحقتني بعض خدمه فردني ، فلما وقفت بين يديه قال : ويحك
أرأيت ما امتحننا به ولا بدلنا من الوفاء ولم أثق في هذا بغيرك فتأهب لحملها
الى بغداد فإذا غنت هناك فاصرفها فقلت : سمعا وطاعة ، ثم أصبحها جارية
سوداء تخدمها وتعادلها ، وأمر بناقة لي فحمل عليها هودج وأدخلت فيه ،
وسرنا مع القافلة الى مكة فقضينا حجتنا ثم لما وردنا القادسية أتمني السوداء
فقلت : تقول لك سيدي أين نحن ؟ فقلت لها : نحن الآن بالقادسية
فاخبرتها فسمعت صوتا قد ارتفع ناشدا :

لَمَّا رَأَيْنَا الْقَادِيسِيَّةَ حَيْثُ مُجْتَمِعُ الرَّفَاقِ
وَسَمَمْتُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَا زِ نَسِيمِ أَنْفَاسِ الْعِرَاقِ
أَبْقَنْتُ لِي وَكَلَمَنَ أَحِ بِ مُجْمَعِ شَمَلِ وَاتِّفَاقِ

وَضَحِكْتَ مِنْ فَرَحِ اللَّقَا ۚ كَمَا بَكَيتُ مِنَ الْفِرَاقِ

فصاح الناس من أبطار الفائلة : أعيدي بالله فلم يسمع لها كلمة ، فلما نزلنا الناصرية على خمس أميال من بغداد في بساتين منصلة تبين الناس فيها ثم يبكرون بغداد ، فلما قرب الصباح اذ السواد قد أتتني مذعورة فقالت : إن سيدتي ليست بمحاضرة ، فلم أجدها ، ولا وجدت لها ببغداد خبرا ، فتضيت حوائجي وانصرفت الى تيم وأخبرته خبرها ، فلم ينزل واجا عليها . واخبار القينات كثيرة فنقتصر منها على هذا القدر .

٤٨ - محاسن الجوارى مطلقا

قيل ، كان يقال : من أراد قلة المؤنة ، وخفة النفقة ، وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر . وكان مسلمة بن مسلمة يقول : عجبت ان استمتع بالسرايري كيف يتزوج المهائر ؟ وقال : السرور باتخاذ السرايري ، وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الاماء أمهات أولادهم حتى نشأ فيهم علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم وفاق أهل المدينة فقها وعلماً وورعاً ، فوغب الناس في اتخاذ السرايري ، قال : وليس من خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر الا ثلاثة : السفاح والمنصور والأمين ، والباقون كلهم أبناء الجوارى ، وقد علمت الجوارى لأنهن يجتمعن عز العرب ودهاء العجم .

(ضده)

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَنْزِلِ الرَّءِ حُرَّةٌ رَأَى خَالًا فِيمَا تَوَلَّى الْوَلَائِدِ
فَلَا يَتَّخِذُ مِنْهُنَّ حُرًّا قَعِيدَةً فَمَنْ كَعَمْرُ اللَّهِ شَرُّ الْقَعَائِدِ

وكان يقال : الجواربي كخبز السوق ، والحرائر كخبز الدور . ومن أمثال العرب : لا تمازح أمة ، ولا تبك على أكمة ، وقال بعضهم : لا تفتش من تداولتها أيدي النخاسين ، ووقع ثمنها في الموازين ، وقال : لا خير في بنات الكفر ، وقد نودي عليهن في الأسواق ، ومرت عليهن أيدي الفساق .

٤٩ - محاسن الموت

في الحديث المرفوع (الموت راحة) ، وقال بعض السلف : ما من مؤمن إلا والموت خير له من الحياة ، لأنه إن كان محسنا فالله يقول « وما عند الله خيرٌ للأبرارِ » وإن كان مسيئاً فالله تعالى جده يقول أيضاً « ولا يحسبنَّ الذينَ كفَرُوا أنَّها تُملي لهمْ خيراً لأنفسِهِمْ إنَّما تُملي لهمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا » وقال مسيون بن مهران : أتيت عمر بن عبد العزيز فكثرت بكأزه ومسأته الله الموت فقلت : يا أمير المؤمنين تسأل ربك الموت ، وقد صنع الله على يدك خيراً كثيراً أحسيت سننا ، وأمت بدعا ، وفعلت ، وصنعت ، ولبقائك رحمة للمؤمنين ، فقال : الا أكون كالعبد الصالح حين أقر الله عينه وجمع له امره قال « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » إلى قوله « وألحقني بالصالحين » فما دار عليه أسبوع حتى مات رحمه الله ، قالت الفلاسفة : لا يستكمل الانسان حد الانسانية إلا بالموت ، لأن حد الانسانية إنه حي ناطق ميت وقال بعض السلف الصالح : اذا مات استراح ، والطاق إذا مات استريح منه قال الشاعر :

وما الموتُ إلا راحةٌ غيرَ أنه أبردُ بنا من كلِّ برٍّ وأزأفُ

وقال آخر :

جَزَا اللهُ عَنَّا الْمَوْتَ خَيْرًا فَإِنَّهُ
يَجْعَلُ تَخْلِيصَ النَّفْسِ مِنَ الْأَذَى
أَبْرًا بِنَا مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَأَرَأْفُ
وَيُدْنِي مِنَ الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ

وقال منصور الفقيه :

قَدَقَلْتُ إِنْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَاسْرَفُوا
مِنْهَا أَمَانُ بَقَائِهِ بِلِقَائِهِ
فِي الْمَوْتِ أَلْفُ فَضِيلَةٍ لَا تُعْرَفُ
وَفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يُنْصَفُ

وقال أحمد بن أبي بكر الكاتب :

مَنْ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَمِيشَ فإِنِّي
فِي الْمَوْتِ أَلْفُ فَضِيلَةٍ لَوْ أَنَّهَا
أَصْبَحْتُ أَرْجُو أَنْ أَمُوتَ فَاعْتَقَا
عُرِفْتُ لَكَانَ سَبِيلَهُ أَنْ يُعْشَقَا

وقال لنكك البصري :

نَحْنُ وَاللَّهِ فِي زَمَانٍ خَشُومٍ
أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ سُوءِ حَالٍ
لَوْ رَأَيْنَاهُ فِي الْمَنَامِ فَرَفْنَا
حَقُّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَنْ يَهْنَأَا

(ضده)

في الحديث المرفوع (أكثر واذكرها ذه الذات - يعني الموت -)
قال الشاعر :

يَا مَوْتَ مَا أَنْجَفَاكَ مِنْ نَازِلٍ
تَسْتَلِبُ الْعَذْرَاءَ مِنْ خَذِرِهَا
تَنْزِلُ بِالْمَرءِ عَلَى رُفْعِهِ
وَتَأْخُذُ الْوَاحِدَ مِنْ أُمِّهِ

وقال :

وكلُّ ذي غَيْبَةٍ لَهُ إِبَابٌ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَتُوبُ

وقال بعضهم : الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيها سهام المنايا ، وقال ابن المعتز : الموت كسهم مرسل اليك ، وعمرك بقدر سفره نحوك ، وقال بعضهم : الموت أشد مما قبله ، وأهون مما بعده ، ونظر الحسن رضي الله عنه الى ميت يدفن فقال : إن شيئاً أوله هذا الحقيق أن يخاف آخره ، وإن شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله ، وسئل بعض الفلاسفة عن الموت فقال : مغازة من ركبها ضل خبره ، وعفى أثره . والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد القهار . منشيء الخلق أطواراً بعد أطوار . وعلمهم من حكمه وآدابه ما به يتوصل الى تجلية الفكر عن الأغيار . وحلاهم في الآخرة بمشاهدته سبحانه كل شيء عنده بمقدار . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المختار . وعلى آله وأصحابه وآل بيته الخيرة الأبرار .

أما بعد فقد تم بعون الله طبع هذا الكتاب الذي ينعش النفوس ويؤديها . ويزكي للطباع ويهذبها . فهو كما يصف الواصفون نديم نفيس ، وجليس أنيس ، وسهير كل أمير ، بل أمير كل سفير * ألا وهو كتاب المحاسن والأضداد لمؤلفه العلامة النحوي . والشيخ الكبير . ذو التصانيف العديدة . والرسائل المفيدة . الشيخ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري إمام

أهل الأدب رحمه الله ، وذلك بمطبعة الساحل الجنوبي الشياح - لبنان

وقد قام بنفقة طبعه الحاج ابراهيم زين عاصي

صاحب مكتبة العرفان الكبرى

بيروت - شارع سوريا

جزى الله الجميع خيراً

الجزء

تم طبع هذا الكتاب

على

طبعة الساجل الجنوبي

الشيح - لبنان

—

الفهرس

صفحة	عنوان	صفحة	عنوان
٩٣	محاسن حب الوطن	٤	محاسن الكتابة والكتب
١٠١	محاسن الدهاء والحيل	٩	محاسن الخطابات
١٠٧	محاسن المفاخرة	١٤	محاسن المكاتبات
١٢٨	محاسن الثقة بالله	١٨	محاسن الجواب
١٢٩	محاسن طلب الرزق	٢٠	محاسن حفظ اللسان
١٣٣	محاسن المواعظ	٢٣	محاسن كتمان السر
١٣٤	محاسن فضل الدنيا	٢٩	محاسن المشورة
١٤١	محاسن الزهد	٣٠	محاسن الشكر
١٤٥	محاسن النساء العاديات	٣٦	محاسن الصدق
١٥٢	النساء الماجنات	٤٠	محاسن العفو
١٦٠	الأعرابيات	٤٤	محاسن الصبر على الحبس
١٦٣	محاسن المنكلمات	٤٩	محاسن المودة
١٦٨	محاسن النساء	٥٢	محاسن الولايات
١٧٤	محاسن التزويج	٥٣	محاسن الصعبة
١٧٩	أمثال في التزويج	٥٥	محاسن التطير
١٨٢	في الناشزة	٥٧	محاسن الرفاء
١٨٥	نساء الخلفاء	٦٢	محاسن السخاء
١٨٨	المطلقات	٨٠	محاسن الشجاعة

<u>صفحة</u>	<u>عنوان</u>	<u>صفحة</u>	<u>عنوان</u>
٢٧٣	محاسن الباء	١٩٣	محاسن وفاء النساء
٢٧٦	محاسن النيروز والمهرجان	٢٠٢	حديث الزباء
٢٨٠	محاسن الهدايا	٢٠٦	محاسن مكر النساء
٢٩٩	محاسن الجوارى	٢١٠	مساوىء مكر النساء
٣٠٠	محاسن الموت	٢١٢	محاسن الغيرة
	***	٢٣٣	محاسن القيادة